

# فلسفة الامم الكبرى

---

لرافعة

توماس كارليل

ومعه

طه السباعى

حقوق الطبع محفوظة

---

مطبعة البتلاوى بالقاهرة







طريق

إهداء 2005

أ/إبراهيم منصور تميم

القاهرة

# فلسفة الاملا كينس

---

لواضعه

توماس هاريل

---

ومعريه

طه الباعى

---

حقوق الطبع محفوظة

---

مطبعة البعلاوى



## بسم الله الرحمن الرحيم

### كلمة المعرب

«توماس كارليل» اسم غير جديد على مسامع القراء من أبناء العربية. فلقد سبقني أخى محمد السباعى الى تعريب كتابه «الابطال وعبادة البطولة» ولست أشك في أن كثيرًا ممن أطلعوا على هذا الكتاب المتع قد فتوا بطريقته المجدية في التفكير، وأسلوبه الاعجب في التعبير. ولكن «كارليل» قد اقتصر في كتاب الابطال على شرح مذهبه في فلسفة التاريخ ورأيه في تقدير عظماء الرجال، فبقى علينا أن نعرف رأيه فيما هو أجل وأعظم: في الحياة ذاتها وموقف الانسان ازاء أسرارها الماثلة ومشاكلها العويصة. وذلك ما أحاول اليوم ان أفعله بتعريب كتابه «فلسفة الملابس» (١)

يبدانى لا أدري أيها القارئ، وقد جلوت عليك هذا الكتاب في ثوبه العربي، أوفقت الى غرضي أم لم أوفق، وأخفقت في محاولتي أم لم أخفق. لقد أردت ان أحدث في نفسك ثورة واتقلابا - أن أحل المصاوبة عن عينك، واتزع السدادة من أذنك، حتى ترى بعض ما يحيط بك من جمال، وحتى تسمع بعض ما يصدح حولك من أنغام. أردت أن أغير ولو لحظة مألوف

---

(١) الاسم المعروف به هذا الكتاب في اللغة الانجليزية هو «سارتر وزيارتس»

وهي عبارة لاثينية معناها: الخياط يرفع.

نسبتك الى الحياة ، وأبدل معهود وضعك في الكون ، لتتظر الاشياء في نور جديد ، وتتأمل الدنيا من غير وجهها المهود ، فتلمح بعض ماخفي عليك من صلات القرب بين المتباعدات ، وأواصر النسب بين المتناقضات ، وتدرك أن الكون كله وحدة مترابطة الاجزاء ، يمت وضيئها الى ربيعها بأمتن الاسباب ، وينتفى دقيقتها الى جليلها بأقرب الانساب .

اتذكر اذ أنت غلام كيف كان يلذك أن تنظر الى المراثيات من خلال بلورة تحلل الضوء الابيض الى عناصره الاولى ، فاذا الاشياء التي عهدك بها لا رواء لها ولا هجة قد اكتست حلة طلية من أصباغ زاهية وألوان بهية ؟ كذلك أردت أن أضع في يدك من هذا الكتاب منشوراً بلوريا يحلل مظاهر الحياة المألوفة الى عناصرها الاولى من حقائق تبهر العيون روحاً ، وتستبي المعقول جمالا .

تلك في الواقع هي الفايقالتى قصداً اليها «كارليل» من وضع كتابه «فلسفة الملابس» . والحق ان هذا هو النرض الذي يرى اليه الادب في جلته ، وعلى اختلاف فنونه . فأتما وظيفته ان ينفض الغبار عن وجه الحياة - أو بعبارة أصح أن يهتك المشاوة عن أعيننا - حتى نشاهد من روايتها وروائعها ، وعجائبها وغرائبها ، ما هو خليق بأن يستثير كوامن قفوسنا ، ويفسح مدى أبصارنا ، وينبع خامل مشاعرنا ، فاذا حياتنا قد ارتفعت من ضمة ، واتسعت من ضيق ، وأثرت من فاقة ، واذا حظنا من الاستمتاع بها قد بورك وتضاعف . وأشهد لقد وفق «كارليل» الى ما ابتاع من إقامة دولة العجب أياً ما توفيق ، فاني لا أعرف كتاباً كان له من بليغ الوقع في قسى وعميق الاثر في حياتي ما كان لكتاب فلسفة الملابس هذا . ولقد أذكر اني في أول عهدي بقراءته ،



وقد أثار من كوامن نفسى ما أثار، وغير من طرائق تفكيرى ما غير  
وحرك من ساكنات خواطرى ما حرك - كنت سائراً في بعض الشوارع  
أجول، فوقعت عيني على قشرة برقالة ملقاة على الأرض . لقد مضى الآن  
على هذه الحادثة نيف وخمسة عشر عاماً، ولكن هذه القشرة الذابلة الصفراء  
لا تزال تتوهج في خيلى . أتدرى لماذا أثارها القارىء ؟ لأن الورق الذى فى اذنى  
والغشاء الذى على بصرى، كانا قد رفعا عني فى تلك اللحظة المقدسة، فرأيت  
فى تلك القشرة الهيئة المطرحة مظهرآً آلهيا - رأيت يد الله ، جلت قدرته،  
تعمل فيها دائبة مبدعة، منتقلة بها فى أثناء الابدية وإنحاء الانهاية فى سلسلة  
لا تنقطع من عجيب التطورات . فطوراً تكون فتاة من صخرة، وطوراً  
ثمرة على شجرة، وتارة نسيجة فى عضلة حيوان، وتارة ذرة فى مخ إنسان  
ففى فى رحلة لا نهاية لها تستغرق الزمان من مبداء الى منتهى ، وتنظم  
المكان من أقصاه الى أقصاه، متخلقة فى سيرها مظاهر الكون اجمع، من جوامده  
ورواسيه، الى سوائله ونواميه، الى كواكبه ودرايه . ثم لا تسكنى عن مبلغ  
ما شاع فى صدري من طرب، وما استفاض بين جوانحي من أريحية ، وأنا  
أسمع من فم قشرة البرقالة هذا الحديث العجب .

على أن كتاب فلسفة الملابس لا يقتصر على تناول الحياة من هذه الناحية  
دون سواها، بل هو يتناولها من جميع جوانبها، ويعبر - كما أسلفنا - عن  
رأى صاحبه فى كل ما تضمنت من عويص المشاكل وملغز المعضلات، وأحرى به  
أن يسمى « فلسفة الحياة » لا « فلسفة الملابس » . ولئن كان الشأن بالنسبة  
لاكثر الفلاسفة واصحاب المذاهب انك لا تستطيع الوقوف على رأيهم فى  
فلسفة الحياة الا بالرجوع الى كل ما ألفوا، واستيعاب كل ما صنفوا، فالامر

لحسن الحظ ليس كذلك بالنسبة الى «كارليل». ذلك بأنه كان قد استوفى  
نضوجه الفكري قبل أن يخرج للناس كتاب فلسفة الملابس، فلما وضعه،  
وكان قد ناهز الاربعين، ضمنه خلاصة آرائه وأصول معتقداته، ثم مضى  
بعد ذلك في كل ما أخرج من مؤلفات، وفي كل ما انتجت براعته من  
ثمرات، يفصل ما أجل، أو يسهب فيما أوجز، أو يعيد ويبدى فيما قرر،  
دون أن يأتي مع ذلك بشيء في فلسفة الحياة جديد.

ولئن اردت أن تجمل فلسفة «كارليل» هذه كما أوجزها وفصلها لاستطعت  
أن تقفل في كلمتين من كلماته التي يصح أن ترسل أمثالا وهما: (ملكوتى  
وسلطانى فيما أنتج وأصنع، لافيا أملك وأجمع) و(انما الدنيا كهف عجائب  
وأحلام). في هاتين الكلمتين تتلخص الرسالة الكبرى التي جاء «كارليل»  
يشرح للناس تفاصيلها، ويفرس في القلوب أصولها. فهو من الناحية  
السلبية يريد أن يقف الانسان من الكون موقف الاعجاب والخشوع  
والاجلال، وهو من الناحية الإيجابية يريد أن يقبل الانسان على العمل في  
الحياة بروح التفاؤل والنشاط والاقدام، عاولا بذلك أن يوفق بين استغراق  
المتصوف في نشوته، ومضاء رجل العمل في همته، أو بعبارة أخرى أن  
يمزج مادية الحضارة الغربية، بروحانية الحضارة الشرفية.

ولقد نحا «كارليل» في وضع كتابه «فلسفة الملابس» نحوا غريبا، فزعم  
انه انما ينقله نقلا عن كتاب ظهر حديثا لفيلسوف المانى، ومضى يطلب في  
بيان خصائصه، ويردف ذلك بما زعم انه ترجمة حياته. ولسوف يفطن  
القارىء لاهماله الى أن هذه القصة الغريبة التي يقصها علينا المؤلف عن كتاب  
فلسفة الملابس وفيلسوفها ان هي الاتلفيق محكم من قلم ماهر، واختراع بديع

لنهن خصب ، وان تيوفلسدروخ - تلك الشخصية المعجبة للنفزة - ليس  
الا صورة رمزية ، ان لم تكن صورة شمسية ، « لكارليل » نفسه .

وما نظن بعد اذ يظن القارىء الى هذه الحقيقة أننا في كبير حاجة الى  
التعليق على الكتاب في ايجاز أو اطناب . والحق أن الناشر الاصلى - واعني به  
« كارليل » كما يلقب نفسه - قد اغنى كل ناشر سواه عن معالجة هذه المهمة بما اثره  
ثرا في تضاعيف كتابه من تعليقات وملاحظات ، أفرغت احيانا في قالب  
أنيق من التهمك ، ولكنها على كل حال لا تدعو أن تصيب الحقيقة في صميمها .  
بقي أن نشير قبل ختام هذه الكلمة الى أننا لما خطر لنا ترجمة هذا  
الكتاب فكّرنا كثيرا ، وترددنا طويلا ، ولولا تحمس كان يحفزنا حفزاً  
لمباشرة هذا العمل ما كنّا لتقدم عليه . ولعل من اطلع على الكتاب في لنته  
الاصلية يجد لنا في هذا الاحجام بعض العذر ، فان « لكارليل » وبخاصة في  
هذا الكتاب ، أسلوبا غريبا يصح أن يوصف بأنه موحشي . وما نملك بأسلوب  
يحكي الطبيعة ذاتها في أروع مجاليها وأهيب مظاهرها ، أسلوب يمج  
جميعا بما اكتظ به وباحتشده فيه من تشبيهات واستعارات تشير الى كل  
شيء في الارض والى كل شيء في السماء ، ويتدفق لا كالتهر في انحداره ، بل  
كالسيل في استبحاره ، مرغيا مزيداً ، متهمزاً متلاطماً ، قد انعمت فوقه  
هالات من أقواس قزح ، وان كان يحمل على صدره أحيانا ما لا بد منه من  
غشاء وحشالة . ولا شك في أن جانباً عظيماً من التأثير الذي يحدثه « كارليل » في  
نفس قارئه يرجع الى سحر أسلوبه وغرابة . فاذا كنا قد أعربنا في صدر هذه  
الكلمة عن ارتيابنا في ادراك النرض التي قصدنا اليها من تريب هذا الكتاب ،  
فلاننا نحشى ان تكون لطيفة ذلك السحر قد أفلتت منا في طريق النقل .

فان كنت أجهل القارىء، تخرج من هذا التريب وأنت لا تشعر بانك بدلت  
بنفسك نفساً سواها، فاعلم أن الذنب ليس بـ«كارليل»، ولكن بـ«ذنب غيره».

٧ أبريل سنة ١٩٢٧

طه البهاى



## الكتاب الاول

### الفصل الاول

مقدمة

إذا اعتبر المتأمل أى شأو طموح في الثقافة بلغناه ونظر الى سراج العلم - ذلك الذي ما برح منذ زيف وخسة آلاف من السنين يحمل عالياً ، طوراً وهاجاً وطوراً أخايكاً - كيف راح في وقتنا هذا يتوقد بشدة لم تعهد من قبل ، بل كيف أن شُعلاً لا تحصى قد فصلت منه ، وتطارت عنه ، منبهة في كل ناحية ، مندسة في كل زاوية ، حتى لم يبق في عالم الطبيعة أصغر ثقب ، أو في عالم الفنون أخفى ثقب ، إلا أضاعت ثنائه ، وانكشفت خباياه - إذا تأمل المتأمل هذه الحقائق أدهشه أن لا يجد مؤلفاً وضع حتى اليوم في موضوع للابس لا من قبيل الفلاسفة ولا من طريق التاريخ .

إن نظرية الجاذبية تكاد تبلغ حد الكمال فهذا « لاجرانج »<sup>(١)</sup> قد أثبت أن نظام الكواكب السيارة جدير بأن يثبت على تلك النظرية مدى الآباد بل هذا « لابلاس »<sup>(٢)</sup> يرى أنه ما كان ثمة من سبيل لوضع ذلك النظام على أية نظرية أخرى ، ومن ثم أصبحت دلائلنا البحرية أكثر دقة وهداية كما صارت وسائل النقل المائية على اختلافها أجمع لأسباب الراحة . كذلك نحن قد أخذنا بالحظ الأوفر من علم طبقات الأرض وعلم مواد الأرض حتى لقد أصبح كثير من الجمعيات الملكية يرى أن خلق أى عالم من العوالم لم يعد

(١) . (٢) طالبان من كبار علماء ذلك

سراً خفياً أكثر من صنع أية فطيرة من الفطائر - هذا علما ما لدينا من المباحث الطوال عن عقد الاجتماع ومقياس النوق وهجرة الأسماك وعنا ما اهتمدنا اليه من نظريات القيم والأجور وفلسفات اللغة والتاريخ والخزف والأشباح والجنور - والواقع أن حياة الانسان بحذايها وظروفه بأجمعها قد هتكت عن واطنها الحجب وأميطت عن غوامضها الاستار حتى لا تكاد ترى قطعة أو نسيجاً من روحه أو جسمه أو مقتنياته وملكه الا قد سبرت واختبرت وشرحت وقطرت وجفت وحلت .

فلقاتل بعد ذلك أن يقول كيف كان إذن أن العلم قد أعرض كل الاعراض عن أعظم النسائج شأننا وأكبرها خطراً ، عن النسيج الحقيقى الوحيد أعنى النسيج الثوبى الذى يحاك من الصوف أو ما عدها والذى تتخذه النفس الأدمية دثاراً شاملاً تلفت فى أثناءه وتحتمى بحماه فيكون لها غلافاً ظاهراً يحجب ويحمى ما للانسان من سائر النسيج . نعم لقد نرى فى بعض الاحايين مفكراً مبيض الجناح يلقي نظرة كنظرة البومة المشواء شطر ذلك الاقليم النامض الارزاء ولكن معظم الفلاسفة والمفكرين يحلقون فوقه ضاريين عنه صفحاً معرضين عنه كشفا معتبرين الملابس للانسان خاصة خطيرة لا ظاهرة عرضية كأنها تخلق لنا عفواً ودهواً يحكم الطبيعة كما تنفطر الاوراق على لحاء الأغصان وكما ينبت الريش فى أجنحة الطيور . فهم يصورون الانسان ضمناً فى جميع مؤلفاتهم حيواناً مكسواً مستوراً والحقيقة أنه يحكم الطبيعة حيوان عار مكشوف ، لا يستطيع تغطية بدنه بالملابس الا فى أحوال مملومة بعد أن يعتمد ذلك تمداً فيتخذ له أهيته ويدبر له حيلته . يقول شكسبير نحن خلائق نرى بأبصارنا خلفاً وأماماً . فيا للمعجب فعمل ذلك ثم لانهم

بالنظر حولنا قليلاً حتى نرى ما يقع تحت أعيننا وما يجري بين أقدامنا .  
ولكن في هذا المقام - كما في سواه من المقامات - نجد الألمان أهل  
الرأى والعرفان والمثابرة التي لا تعرف الونى والكلال - يتقدمون الى  
موتنا وإسمافنا . وانما لثمة من الله أن يظل بين البلاد في هذا العصر  
المضطرب والزمن المصيب بلد يحدد فيه البحث النظري مأوى وملجأ وأنه  
بينما وضوا الفتن السياسية والقتال الدنية قد أصمت آذان الفرنسيين  
والانجليز ، لا يزال الألمان قادرين على الوقوف في مرقبه العلمى ثابت الجنان  
يعلمن للجواهر المتخبطه حوله في كل مكان كم تكون الساعة آنا بعد آن .  
وكثيرا ما يلام الألمان على اجتهدهم في المباحث النظرية العقيمة كأنهم  
عدلوا عن سوله السبيل الى مفاوز قاحلة لا يجني سالكها غير وعاء السفر  
وكأنهم صدوا عن النتائج التهيية التي في المباحث المالىقوالاقتصادية وانطلقوا  
من النظريات في فياف جرداء جل حظهم منها أن يرتطموا في بعض مناقبها  
النائية . والحق اننا لا نستطيع الدفاع عن ذلك العلم الأحمق الذى يحصر  
حجمه كما يقول الشاعر الفكاهى « في تقدير احجام الدنان بللقياس الهندسي »  
كلا ولا نستطيع الدفاع عن ذلك النشاط الضائع الذى نراه مشيحاً كجداً يدرس  
تبناً محضاً . فان كانت هذه التهم في حق الألمان صحيحة فلنتركهم وشأنهم  
يتحملون مغباتها . وانما نريد أن نقول كلمة من باب الملاحظة وذلك أنه مامن  
مسرح قفرا لوفيه بقع غصبة وأكلاء مريمة ، وهذه فيافي سيديريا التي يضرب  
المثل باعها لا تعدم ما يزينها . من كل زهرة زهراء وبقعة نضراء ، وكم من بلد  
تقتحمه العين على البعد ولا تحسب فيه غير صحار قفراء تحدها صخور صماء  
حتى اذا أقبلت اليه تكشف عن كل منظر رائع فتان وكل واد ناضر المشب

مترع التدرن ، فيا للمجب أرى من النقد لا يكتفي بأن ينصب في طريق العقل  
أعلاماً تهديه بل هو يريد أن يقيم حوله أسواراً ويضرب دونه أسداده ؟ لقد  
جاء في الكتاب المقدس « ان كثيرين سيقبلون ويدبرون ويضربون في  
أكناف الارض ويطوفون وبذلك تزداد المارف وتنكشف العلوم »  
والقاعدة الجلية هي بلا ريب أن ندع كل انسان يمضي في سبيله وننظر  
الى آية غاية تقضى به ، فلنكر رأينا من مخاطر جوال سلقه الناس بالسنة التعذال  
قد عثر في تطوافه على إقليم شاحط مهمل ولكنه من الخطورة بالمكان  
الأرفع ، فكان ذلك المخاطر أول من استثار مكنون دقاته وما زال يملن للملا  
نبأ استكشافه حتى توجهت الانظار والمجهودات الى حيث يشير وبذلك  
تم الفتح . فكانت هذه الجولات التي لم يكن لها في الظاهر غرض معلوم  
سبباً في رفع أعلام جديدة وإنشاء مستعمرات حديثة في ذلك الاقليم الشاسع  
الارجاء المحيط بنا من جميع الانحاء - اقليم المجهول . فله ذلك أيها  
الحكيم حيث تقول « من حقوق العقل أن يكون مفسوح المجال لمحاول  
المقال ينهب غير خائف ولا وجل حيثما شاء من مناحي الرأي ومذاهب التفكير  
وربما كان في اعترافنا مشر الانجليز لأول مرة بأن شيئاً من فلسفة الملابس  
لم يخطر على بال أحد منا قبل اليوم دليل على ما وصلت اليه العلوم النظرية فيما  
يبتنا من الوهن والاضمحلال وبرهان على أن عظمتنا التجارية ودستورنا  
النفيس قد ضيقا على الفكر خنقه وشدا وثاقه . فأى ذهن انجليزى كان  
يستطيع التعرض لهذا الموضوع الفلسفى صدفه واتفاقاً ، بله تممدا واختياراً ؟  
والواقع أن هذا المبحث النظرى اللقيق كان على خطورته لاحالة يلبث أبداً الدهر  
مهملًا لولا تلك المباشرة الطليقة وان شئت فقل المحجة المعزولة التي



يمدشها الألمان فتسمح لهم بل تحضهم على التصيد بجميع أصناف الشباك في جميع أنواع الميلاء.

وان ناشر هذه الصحف بالرغم مما يدعيه لنفسه من اعتياد التفكير الفلسفي والنفوذ في البحث المنطقي ليعترف بأن هذه الخواطر الجلية عن افتقارنا التام الى فلسفة الملابس لم تخطر بباله الا منذ عهد قريب ولم ترد الى ذهنه الا من مصدر أجنبي أعني من كتاب جديد ألفه الاستاذ « تيوفلسدروخ » في هذا الموضوع موردا كلامه في أسلوب لا أدرى ان كان مفهوماً أو غير مفهوم ولكنني أعلم أنه من النراية بحيث يستوقف أنظار المعنى فضلاً عن المبصرين ، ولقد تصفحت هذا الكتاب العجيب المرة بعد المرة وتأملت فيما حوى من الآراء والنظرات فكان لها في نفسي أشد وقع وأبلغ أثر .

والكتاب مطبوع في مدينة « وسنتشتو » حيث يقيم الاستاذ واليك بمض ما قال فيه مقرضه « تقدم الى القراء كتاباً من تلك النوع الكبير الحجم الدقيق الحروف ، الدقيق الآراء ، الذي تقول ولا تغر ولا عجب ليس له مثيل في غير المانيا بل في غير « وسنتشتو » وقد قامت بطبعه شركة « ستلشويجن » فاعتنت باتقان ظاهره كل الاعتناء أما باطنه فقد حوى من الفضل ما يرفعه عن منزلة الإهمال ويجعله قبلة الخواطر والأذهان » ثم يحتم المقرض مقالته بقوله « كتاب يلذ الباحث في الماديات كما يلذ الباحث في الفلسفيات ويفيد طالب الأدب كما يفيد طالب التاريخ وآية من آيات الاقتدار والجرأة ، وثقوب النظر والحدة ، وأثر من آثار الألمانية المستقلة المحضة ، لن يقابل ولا شك في المقامات العالية مقابلة خالية من الاعتراض ولكنه سوف يرفع اسم صاحبه الى أرفع طبقات الفلسفة في هيكل الشرف الألماني »

وقد زعمى لنا مؤلفه - الأستاذ الفاضل - حق المودة التقديرية فأهدى  
الينا نسخة منه وشفعها بكلمة من الثناء يمنحنا من نشرها الحياة ولكنه لم  
يردفها بطلب أو رجاء

## الفصل الثانى

### صاحب فى سين الفتر

إذا كان طالب العلم لا يرى أن فتحاً من الفتح هو أعجب وأعلى وأشرف  
وأسمى من الاطلاع على طريف الآراء وجديد الأفكار فخير بنشر هذه  
الصحف أن يعد يوم تسلمه كتاب الأستاذ يوماً أغر محجلاً ، والحق  
انه كتاب كبير الحجم جم المصوبات غزير المادّة متنوع الأبواب : بجر زاجر  
بالخواطر والفكر غير هادئ ولا رائق ولكنه لا يمنع أجسر القواصين من  
الغوص فى أعماق أغواره فيعود منها لا بعجز الحثالة والنفاية بل أيضاً بمصادق  
البروقيس الجوهر.

والواقع انى ما كنت أطلع على الكتاب لأول مرة بل ما كنت  
أتمصفحه لأول وهلة حتى تبينت بين يدي فرعاً جديداً من الفلسفة يفضى  
الى نتائج بعيدة لم تظهر بعد للميان ولم تترك قط فى خلد ولا حسابان وحتى  
علمت انى قد عثرت على شيء لا يقل عن ذلك شأنًا وخطورة وهو شخصية  
جديدة عديدة النيل وأخلاق غريبة منقطعة النظير، أعني بها شخصية الامتاز  
تيوفلسدروخ . فمقدت الزم على بذل ما أوتيت من حول ومن طاقة فى  
تعرف هاتين الطريقتين ولكن لما كان الانسان بحكم الطبع مولماً بصطناع

الاتباع واتخاذ الاشياء فاني ما كنت أشعر في امضاء تلك الغزعة حتى واجهتني مشكلة جديدة وهي : كيف السبيل الى اشراك الغير فيما حصلت عليه من الخير، وكيف يمكن تقريب فلسفة لللابس وواضعها من افهام أبناء وطني وبني جلدتي ؟ فلئن صح ما يقال عن التهرب الحديث المكتسب أنه يكاد يحرق جيب صاحبه ان لم يقذف به في مجال التعامل فأولى وأحرى بالحقائق الجديدة أن لا تدع مستفيدا ينفق طعم الراحة حتى يلقي بها في تيار الآراء .

بيد أني ما لبثت حتى قامت العقبات في وجهي اذ رأيت اني لو خاطرت بنشر فلسفة الللابس دون ترجمة الفيلسوف ولو أقدمت على شرح منهج الأستاذ وآرائه دون إيضاح تفسيره وأخلاقه لمرّضت كلا الأمرين لسوء الفهم . وكنت كما فكرت في انشاء ترجمة للؤلؤ لم أجدين يدي من المعلومات والمستندات مادة أعول عليها وذخيرة أرجع اليها ، وما كان لي في الحصول على شيء من ذلك أدنى أمل ، وكذلك مكثت برهة لا أجد سبيلاً الى نشر هذه الحقائق الغريبة والمبايعة المدهشة فجعلت أجعلها في أعماق ضميري وأقلبها في ظلام جراحي وأنا أعاني من القلق ما أعاني .

ومرّت الأيام وانسلت الشهور وقد طالعت الكتاب المرة بعد المرة فشرعت معانيه الغامضة تتوضح وتتبايع في غير موضع وجعلت شخصية اللؤلؤ ترداد في نظري غريبة وشذوذاً والتباساً وتمقيداً حتى اذا كاد القلق اللقي يخامرني يستحيل سخطاً مستقراً وبأساً مستقراً لم يرعني الاورود خطاب من المهر هفوات هشر ك أعز أصدقاء الأستاذ أقاض فيه عما أحدثته فلسفة الللابس من الضجة في عالم الأدب الألماني وأسهب في وصف

ما لكتاب صديقه من الفضل الجزيل والخطر الجليل وما يرى اليه من بعيد  
الاعراض وخفى المآرب ثم أشار تلميحاً الى إمكان التنويه بالكتاب والاشادة  
بالمؤلف بين معشر الانجليز وقال ان صدور كتاب عن الاستاذ تيوفلسدروخ  
أمر جدير أن يقابل بالهتاف والترحيب وحقيق أن يحدث ثورة فكرية يرنج  
لها عالم الازهان ثم ختم خطابه مصرحاً بأنه اذا شاء ناشر هذه الصحف انشاء  
ترجمة للاستاذ فهو مستعد لتقديم المستندات اللازمة .

وكما أن بعض الخاليط الكيميائية التي تكون قد مضت عليها برهة  
من الزمن وهي تتباخر وتأتي التبلور - لا تلبث متى انغمس فيها السلك  
أو ما عدها من المواد المثبتة أن تأخذ في التبلور وتسرع فيه حتى يتم على الوجه  
الأكل فكذلك كان مثلي ومثل المساعدة التي عرضها على المر هفرت . فإ  
نشبت خواطري ان تبدلت من التفرق والانتشار ، التجمع والاستقراره  
فاتحد المشيل بمثله والتأم النظر بنظيره ونهياً من المجموع صورة جلية وفكرة  
منظمة وتمثل أملى المشروع بخفايره ان لم يكن في حيز الوجود المحقق  
فلي الأقل في حيز الأمل الممكن .

وليس هنا محل البحث في كفايتنا لتولى هذا العمل ومقدرتنا على  
الاضطلاع به بل حسب القاريء أن يعم النظر فيما نحن مقدمون اليه وأن  
يستمتع بما نحن عارضون عليه مستميناً على ذلك بكل ما أوتي من تقوؤ  
البصيرة وقوة التأمل وحسن النية وصدق الادراك لينظر في هذا الكتاب  
بذهن مبرأ من سوابق الاوهام وبقل طليق من قيود التقعر حاصراً أفكاره  
في ذات الكتاب دون ناشره .

وليأمن القاريء أن يرى من جانبنا ميلاً الى الهابة فليس ما بيننا وبين

الأستاذ من صلات المودة بقادر على التأخير في حكمتنا بحيث يدغمنا الى تلطيف  
سيناته أو تجسيم حسنه . نعم انا لنحفظ له أطيب الذكريات وخير المهود  
فأرأينا ولن نرى أمثال تلك الليالي الحسان والمجالس الكريمة اذ كانت  
تفيض علينا الحكمة من ينايعها الصافية وتشجينا القصاحة بأنفاسها الرخيمة !  
ولكن ما وراء ذلك ؟ اذا كان الأستاذ صديقنا فالحق ألحنا وانا لندرجو أن  
نكون في مهمتنا الحاضرة غرباء عن الناس أجمعين ليس لأحد عندنا حظوة  
ولا في صدورنا عليه منيعة وقد رأينا من المناسب أن تقدم هذه الملاحظة  
بين يدي التتاري . فقد بلغ النش والكذب والخداع في وقتنا هذا مبلغاً لم  
تبلغه في زمن من الأزمان حتي أصبح من المحتم على ناشر الكتب أن يفعل  
كما يفعل أصحاب الحوانيت في بلاد الصين فيكتب على صدور مطبوعاته  
« ليس هنا للنش مجال »

## الفصل الثالث

### ذكريات

لم يكن ظهور هذا الكتاب ليحدث في نفسنا من النهش أقل مما  
أحدثه في سائر أنحاء المعمور . والواقع اننا ما كنا لشيء من الاشياء أشد  
استعداداً منا لظهور هذا الكتاب . فلقد عرفنا الاستاذ فكان في عهد  
اتصالنا به رجلاً هادئاً ودعياً يؤثر الصمت والسكينة ، ويمنح الى العزلة  
والطمانينة . ولئن كان بمباحث الفلسفة المالية كلفاً مولعاً فقد كان اعتقادنا  
فيه أنه لا يميل الى النزول الى حومة التأليف فاذا نزل يوماً فاما يكون ذلك

لتنفيذ آراء بعض الفلاسفة لا اللاتيان بمذهب جديد لا يمكن أن يكون من شأنه إلا تأجيح نار الجدل وتوسيع هوة الخلاف .

وما ننس لا نذس آخر كلمة سمعناها منه في تلك الليلة التي لا يزال عهدنا منطبعا في ذاكرتنا . كنا مع الاستاذ في ناد يختلف اليه كل عشية أفضل القوم وصفوة أهل العلم فنهض وقد رفع الي فيه كأس الجمعة وقال بصوت خفيض يهز الاقنية وبالحاظ تحسبها الحاظ بمغز الملائكة - وان كنت لا تدري بمد هل هو ملاك علوي أم ملاك سفلي - ( أقترح عليكم أيها الاخوان أن تشربوا هذه الكأس في محبة الفقراء ) فارقت ضجة عالية مزقت رداء السكون وتلاها صوت قرع الكؤوس ثم أصوات الهتاف والتهيل وكان ذلك في آخر السهرة فنهض الحاضرون وهم في ريمان الطرب وعنفوان النشوة ، وانقض المجلس بين منعقد سحائب الدخان وقتل كل منهم راجعا الى وسادته الهاجسة ، عندئذ سمعت أحدهم يقول ( اني لأخشى على الاستاذ هذه النزعة الديموقراطية وأخاف أن تسوقه الى الممشقة يوما من الايام ) فتلفت بعضهم فتقدمه فاذا هو قد تسلل في بعض الأزقة . وكان هذا خاتمة عهدنا به وآخر مجلس ضمنا وإياه .

في مثل هذه المواقف كانت حياتنا مع الاستاذ وبمثل ذلك الميعار كنا تقدر مواهبه وأغراضه . ومن كان يدري اذ ذاك ما انطوت عليه جوانحك أيها الفيلسوف ؟ لقد كان تحت تلك التملل الوخفة الضافية للشرقة على أوقر وجهه رأياه في الوجوه ذهني مستديم النشاط . وفي تلك العيون الساجية الفائرة . أولم نلمح وميض أنوار علوية أو نيزان سفلية وهل لم يُخيّل لنا أن ذلك الهدوء البادي ليس الا سكينته الحركية الخالفة ونوم الحفروف الموار ؟ على

أن جسمك الضئيل أيها الاستاذ - وأنت جالس هناك بين ركام البغائر والكتب في ثيابك المنيرة البالية تقني ياخذ أياك في التفكير والتدخين كان يضم قلباً كبيراً . لقد كنت ترسل نظرك الثاقب في ألغاز الكون وأحاجيه فتبلغ من أعماقها ما لا يلفه سواك ، وكانت تبذل لك أسرار الحياة عن ممانها المكنونة ؛ وينكشف لك حجاب الغيوب عن مخبأاته المصونة . نعم كانت فلسفة الملابس هذه مودعة في صدرك وكانت هذه الخواطر الثرية تجول في ذهنك ، فمن ذا الذي كان يتصور يومذاك أن سدة هذا الكتاب العجيب كانت منصوبة على النول وأن الوشائع كانت تضع اللحمة في صمت وخفوت ؟ ولكن الناس فلما يفهمون أعظم الرجال بل كثيراً ما يفهمونهم علي غير حقيقتهم وهو شر وأدهى .

ولا ندرى بمدى كيف سيهتدى المهر هفرات الى جمع معلومات بنى عليها ترجمة حياة الاستاذ والحق أن هذه مسألة معضلة ولكن من حسن الحظ أن الجواب عليها ليس من شأننا . ولقد حاولنا مراراً ونحن بمدينة وسيننشستو أن نقف على سيرة هذا الفيلسوف فما كان البحث في المحفوظات ولا سؤال الواقفين على حقائق الأخبار ليجدنا قتيلاً ، وكل ما انضح لنا أنه غريب طرحته الى تلك المدينة مطارح النوى ، وشد ما تطلع الناس الى الوقوف على أصله ومنشئته وآماله ومآربه ولكنهم ما كانوا ليعتروا الا على بيانات غامضة وأجوبة مبهمه . وما برح الاستاذ يلتزم السكوت وينفر من التبسط والمخالطة فكان القوم يهيمون سؤاله فاذا اجتراً امرؤ على ذلك أجابه في الحال جواباً لطيف التخلص جارج الحد يرد السائل عن طفله ويعنمه من إعاقة الكرة . وكذلك صار معظم الناس ينظرون اليه لا كأنه من أبناء آدم وحواء .

بل كأنه شيء من الأشياء اعتادوا رؤيته دون أن يفكروا بمدى شأن من شأنه .

وقلما كان أهل المدينة يصرون الأستاذ أو يشعرون به الا عند ظهوره مساء في النادي فهناك يجلس مكباً على صفحات الجرائد أو متأملاً في سحاب الدخان المنبعث من لفافته وليس له في الظاهر شاغل سوى ذلك . وكان في كل أحواله موضع الإعجاب لوداعة أخلاقه وحلاوة شماته لا سيما إذا ففر فيه للكلام ، فهناك تحفت الأصوات وتشخص الأبصار وتشرب الأعناق تقريباً لما يفوه به من جوامع الكلم . وعندئذ ربما أطرد في حديثه فيفيض على السامعين من روائع القول تياراً متى ذابت ثلوج منامه قطع الساعات الطوال وهو يتدفق تدفقاً وينهر انهماراً . وكان مما يزيد حديثه وقماوروعة صدوره من رأس لا تخالها أشد به شعوراً أو أعظم به اهتماماً من رأس بعض الفوارات العمومية التي ترسل الماء من فوهتها النحاسية لكل من الرفيع والوضيع والشريف والخسيس لا تبالي بأي غرض يؤخذ له ولا في أي وجه ينتفع به ، سواء عليها أجهز به الطعام أم أظني به الحريق ، بل هي لا تنفك تنظر اليك نظرة واحدة وتبدي لك هيئة متماثلة ، سواء تفجر منها الماء أم لم تفجر . وكان الأستاذ يمنحنا من التبسط والإناس ما يرضن به على أكثر الناس ، فليتنا أدر كنا يوماً بمثل ذلك بعض ماله من فضل وليتنا تأملناه بالعين التي كان بها جديراً ! وقد تفضل علينا فأباح لنا من حمى يته ماله يسه الا لأعز أصدقائه وأخلص أصفياه ، وكان الذين يتمتعون بهذا الامتياز لا يتجاوزون ثلاثة أشخاص . شاهدنا مسكنه فلذا هو أعلى طبقة في أعلى بيت بالمدية يُشرف على ماحوله من البيوت أشرف القمة الشاحنة على ما يكتنفها من الهضاب



والتجود ، وفي هذه الطبقة نوافذ تطل على الجهات الأربع فيظل ساكنها كأنه في مربى علوى يرصد منه وهو وادع في كرسية تيار الحياة متدفقا في انحاء المدينة ويشاهد معظم الشوارع والأزقة بما حوت من نشاط وحركة .

ولقد نذكر فيما معناه منه قوله : « لنى لأطل من هذا المرقب على تلك الخلية الجائشة بالنحل أو ذلك الوكر الممتلئ بالزناير فأشاهدها وهي تقرر الشمع وتنجع الشهد وتخمر السم وتحتق بالكبريت . فن القصر الرفيع حيث تصدح الانعام الرخيمة والأمير الجليل يتناول النداء ، الى الزقاق الوضيع حيث تجلس المجوز الشطاء على عتبة الدار تصطلي شمس الأصيل وتمتصر من عمل أناملها مسكة الحوباء - كل ذلك أراه بعيني اذ ليس في هذه المدينة شيء هو أرفع منى مكانا غير مروحة الرياح التي تبصرها هنالك .

فن هاهنا يصل عمال البريد حاملين الأفراح والأتراح عزومة في الحفائب والعياب ، ومن هناك تأتي عربة « البارون » تملؤها أربعة مطهيات ، وهنالك ترى الجندي الأعرج يظلم بساقه الخشبية مستنديا للأكف - هذا الى ما لا يحصى من العربات والكرات ترد من الأرياف موسوقة بالأطعمة والخامات ثم تصدر مشحونة بالسلع والمصنوعات - فهل لك أن تجربني من أين يأتي وإلى أين يمضي هذا التيار المتلاطم الذي مازال يتدفق في تلك الشوارع على مدى الأزمان وتماقب الأحوال ؟ من الأبدية الى الأبدية .

هذه الأشباح التي تراها ان هي الا خيالات وأطياف . أليست كلها أرواحا أبرزت للعيان بفضل هذه الأبدان التي لا تكاد تتخذ هذا الشكل المنظور حتى يسرع اليها البلى وتلاشي كالهباء للشور ؟ بل ان هذه الأشباح لتسير في الحياة والمعم فاغرفه من تحت أقدامها ، والوقت القضاء يحيط بها من خلفها

وأماها ، حاسبة أنها نطاً مهاداً وطليداً وما نطاً في الواقع الا صورة من صنع  
الحواس وخيالاً من تهاويل المشاعر . أم هل تظن ذلك الضابط الذي يسير  
هنالك وهو يقرع الأرض بنعليه ويقيه على الناس بمطفيه ان هو الا ان اليوم  
لا أمس له ولا غد وليس بينه وبين أبوك الأولين سلسلة متصلة الحلقات  
حين الآباء والأجداد ؟ إيه يا صاح ان هذا الذي تراه هو حلقة حية في نسيج  
التاريخ الذي يضم في لحمه وسداه كل مظهر من مظاهر الحياة .

وسمعتنا مرة أخرى يقول في منتصف الليل وقد عدنا من النادي الى  
البيت « حقاً ان في السكنى بهذا المكان لرفعة وجلالا ، اني لأنظر الى تلك  
الأشعة تنبعث من المصابيح وتنشر خلال سحائب الدخان وضباب الأقباس  
حتى تقطع بعض الفراخ في ملكوت الليل القديم فأسائل نفسي ليت  
شعري ماذا ترى النجوم الثواقب في هذا الشماع الضئيل ، وماذا يدور في  
خواطر الكواكب عن هذا الضياء الكليل ؟ واني لأنصت الى ذلك  
الدوى الخافت الذي يصعد من جوف الليل وقد هدأت حركة الأخذ والمطاء  
في سبات عميق وانطلقت عربات النور تحمل أصحابه الى المقاصير ذات  
الأضواء الرفيقة اللعنان والمضاجع الوهيرة الأكنان ولم يبق في خارج المنازل  
غير البؤس والرذيلة فأقول في نفسي ان هذا الدوى الخافت - الذي كأنه  
غطيط الحياة السقيمة في نومها المتقطع المذعور - ليتجاوز منطقة الجوزاء ،  
ويصل الى مسامع السماء . يا لله ! انى خاية تختم وتغور تحت هذا النطاء  
البلشيع المنعقد من أنواع الأنجرة والأقذار ، والنازات والأوصار ! هنالك  
الفرح الجذلان والحزين الأسوان ، هنالك يحود المحتضر بجائحة زفراته ، وعلى  
حضمة أشبار منه يستهل للولود بفاتحة عبراته ، هنالك الورع المتهدج يحيى

الليل بالتسبيح والدعوات ، والى جانبه الشقي الملحد يقطع الهزيع بالسباب  
واللعنات : كل ذلك هنالك لا يفصل الضد عن ضده الاحجاب رقيق من  
الخشب والمدر ، والطوب والحجر ، والليل الفضاء يحيط بالجميع في ظلامه  
الرهيب ، ويضم الكل في صدره الرحيب . بلى يا صاحبي ما أعجب  
ما يحمرى تحت جنح الدجى من المتناقضات ، فأهل الترف والخيلاء يلهون  
فى الحجرات ذات الأرج الوهاج ، أو يضطجعون على وثير الفرش بين ستور  
الدمقس والديباج ، وأهل البؤس والشقاء يتوارون فى الأكواخ الحقيمة  
الجافية ، وينطرحون على الفرش المقضنة النائية ، مرتعدى الفراء من لعة  
القر ملتهمى الأحشاء من حرقة الجوع ، والماشئ يهمس فى أذن معشوقته ان  
العربة متأهبة للرحيل فتتسل معه بين الخوف والرجاء ، الى بلاد الله الواسعة  
الفضاء ، والشارق يتحفز فى خفة وخفوت لاقتلاع القفل من موضعه ،  
أو يتربص غفلة الحارس فى مرقبه — وفى القصور البهيجة ذات الملاعب  
الفيحاء ، والمراقص الروحاء ، ترى أهل النعيم بين الألحان الشجية ،  
والأنوار البهية ، يتدفق من جوانبهم ماء الطرب والفرح ، ويطمح فى عروقتهم  
دم الشباب والمرح ، وفى غيايات السجون ، يقيم الأشقياء والمجرمون ،  
تنابؤهم من الجزع دواعيه ، وتساورهم من الفزع أظاعيه ، وقد باتوا بقلوب  
وانية النبضان ، حسيرة الخفقان ، يقلبون خلال الفياض المكددة بهم من  
الظاهر ، والظلمات المنتشرة فى ضلالتهم من الباطن ، عيوناً قريحة الأماق ،  
ذامية الاحداق ، تتربص مطلع الفجر المكفر . ان نيفاً ونصف مليون من  
الحيوانات المرط ذوات القائمتين يرقبون حولنا فى أوضاع أقيية :  
دروسهم ملفوفة فى قبعات المنام ، وأدمغتهم محشوة بأسخف الأحلام .

هناك في مواخير الفجور وبؤر الفساد تصيح العريضة بأعلى صوتها وهم  
تترنخ يئنة وشمالاً ، وتبايل وقاحة واختيالاً ، وفي غرفة المرض فوق سرير  
الموت تحنو الأم المولحة على طفلها للمصفر المختصر مسترسلة الندائر تبتل  
بدموعها المستمرة وجنيهاً للنابتين وشفثيه اليابستين . كل هذه المخلوقات  
مكدسة أكداساً مكومة أكواماً لا يفصل بينها الا القليل من الأبنية  
والأخشاب ، فاهي في ازدحامها الا كالسك المملح في البراميل ، وماهي  
في تموجها الا كالأفاعي المحبوسة في الثقباني ، كل منها يحاول أن يرفع رأسه  
عن أقرانه ، ويسمو بهامته عن أخدانه ! فيالله كل ذلك يجرى تحت هذه  
السراقد المنقذ من اللخان والبخار ولكني أقيم هنا في عزلي وصفائي ورفعتي  
وسنلي وحيداً فريداً أراعي نجوم الليل وأنجي كواكب السماء ! »  
فتأملنا في عيا الاستاذ كي نرى ما يرسم عليه من أمرات الافعال وهو  
ينطق بهذه الخواطر النريية والهواجس الرائعة ولكننا لم نبصر غير السكون .  
المألوف والوقار المهود .

في هذه الاوقات وأمثالها كان يطيب الحديث الفيلسوف أما في غير  
ذلك فقلما ينبس الا بالألفاظ فرادى وربما التزم الصمت التزاماً وأخذ في  
التدخين تاركاً زائرته الحرية المطلقة فلما أن يقول ما يريد دون أن يتلقى من  
الاستاذ جواباً غير همهمة تصدر منه الحين بعد الحين وإما أن يتلفت حواليه  
برهة ثم ينسل في صمت وسكون . وكان الاستاذ يقيم في غرفة غربية الشأن .  
عجيبة المنظر : مكتظة الفناء بالكتب والدفاتر ، ممتلئة الفضاء بالأقلام والأوراق  
والخابر ، في كل ناحية قصاصات من كل مادة يتصورها العقل ، وفي كل جهة  
دوات من كل نوع يتناوله الوم ، يضم الجميع عنصر شامل من التبار ، ويمتد

على الكل ظل عميم من الاهیال ، كتب فوق المكاتب وكتب تحت المكاتب ،  
هاهنا قرطاس يخفق ، وهناك منديل ممزق ، في هذا المكان حذاء مطروح ،  
وفي ذلك الموضع ابريق مطروح . وكان للاستاذ خادم عجوز تسمى « ليسخن »  
تقوم له بجميع المرافق فكان له منها طاهية وكناسة ، وغسالة وعصارة ،  
ومدبرة وقهرماته ، وكانت عجولة على حب النظام والنظافة ولكن الاستاذ  
كان لا يبيع لها النخول في غرفته الخصیصة وهي حرمة المحرم وقسمه  
للقنس ، يد أن ليسخن كانت تقتحم عليه هذا الحصن الحصين مرة في كل  
شهر ، فتزيل بالكنسة والمنفضة جانباً من كشیان النفايات ، وفي أثناء ذلك  
يكون هو قد أسرع الى اتقاذ قراطيسه ومؤلفاته ، وهرع الى التقاط أوراقه  
ومصنفاته . وكان الاستاذ یسمى هذه المهجمات « نوبات الزلازل » وكان  
يخشها أكثر من السيل الجارف والوباء الدريع ، غیر أنه كان يستسلم لها  
استسلامه للقدر المحتوم . ووده لو أتیح له أن یقیم على الدهر سابحاً في  
خوافره وأحلامه غرقاً في تأملاته وإبحائه ، لا تمكر حوض صفاته مكنسة  
ولا تقطع تيار آرائه منفضة الى أن یخرجه من العرفة وكأم الكناسة ولكن  
لیسخن كانت یدیه البینی ومعیته الکبری وقوام حیاته وعماذ یتیه . فما  
كان یستطیع أن یرفض مطالبها رفضاً باتاً ونحن لا نزال نذكر تلك العجوز  
الشطاه ، تحسبها لقرط الصمت خرساء ، وربما حسبها كذلك صمها ،  
فاتها ما كانت لتخدم أحداً من الخلق ولا لتفضل بأحد من الناس غیر سیدها ،  
وكانت تتفام وإياه في أكثر الأحيان بالوحی والایمان ، ان لم تكن تهتمنى  
الى مطالبه بنوع من الالهام الخفی . لك الله أيتها العجوز ما كان أشدك مضاه

في العمل ودؤوباً ! لقد كانت تقضى اليوم في الكنس والتنظيف والترتيب والتنسيق من غير أن تكدر السكون بأخفت جرس ، وكنت ترى كل شيء مع ذلك على أتم نظام ، وفي أحسن ترتيب واحكم : تأتيك القهوة في ميطاها ساخنة سوداء ، وتقف أمامك المرأة في صمتها وسكونها تنظر اليك من تحت قبعها بوجه تبرق أساريره وضاعة ونظافة ، وبين ثم عن فطنة وذكاء بل عن كرم ومروءة .

وكان بيت الفيلسوف كما أسلفنا حتى مصوناً لا ينشأ الا القليل من الغرباء ، وما كنا نجد عنده أيام ترددنا عليه غير « المهر هفرا » وقد سبق تعريف القراء به . وكنا نرى فيه يومئذ أحد أولئك الأفراد الوديعي الأخلاق الطولي الأعناق المزروعي الأفواه النظفي الثياب التي يتنازرون بين أفراد المجتمع بأنهم لا يتركون استعمال المظلة لا في الصيف ولا في الشتاء . ولولا عملنا بأي مقدار طفيف من الحكمة تسير في هذه الدنيا الأمور ، وبأي جزء زهيد من الفطنة تحكم الجماهير ، وبأن الأمر في ألمانيا لا يختلف عنه في سائر أنحاء الدنيا وذلك أن تسعة وتسعين في كل مائة من أولى الحل والعقد ليسوا الا اتباعاً للفرد الباقي وغاشية ، وأذناباً له وحاشية - تقول لولا عملنا بذلك لهلانا أن يكون هذا « المهر هفرا » مستشاراً في مجلس المدينة . عجباً والله أية نصيحة يستطيع أن يسديها ذلك الانسان الذي لا تأملت قائمته للسرخية العوجاء وسحته المجفء وتذبذب وجهه واضطراب رأسه لم تتبين غير الارتباك والاختلاط ، والجبن والاحجام والاختباط ؟ غير أن الرجل كان لا يخلو من بنور الفضل وقد أحسن الاستاذ ما شاء في وصفه حيث قال « إن له قلباً ومقدرة أو كان له شيء من ذلك في وقت من

الأوقات على الأقل ، ولكنه لم يوفق الى اظهار ملكاته أو لم يساعده الحظ على استثمارها ، فنصفه قد أصبح الآن متصدعا ونصفه لا يزال متجمدا ، ولتصور القارىء ما سوف يحول في خاطر « المهرات » عند اطلاعه على هذه الأقوال ولكن ذلك لا يمننا ما دمنا ممتصين بمروة الصدق في اثبات التاريخ ، متحصنين بمقل الأمانة في تدوين الاخبار .

يبد أن الذى يهتما في هذا المقام هو تعلق المهرات بالاستاذ فقد كان شغفه به واحترامه إياه لا يقلان عن شعور « بوزويل <sup>(١)</sup> » نحو الدكتور « جونسون <sup>(٢)</sup> » وربما كان الجزاء في الحالتين على حد سواء . قلن الاستاذ كان لا يظهر لصاحبه الا قليلا من الاعتبار وكان حبه إياه من قبيل الشكر والاعتقاد . أما « المهرات » وكان أكبر من صاحبه سنا وأعز جاهها وأكثر نشبا فقد كان يحنو على محبوبه الفيلسوف بماطفة كلها اعظام واجلال ورعاية أبوية وحنان ، فكان الفيلسوف لا يكاد يفترقه حتى ترى المهرات قد شحاطه فكانه قد فتح بابا على مصراعيه ثم يلبث مرهقا أذنيه ، محلقا يمينيه ، كأن له في كل عضو وجراحة أذنا واعية وعينا ثاقبة ، حرصا على كل كلمة قال وحفظا لكل حرف يلفظ .

في هذه البيئة كان يعيش الاستاذ في عهد اتصالنا به ، ولعله لا يزال كذلك حتى الساعة . ففي ذلك البرج المشرف والمرصد النيف وتحت أعين النجوم الساحرة وفي سكون العزلة السائلة قد غلغس هذا الباحث القهار كل

---

(١) ، (٢) الدكتور جونسون من كبار أدباء الانجليز في القرن الثامن عشر شغف به الستر بوزيل هذا قطع لصحبه وتبعه عنه كل آبهة وشاردة من أهاديه وكرامته ثم ضمها كلها موضعه في ترجمة حياة ذلك الأديب الكبير بعد في باب من خير ما أخرج لتاس

ما عليم من المارك مع شيطان التبلوة والجهالة ، وأكبر الظن أنه في ذلك  
الموضع بعينه قد وضع كتابه المبعث عن فلسفة اللابس .  
ولوشئنا لأرسلنا القلم في وصف الكثير من طائفة وأحواله وأشيعنا  
القول في ذكر العصر الذي كان يعيش فيه والثوب الذي كان يرتديه ، إلى  
غير ذلك من التفاصيل ، ولكننا نمسك عن كل هذا . لأنها أمور غير  
جديرة بالذكر ولا حقيقة بالنشر ، فقد أصبح من المقرر في الازدهار أن  
أصحاب المظلمة الصادقة هم أولو الرأي والمرفان لا أولو الصولة والسلطان  
وبذلك أخذ اهتمام الناس ينصرف بالتدريج عن الامراء إلى الحكماء .  
ولكن هبنا تقدمنا في بيان تلك التفاصيل أظن القارئ أن ذلك يذنيه  
إلى معرفة الأستاذ ويكشف له عن أسرارها قبل أن تصل إلينا المستندات  
الموعودة ؟ إن حياة الفيلسوف لا تزال سرّاً محجوباً ، كل ما نعرف عنها  
لا يتجاوز الظن البعيد والتخمين النامض . ولكن أليست روحه مودعة  
في هذا الكتاب القيم ؟ إذن فلنصرف هنا مؤقتاً إلى اجتلاء روحه ونفسيته ،  
ونعرف آرائه وعقليته .

## الفصل الرابع

### مميزات ومفاهيم

من التروير واللق أن ندعى لكتاب فلسفة اللابس الخلود من الشوائب  
والتزهد عن الميوس ، وأنه ليس كسائر غمرات المبقرة خليطاً من الوحي  
والكشف والالهام مع ما ينافضها من الغباوة والغشاوة والعمى . وكيف



يسوغ هذا الادعاء ونحن ترى الشمس وهي أجل ثمرات العبقرية وأرفع مظاهر الخليفة لا تخلو من كلف تشوب رونق لآلاتها ، وسفع تشين بهجة بهاها ؟

وحسبنا أطناباً في مدح الكتاب القول بأنه قد حركنا الى العمل وأمدنا بروح من النشاط ، وهذا خير ثمرة لأفضل مؤلف ، بل انه لم يكتف بذلك حتى أحدث تغييراً في أسلوب تفكيرنا وحتى فتح لنا من العلم باباً جديداً واقتضى من البحث منجماً بكرة جديراً بأن ينقب فيه الباحثون الى أعمق لا ينال قرارها ، وبأن يستثيروا من دقائمه طبقات لا تسبر أغوارها . والواقع أن الكتاب في ذاته بما حوى من عجيب المتناقضات أشبه شيء بمنجم جديد تجد فيه بجانب الكريم من الركائز والفراغات ، كثيراً من الأخبار والنفائات ، فينباه روع القارئ بما أودع من آثار بارع القدرة ونادر المواهب وطول الصبر على الفحص والاستقراء ونقوذ البصيرة وبعد النظر وحسن السبك واشراق الديباجة ، اذاه يضجره بما تضمن من مواضع الركاكة والاسهاب ومظاهر التعقيد والجفاء .

والظاهر أن الفيلسوف قليل الاختلاط بالطبقات الراقية أو هو قد نسي جل ما رآه وتعلمه بينها ، فانه ينظر الى العالم بنوع من السذاجة المدهشة ويسمى كثيراً من الأشياء بأسمائها الحقيقية الواردة عنها في القواميس اللغوية ، فالنجم مثلاً ليس في اعتباره رئيساً ربانياً بل صانعاً عادياً ، وأبهاء الاستقبال ليست في عرفة مهما راع أثمانها وغم رياستها معابد مقدسة ، بل هي في نظره وإن حوت كل مونق يديع من البسط والتمارق والمرئى والأرائك لا تمدو كونها قطعاً من الفضاء العديم النهاية يجتمع فيها طائفة من الأشباح المخوفة من

روح الله فتقضى بين جوانبها ساعة من الزمن ، وما النجمة التي تتلأأ على صدر الأمير بأجل في نظره ولا أحقر من الزرار الحديدي الذي يراه في شملة الصلاح « وأى فرق بينهما وكلاهما في باب أداة وكلاهما يؤديان عملاً واحداً هو شبك متفرق الأجزاء ذلك فضلاً عن أن كليهما قد أخرج من باطن الأرض وأحماه الحداد في كوره وطرقه على سندانه » وكذلك ترى الاستاذ ينظر في وجوه الناس قلابة بنظرة واحدة غريبة وبحرية علمية مدحشة ، كأنه لا يعرف من طادات الخلق وأوضاعهم شيئاً وكأنه قد سقط بين الناس من بعض الاجرام العلوية . وإذا تأملت حق التأمل أقيت هذه الخصيصة اللازمة لتيار أفكاره المتخلطة في مطالوي سريره وطباعه منشأ كل ما يؤخذ عليه من وجوه الافراط والتفريط وضروب المغالاة والتقصير ومظاهر الاغراب والشذوذ اللهم ان لم يكن لهذه الصفات مصدر آخر - وهو أيضاً قريب الاحتمال - نفى نزواته الفلسفية العالية وولوعه باعتبار المادة وكل الأشياء المادية : معاني روحانية .

قال عشاق العلم وأهل التفكير من هذه الأمة تقدم هذا الكتاب ونحن على ثقة بما سوف يحدثه من جيل الوقع وصالح التأثير . ومن ذا الذي يدري فقد يكون له أيضاً بعض النفوذ بين أهل الجون وعشاق الملاحى ، فما يؤثر عن الاستاذ قوله ان في كل « ياقة » هما صلبت وغلظت من معالجتها بالنشاء قصبة هوائية وان تحت كل صدر هما أثقل بصنوف الوثى قلباً خفاً . فليس من المستبعد أن تخلص الى بعض هذه الأفتلة المحيية بلاغة هاتيك للمعاني السامية ، والحق أن هذا الفيلسوف قد أودع قوة خشناه لم تفلحها رياضة وقدرة مستكنة لا تشربها فيها من يبلش وقوة . وهى

صفات قل أن تجدها - الا في أرفع مراتب الأدب - مثلاً . فكلم له في أسرار الطبيعة ومريرة الانسان من لمحات تنوص على الحقائق غوصاً ، وفطرات تقص الشوارد قصاً ، وكلم له من ألفاظ ماضيات ، تحز مفاصل المضلات ، ثم تراه اذا رى غرضاً لم يكفه أن يمسه مساً ، بل ينحى عليه بقوصاحقة حتى ينبس السهم في اللباب ، ويهتك عن الصميم كل غشاء وحجاب .

يبد أنا لا ننكر مع ذلك أن صاحبنا الفيلسوف أبعد الكتاب عن اعتدال الوتيرة واستواء النفس ، فكثيراً ما نراه بعد الفراغ من إحدى هذه المقالات المجيدة ينهب متمسكاً متخططاً في صحائف عدة طوال ، يهز بكل قافه من السفاسف وسخيف من الأقوال .

كذلك أسلوب الكتاب قد جمع الى صادق البراعة ورائع المقدرة ما يشوه عمارته من خشونة وجفاء وتنافر وشذوذ . فيينا يكون طرفك رائداً في أثرى بستان من ألفاظ متخيرة ، وترا كيب محبرة ، وعبارات مشرقة الديباجة تقي السبك ، وإشارات كوحى الملاحظ وخطف البرق ، وتشبيهات يقطر منها ماء الفصاحة ، ويتوقد فيها لهيب الشعر ، وتخلصات تسترق الخاطر وتسحر اللب - تقول ينما تكون رائداً في أحسن ماشئت من روائق وروائع يذجها خيال وثاب وحشي ، مقترن بذهن وقاد جلي ، اذ يهجم بك على كثير من الفقرات المجيدة المملة ، والاستطرادات المطولة المملة . والواقع أن الاستاذ ليس من ذوى الأقلام المنقحة واليراعات المبهذة . على أن أسلوبه لا يخلو حتى في أسوأ حالاته من سحر عجيب ، وانك لتسمع منه نغمة غريبة تتخلل جميع مناطقه ، كأنها مفتاح نغم ومنظم صوته . فتارة ترتفع نبراتها الى ما يشبه تهليل الملائكة أو حويل

الآبالسة ، وآنا تنخفض رناتها الى المقام المتاد ، وهناك لا يوافق أذنيك  
الاطنين ممل لا تزال منه حتى اليوم في حيرة لا ندرى هل هو رنة المزاح  
الصحيح التي يمد بحق من أرفع مزايا البقرة ، أم هو صدى الجنون المحض .  
كذلك نجد أنفسنا في مثل هذه الحيرة ونكابد مثل هذا العناء أزاء  
عواطف الاستاذ وميوله . فآنا تراه يفيض برفيق أنوار الحنان والمحبة ،  
ويتدفق برفيق أنات المطف والرحمة ، حتى يخيل اليك أنه لو استطاع لضم  
العالم بحذافيره الى صدره الحنون واحتضنه بين جوانحه المشفقة وأن تحت  
هذا الظاهر الجافى الفليظ ملاكاً طاهراً كريماً . وآنا تراه قد أبدى صفحة  
المكر والدهاء ، ولبس قناع المبوس والجفاء ، وراح ينظر بعين الاستخفاف  
بل الاحتقار الى كل ما يسمى الناس اليه ويتقاتلون عليه ، وقد ترامت على  
محياه تجسيدة خفية هي من دلائل المزاح المر والتهكم القارص - ان لم تكن  
من دلائل البلاة والغباء - حتى يكاد الناظر اليه يرعش ويرتجف كأنما هو  
ماثل بين يدي شيطان مجسد لا يرى في العالم الأرضى والعالم الساموى الا مرقصاً  
هائلاً رحيماً تختلط فيه الملوك بالصعاليك ، والملائكة بالشياطين ، وكواكب  
السماء بكناسى الأزقة ، فيدورون جميعاً في رقصة حمقاء هوجاء لا تلد غير  
الأطفال وصغار الأحلام . ولقد ذكرنا آنفاً أن للاستاذ نظرة ربما كانت  
أوفر ما عهد الناس من النظرات ، بيد أن وقارها ليس من ذلك النوع  
الحديدي اليابس الذى يشاهد فى الحاظ أرباب السياسة وعشاق المناصب ،  
بل هو أشبه بوقار بعض البحيرات الجليية التى تراها مكنونة بين أسوارها  
الشائعة ومواقفها الباذخة ، والتى لعلها كانت فوهة بركان خامد الأحشاء ،  
فأنت توجس خيفة من النظر فى أعماقها السوداء . ومن يدرينا فقد تكون

الأضواء الثلاثة في تينك الميتين شواظ النيران الجهنمية ، كما قد تكون معكوسين أشعة الكواكب السماوية !

حقاً أن طبيعة الأستاذ لسر ملفز وطمس معجز تحصر دون تعرفه الافهام ، وتكل دونه استجلاته الأوهام . بيد أنا نذكر بعز يد الارتفاع أننا رأيناه يضحك مرة : مرة فنة لها الأولى والأخيرة في عمره ، غير أنها كانت ضحكة ولا كسائر الضحكات : ضحكة صاخبة مصلصلة مقعقة جذيرة بإيقاظ أهل الكهف من عميق سباتهم ! وكان أول ما شاهدت من أرها وميض خفي لاح في عيا الأستاذ وعينه فما زال يتشر ويسقيض حتى صار نوراً ساطعاً وهاجاً ، وبرقاً ساحراً مبهاجاً فكان آلهة في ريق الشباب وروث الصبا راح يطل عليك من تلك الملامح المعنعة ، والتقاطيع المتجمة . ثم فحجر ببقية عالية متدافعة متواصلة ، كأنما انطلقت بالصهيل حلبة حافلة ، واحمدت الدموع على خديه صبيها وتلمقت قدماء في الهواء صعوداً : ضحكة لا من التي تقتصر على أعضاء الوجه وعضلة الحجاب بل من التي تتناول الانسان بجملة ، وتنظم كيانه برمته ، فتنسرى في جميع جوارحه من ذؤابة رأسه الى أخمص قدمه . فلما رأيت ذلك - وكنت قد شاركت في الضحك ولكن بقدر واعتدال - شرعت أوجس خيفة على الأستاذ بيد أنه ما لبث أن استجمع نفسه وثاب الى سكونه المعبود فكنت لا تبين شيئاً في صفحة عيانه المبهم الا مسحة خفيفة من الخجل . فن كان من القراء له أدنى دراية بعلم النفس كان خليقاً باستنباط ما تنطوي عليه تلك الضحكة من العبر والحقائق وجديراً بأن يعلم أن المرء الذي يكون قد ضحك ولو مرة واحدة من صميم قلبه وبجميع جوارحه قين بأن لا يبت الرجا من اصلاحه وقطع الأمل

م . - • ثلثة

من تقويعه . لله در الضحك ما أوضح منازيه وما أئين مآنيه ! ان هو الا  
الدليل القوي يكشف عن الانسان أسراره ، ويهتك أستاره ! ان بعض الناس  
ليقتنمون وجوههم بابتسامة جديدة غيبة سخيفة ، وانك لتجد في ابتسامة  
غيرهم لمآناً بارداً كلمان الثلج ، وقليل هم الذين يضحكون الضحك الصحيح  
الصادق - الضحك الذي ينبعث من قرارة النفس ويرن في طيات الجوانح .  
أما أكثر الخلق فأنما يبعثون من الحلاقيم الى جوبات الأشفاق ضروباً من  
المهاقنة أو الكركرة أو على الأكثر نوعاً من التهمة المبحوحة كأنهم  
يضحكون خلال طبقات من الصوف المنفوش ، وكل هؤلاء لا خير فيهم  
ولا فائدة منهم ، فان المرء الذي لا يستطيع الضحك ليس صالحاً للناس  
والخانات والمفاصد فحسب ، بل حياته باجمها هي في ذاتها وأصلها خيانة  
ودسيسة .

وللاستاذ من حيث كونه مؤلفاً عيب لا يكاد ينتفرونني علم اعتداده  
بالنظام والترتيب ، فالكتاب يقع بطبيعة الحال في قسمين : قسم وصفي تاريخي  
وقسم نظري فلسفي . بيد أنك لا تكاد تجد بينهما حداً فاصلاً بل لا يزال  
كلاهما يتعدى على صاحبه ويتحيفه ، ويتطرق اليه ويتخلله ، حتى يظل القارئ  
بين هذا الخليط في حيرة عمياء ، كأنه في ولية هوجاء ، اختلطت بها  
الأطعمة من كل صنف ونوع ، وكل شكل ولون ، فالجوامد والسوائل ،  
والبوارد والسواخن ، واللحوم والأسمك ، والتوابل والمریات ، والحلوى  
والمخللات ، والأنبنة والأشربة ، كل هذا قد ألقى جملة واحدة في دسيسة  
ضخمة ثم دعى اليها الجمهور الجائع - فتحويل هذه القوضى الى شيء من  
النظام ذلك بعض ما نحاوله .

## الفصل الخامس

### الدنيا في اللباس

يقول الاستاذ في فاتحة كتابه : كما وضع مونتسكيه كتاباً عن روح الشرائع أصنع أنا كتاباً عن روح الملابس . فإن الانسان لا يجري مع الصدفة العمياء لا في سن الشرائع ولا في خياطة الملابس ، بل لا تزال اليد العاملة مهتدية بنور العقل تنقاد بزمامه وتدفع لأحكامه . وانك لتجد فكرة فنية كامنة في كل ما يتكرر من الملابس على اختلافها وفي كل ما يندل من المساعي في سبيلها . وما جسم المرء وملابسه الا البقعة التي عليها ، والمواد التي بها ، يشاد ذلك الهيكل الرائع الفخم : شخص الانسان ! فسواء رأيتَه يرفل في البرود المسبلة الأذيال ويختال في رفاق النعال أم رأيتَه يسمو بالقلنسوة العالية من خلال الأوشحة والمناطق والأحزمة والقراطين أم أبصرته متفخفاً في الأطواق المنشأة والحشايا المشمعة أم ألقيته قد شد نفسه وقسمها أجزاء متميزة وخرج الى اللأ بمجموعة من أربعة أعضاء : كل ذلك يتوقف على نوع هذه الفكرة الفنية وهل هي اغريقية أو غوطية قديمة أو غوطية متأخرة أو حديثة مولدة . ثم تأمل أي معان جليلة تنطوى عليها ألوان الملابس ، فمن الاسود القاتم الى الاحمر الوهاج أي خصائص روحانية وصفات نفسانية يكشفها لك اختيار الألوان ! فإذا كان التفصيل ينييك عن طبيعة الفهن والقرمحة فإن اللون ليخبرك عن طبيعة القلب والمزاج . ولا بدع فهذا كله يجري بين الشعوب كما بين الأفراد يفعل الاسباب والمسببات : ذلك الفعل الذي لا ينقطع عمله ولا ينكر أثره وإن كان في غاية التقيد والالتباس ، فلا

من حركة من حركات القصر الا وهي منظمة مبدرة بمؤثرات دائبة ماملة  
ليست بالخفية ولا بللهمة لقوى البصائر الجلية والافهام النافذة

ثم يأخذ الاستاذ في ذكر منشأ الملابس وتاريخها وما ورد عنها في  
أساطير الأولين وخرافات الفارين مما لا داعي الى نشره ، بيد أنه قد تخلل  
هذه الابحاث نظرات فلسفية ثاقبة ، وصور للحياة مؤثرة ، تثبت منها ما يأتي :  
يزعم الفيلسوف أن أول ما بعث الانسان على ارتداء الملابس لم يكن طلب  
الدفع أو داعي الحياء وإنما حب الزينة ، وذلك حيث يقول « حقاً ما كان  
أنس عيش المتوحش الفطري وأبأسه ! تدبر محاجره شهابي لظي يتأججان  
تحت غدايره الوخفة المتشعبة ، ويتخذ من شعوره المسئلة على متنه ولحيته  
المسبلة الى بطنه ما يشبه العباءة الملبدة ، أما سائر بدنه فستور بنطاء كثيف  
من زغبه الطبيعي . ثم تراه إما متسكماً في شحاب الغابات ، يصطلي جرة  
النهار ويقنات من غار الأشجار ، وإما مقعياً في بعض المستنقعات ، يتربص  
فريسته البهيمية أو الآدمية ، أعزل من كل سلاح مجرداً من كل عتاد اللهم الا  
كرة ثقيلة من الصوان قد ربطها بحبل من الجلد المصفور ، مخافة أن يفقدها  
وهي سلاحه الوحيد في النطاق والمهجوم ، فهو بفلك الجبل يستردها كما يقذفها  
بمهارة صائبة وإصابة قاتلة . بيد أنه متى فرغ من اطفاء حرقة الجوع وارواء  
غلة الانتقام كان همه الأكبر وشاغله لا التماس الراحة بل طلب الزينة ،  
ولا غرو فانه متى احتاج الى الدفع وجعلته ما شاء إما في جهاد الطرد والبناء ،  
أو بين الأوراق الجافة في شجرة الجوزاء ، أو في حظيرة المتخذة من اللحاء ،  
أو في منافرة الطبيعة اللساء ، ولكن لأجل الزينة والزخرف لا سبيل الا  
الملبس . بل لقد وجدنا بين الشعوب العريقة في الممجية ان الوشم والعلاء



أسبق هذا حتى من اللابس . فأول حلجة روحانية يشمر بها الانسان للتوحش هي الزينة كما هو الواقع الى اليوم بين الطبقات للتوحشة في البلاد المتعدنية . « بلى أيها القاريء ان الشاعر المغرّد للملهم ، والملك الأصيل للعظم ، بل ممشوقتك الحسنة المكنونة في صدف الخلدور ، المصورة من بهاء ونور ، التي تكلم من فرط الخفة والرشاقة والصفاء ، تنساب كلللك على أجنحة الهواء ، والتي تستقيها وتبدها كأنها حضرة آلهية ، كما هي في الواقع اذا اعتبرت الأمر من الوجهة الرمزية - أقول كل هؤلاء قد انحدروا - كما انحدرت أنت أيها القاريء - من صلب ذيك المتوحش الأعبر المتزمل بشعوره الشعث ، المتسلح بالصفات الصماء . وكذلك تخرج الخلاوة والرقعة من البطش والقوة ، أي ضروب عجيبية من التخيير وأي مظاهر مدعشة من الانقلاب والتبديل تحدث - لا فضل الزمان - ولكن على مره ! فما النوع البشري وحده بل أيضاً كل ما يفعله وكل ما يشاهده هو في نحو مستمر وحياته متجددة لا تزال ترمي الى الكمال الأسمى ، وتسمى نحو للثل الأعلى . الق بمنلك أو بقولك في هذا العالم الدائم الحياة والحركة فما هو الا بذرة حية لا تموت ولا تقف ، ان لبثت اليوم خلة مدفوعة فلسوف تشاهد بعد آلاف السنين خيلة غناء من رائع السنديلان ، أو مع الأسف غابة غيباء من حيث الشيكيران .

« هل كان يدري أول من اختزل عمل النساخين باختراع فن الطباعة أنه يفض جيوشا ، ويثل عروشا ، ويقضي على نظام الحكومات المطلقة ، ويحل مجلس الأعيان الموقرة ، وينشيء ملكاً جديداً بخلافه من الديمقراطية والحرية ؟ لقد كان مفعول أول حفنة من مسحوق التطرون والكبريت

والفحم أنها أطاحت مدق الراهب حتى اخترق سقف الغرفة التي كان بها ، فإذا ترى سيكون مفعول آخر حفة ؟ لاشك أنها ستفضي الى احراز النصر المبين للقوة التقنية على القوة للمادية ، وللشجاعة الروحانية على الشجاعة الحيوانية . ثم تأمل كيف كان اختراع النقود في أول أمره شيئاً هيناً بسيطاً ، اذ خطر يبال الراعي القديم - وقد مل التطواف في مناكب الأرض بثوره البطيء - ابتلاء مبادله بقمح أو زيت - أن يأخذ قطعة من الجلد فيحفر فيها أو يطبع عليها صورة الثور ( يكس ) ثم يضعها في جيبه ويدعوها ( بكينونيا ) أو قدماً - ومن ثم صارت المبادلة مباينة وتحولت النقود الجلدية الى نقود ذهبية فورية فرأينا من آثارها وفعالها ما فاق المعجزات . إصجاراً والتطوارق إدهاشاً : فهناك المعارف المالية والديون الأهلية والاحتساب القناطر المقطرة والملايين المحسنة ، ومن آثارها أن صار كل امرئ يملك ولو درهماً واحداً أميراً مطاعاً وسلطاناً مسلطاً على جميع الناس بمقتدار هذا الدرهم : يئس الطلبة فيطمعونه والفلاسفة فيعلمونه والملوك فيحرسونه - بمقدار الدرهم . وكذلك الملابس التي نشأت بأيدي، ندى يده عن هافة الشئف بالزينة أي البالغ لم تبليها وأى الثبايات لم تتركها ! لسرطان ما استفاد الانسان منها مزيد الوفاة ولذيذ اللفء والحراة ، ولكن ما هذه بجانب غيرها ؟ حلالا لباس هي المصدر والمنشأ لفضيلة الحياء ، ذلك الهيكل الظليل الضجج الذي يضم بين جوانحه كل مقدس في الانسان . والملابس هي التي جعلت لنا شخصيات مستقلة ومميزات تتفاضل بها وسياسة تجري عليها وضغوة القول أن الملابس هي التي تجعل الفرد منا انساناً وهي التي تنذر اليوم بمجمله مشجعاً تلقى به السلب وتعرض عليه الأردية .

ثم يستمر الاستاذ البليغ فيقول « على أن جملة القول ان الانسان حيوان يستعمل الآلات ، فهو ضئيف في نفسه ضئيل في جرمه يقف قلقاً مضطرباً على قاعدة لا تتجاوز نصف قدم مربع مها كان عرض قدميه . ويضطر أن يفتح بين رجليه لثلاث نفخه الريح فيطيح : ما أوهك أيها الانسان لأنك أضف ذئ فثنتين . يضحك حمل الثلاثة القناطير ويلايك ثور القلب فيقنقك صمداً في الهواء كأنك خرقه بالية . غير أنك بالرغم من ذلك تستطيع استعمال الآلات واختراع الأدوات وفضل هذه تنوب من يديك الجبال والشلال والجلامد الصماء ، حتى تصير تراباً كاللهباء ، بفضل هذه يلين لك الحديد القاسي فتصور منه ما شئت من صور متماثلة ومتباينة ، كأنه عجيبة لينة ، بفضل هذه صارت لك البحار سبلا ممتدة وأصبحت لك الريح والنار جياداً حذلة لا ينالها السأم ولا يتورها الوئى ! وكذلك مها بحثت قلبي نجد الانسان بنون آلات اذ هو بنير الآلات لاشئ . وهو بها كل شئ » .

« الانسان حيوان يستعمل الآلات وما للملابس في الواقع الا أحد الشواهد على هذه الحقيقة . ولئن تأملت البون الشلسع بين أول معزقة خشبية صنعها الانسان وبين هذه القاطرات البخارية والمجالس البرلمانية التي تبين مبلغ التقدم التي أدركه . يقتلع الانسان من جوف الأرض بضعة أحجار سوداء فيقول لها ( اقلبنى ومتاهى بسرعة خمسة وثلاثين ميلاً في الساعة ) فلا يكون منها الا أن تصمغ بأمره . ثم يجمع جزافاً ستائة وثمانية وخمسين فرداً مختلفي المذاهب والمشارب فيقول لهم ( مروا هذه الأمانة أن تبذل في سبيلنا جهادها وتسفك من أجلنا دمها وتسهل آلام الجوع والحزن وهواقب الجريرة والاثم ) فسرطان ما يلون طلبه ،

## الفصل السادس

### في المبالذ والموسى التاريخية

من أغرب فصول الكتاب وأعجبها الفصل الذى عقده الاستاذ عن المبالذ وأودعه من عبارات الاستخفاف والازدراء ، ما يقارب صريح المهجاء ، فسر ك الله ماذا يعنى المؤلف بأمثال الأنفال الآتية ؟ :  
« المبالذ دروع واقية يتخذها الانسان للمحافظة على النخافة أو السلامة أوالحياء ، وأحيانا للمحافظة على القدر والسفالة . وقد تفنن الناس فى هيات هذا النوع من الملابس كل التفنن ، وتصرفوا فى وجوه استعماله كل التصرف ، فمن قطعة الديباج الرقيقة الحواشى المشرشرة الأطراف تضعها الحسنة على صدرها . الرقيق فتحسبها من فرط الحسن واللطافة طيف البذلة الأنيق - الى ذلك الأديم الغليظ يشبه البناء بسيور من الجلد حول خصره حتى اذا جاء المساء أجمت فيه أداة عمله - الى تلك البذلة المالية الصليل المتخفة من صفائح الحديد التى يرتديها القيين وهو يطرق المطائل على السندان أو يذيبه السبائك فى النيران - أليس فى كل ذلك شاهد صادق على التفنن فى هيات المبالذ والابتداع فى وجوه استعمالها ؟ فهدر المبالذ كم من أمور تستر عن الميون ! وكم من أمور تصون من المحذور ! بل تأمل حق التأمل وحدثنى عن حقيقة هذه الجيوش والشرط والأساطيل ينفق عليها ما لا يقدر من الملايين ؟ ألبستهم أيضا كبذلة ضخمة يرتديها المجتمع الانسانى ( فلا يزال فيها مرهما مضايقا ) وهو يعمل فى ذلك المصنع الهائل الذى نسميه الدنيا فىقى بهه نفسه بما يرفض هنالك من الجبر ، وتطارد حوله من القدر ؟ »

أوهل أتيج لأحد القراء أن يطالع أمثال المبارات الآتية :  
« انى أعد تلك المبادئ التى يتخذها طهلة باريس من الورق المطبوع  
منفذاً جديداً - وان يكن محدوداً - ينفع منه سيل المطبوعات الزاخر .  
وهي من هذا الوجه مظهر منشط لهضة الآداب ، فجدير بها أن تنال كل  
ثناء مستطاب . وقد سررت أياً سرور عندما أثبتت أن متجراً شهيراً في  
لندن قد عزم على ادخال تلك الماعة فى بلاد الانجليز » . لا ندرى من أين  
وصل هذا الخبر الى الاستاذ مع أننا معشر الانجليز لم نسمع به قط وحقيق  
بنا أن نحمد الله على أن آدابنا لم تفتقر على وفرتها الى منفذ من هذا القليل -  
ثم يستمر الاستاذ فيقول « ولكن أليس من المعجب الطريف أن نرى  
خسة ملايين قطاراً من الخرق للثقط من المزابل فى كل عام وبعد أن تمزق  
وتكسب وتذاب ، وتنبأ ورقاً وتطبع وتباع ، تمود الى المزلة مرة أخرى ،  
فتكون فى أثناء هذا الطواف قد أطمست ألوفاً من البطون الجائمة ، فكان  
المزلة بما حوت من الخرق البالية لأن هى الا بطارية كهربائية عظيمة  
تلبث منها وتمود اليها تيارات المعاملات والمجهودات بمدان تجول فى دوائر  
صغيرة وكيرة خلال ذلك السديم المضطرب المجاج ، المصطفق الرجراج ،  
الذى يغفل بفضل هذه التيارات جائش الحركة مفعماً بالحياة ؟ »

\*\*\*

بعد هذا الفصل العجيب عن المبادئ يورد الاستاذ فصلاً عن الملابس  
التاريخية حافلاً بأوصاف الملابس فى متابع المصور ، وما طرأ عليها من التغير  
على مر العصور ، بيد أننا نكتفى منه بهذه الملاحظة الجديرة بالتأمل :

« لو تبسر لأبناء هذا العصر من الألمان أن يشاهدوا الملابس التي كان يرتديها أسلافهم في غابر الأزمان لتبسوا استغراباً لها واستخفافاً بها ، كما أنه لو أتيج لأولئك الألمان الغابرين أن يبعثوا من قبورهم ويعاينوا ما ترتديه الآن لصنعوا بأيديهم علامة الصليب وتموذكوا بالعذراء . ولكن من حسن الحظ أنه لا يتاح ولن يتاح في هذه الحياة الدنيا لأحد أولئك الألمان الغابرين أولاً أحد الناس على الإطلاق أن يبعث من رقدته وينشر من حفرة . وكذلك ترى الحاضر لا يرتبك بالماضي ارتباكاً لا داعي له ، بل هو يخرج منه وينمو كما تخرج الشجرة من بطن الثرى فلا تتواشع أعرافها بأغصانها ، بل تذهب هذه صاعدة في السماء وتستقر تلك تحت الأرض في سكون وأمان - يد أنه من بواعث الحزن ( وإن كان الأمر لا يخلو من الفائدة ) أن أحب الناس إلى قلوبنا وأعظمهم شأنًا في عيوننا إذا عاذا إلى الحياة بعد مدة وجيزة من وفاته ألقي عمله ، شغولاً ولم يجد لنفسه في الدنيا مكاناً . فهذا نابليون ويرون على ما كان لهما في نفوس من المسكاة السانية قد أصبحا في بضع سبع سنين من الطراز القديم وصارا عن أهل أوروبا غريبين أجبيين ، وبهذا قضت شريعة التقدم والارتقاء فلن تجد غطاً يبق على الأزمان لا في الملابس ولا في سائر الأشياء ، ظاهرة على الإطلاق ،

## الفصل السابع

الدنيا مجردة من الملابس

لئن كان الأستاذ قد أدهش كثيراً من القراء بما أورد في القسم التاريخي الوصفى فأجبه به أن يكون كلامه في القسم النظري الفلسفي أدعى إلى الدهشة

وأدخل في باب العجب . والواقع أن الناشر قد أخذ منذ الآن يشعر بثقل العبء وضغطه ، فن هنا تبدأ فلسفة الملابس العالية ، وانها لمفازة سحيقة الارجاء ، محتجزة عن الادلاء ، لا يدري المخاطر فيها أى المسالك يسلك ، وأى الوجهات يأخذ ، بل لا يعلم أين تثبت مواضع قدميه فتحتمله ، وأين تسيخ به فتبتلمه . لقد أخذ الأستاذ على نفسه أن يشرح ما للملابس من الآثار الأدبية والسياسية والدينية ، وأن يوضح غوامض تلك النظرية العظيمة : وهى أن مصالح الانسان فى هذه الحياة الدنيا مترابطة الأجزاء متماسكة العرى بفضل شىء واحد هو الملابس . وهو يمر عن هذه الحقيقة بقوله طوراً « بنى المجتمع على الملابس » وتارة « ان المجتمع ليسبح فى فضاء اللانهاية على الملابس كأنه ساج على بساط سليمان ولولا هذا البساط لسقط فى أعماق الهاوية وغاله الفناء »

ولن نحاول هنا بيان حلقات التفكير التى اهتدى بها الأستاذ الى كشف هذه النظرية العظيمة والى استنباط ما يترتب عليها من النتائج العملية الكثيرة ، فان هذه المحاولة تمد منا ضرباً من الجنون ، ولا غرو فالاستاذ لا يتبع طريقة المنطق المدرسى حيث تجرد الحقائق وافقه جميعها فى صف مرسوم أخذ بعضها برقلب بعض ، بل هو يسلك طريقة اللقاة واللودعية والالهام ، فيتخطى بنظرة واحدة من ثاقب نظراته مجاميع كلمة من المقدمات والنتائج ، ومن ثم تجرد فى فلسفته نوعاً غريباً من رائج الاختلاط كالقننى يشاهد فى عجالي الطبيعة فتشمر كأنك فى متاهة هائلة ولكن قلبك يحدئك بأن هذه المتاهة لا تعدم نظامها المحكم . وقد نشاهد أحياناً بجانب هذا الاختلاط

الشريف اختلاطاً خبيساً يصح أن يدعى ارتباكاً وحيثُ شد ما نتنى من  
صميم القواد لو كانت تلك المستندات الموعودة على جبل ذراعنا ، إذ يظهر  
أن إيضاح كلام المؤلف يتوقف في كثير من الأحوال على إيضاح شخصيته ،  
كأن الأستاذ قد تلقى تلميحه لا من طريق البرهان النظري بل من طريق  
الاختيار الشخصي . على أننا نجتزئ الآن باقتطاف شذرات من هنا وهناك  
ثم نجمع منها صورة تؤدى الى القارىء ياناً مجمل عن منهل الفيلسوف .

لهذا نحن ندعو أهل القطنة والدكاه من القراء الى استجماع خواطرهم  
وحشد أذهانهم . ونسألهم أن يخبرونا بمد انلم الروية أفلا يلحون  
على حاشية الأفق الأقصى أعلام أرض جديدة ، وبشارت جزائر سعيدة ،  
تدعو اليها كل من يعتلى صهوة اليم ، وينامس حومة الخضم ؟ وهناك أيها  
القارىء مثلاً :-

« يأتي على أهل التأمل والتفكير أوقات حلوة هاجسة ولكنها جليلة  
رائمة يوجهون فيها الى أنفسهم بين الدهشة والوجل هذا السؤال المفحم  
الرهيب : من أنا ؟ ، ماهو ذلك الشيء الذى يقول أنا ؟ فى هذه الأحيان  
يشعر الانسان كأن الدنيا بصخبها ولجها قد تراجعت الى الوراء قصياً ،  
وكان بصيرته قد تغتت من خلال بطائن الورق وجدران اللدرو من خلال  
المشاغل التجارية والسياسية ونسائجها الصفيفة الطيات المترابكة الطبقات  
ومن خلال تلك الأغشية النامية والجامدة التى يتألف منها الجسم والمجتمع  
والتي تخلق وجودنا - أقول فى هذه الأحيان تنفذ البصيرة خلال هذه  
الأشياء كافة حتى تصل الى أعماق النيب . وهناك يقف الانسان وحيداً



فريدًا بين يدي حقيقة الكون يتاجها مناجاة خفية ، كما يتناجى الروحاني ويتفاوض السراني !

« من أنا ؟ صوت أم حركة أم ظاهرة أم خاطر من خواطر العقل الأبدى جسم وأبرز إلى حيز المنظور ؟ مهلاً أيها الفكر المسكين قفلاً يحدى عليك هذا التفكير . حقيقة أنك موجود ، وحقيقة أنك لم تكن منذ عهد قريب ، ولكن من أين أتيت ؟ وكيف جئت وأيان تساق ؟ أسئلة تجدد الجواب عليها منشوراً حولك في عرض السموات والأرض ، مكتوباً بكل لون وحركة ، ومسوعاً في كل أهزوجة وعوالة ، ولكن أين المين الثاقبة التي ينكشف لها ذلك السفر المقدس المكتوب بالقلم الأعلى عن مدلولات مفهومة وممان مبينة ؟ نحن من هذه الدنيا مقيمون في كهف عجائب وأحلام ، ومعرض خيالات وأطياف ، بعيد الانحاء شاسع الأرجاء ، يقصر عن أقرب مداه أنعمض الكواكب وأبعد القرون - توفي إلى آذاننا أصوات ونغمات ، وتمثل لميونا صور جملة الألوان وخيالات ، ولكن الأصل المبدع الذي لا تأخذ سنة ولا نوم ، والذي أنشأ الحالم والحلم ، مغيب مكنون ، لا تراه العيون ، بل لا يخطر وجوده على الأوهام ، إلا في لحظات نادرة بين اليقظة والنائم . قل حكيم من الحكمة (مثل الكون كمثل قوس قزح يتراعى أمامنا في حسنه وبهائه ، وجماله وسنائه ، ولكن الشمس التي نقشته فأبدعت ، وصورته فأحكمت ، وتحجب وراءها في مطاوى النعام بحيث لا تنالها الأبصار) . وكذلك نظل في هذا الحلم الغريب نحاول امساك الخيالات الطائفة نحسبها أجساماً جامدة ، وننط في عميق السبلات إذ

نحسب أنفسنا متبئين أشد الانتباه ! بالله خبرني أي مذهب من مذاهبنا الفلسفية الا وهو أضغاث أحلام في أضغاث الأحلام ، الا وهو خارج قسمة صاف أخرجه وأنت واثق بصحته جد الوثوق مع ان كلا من القاسم والمقسوم عليه مجهول ؟ بل ماهذه الحروب والخطوب ، والحوادث الجسم ، والثورات العظم ، الا هذيان المضطرب في منامه ، وحركات المروع من مرعجات أحلامه ؟ هذه الأحلام وهذا الهذيان هو ما نسميه الحياة حيث أحكم الحكماء وأعلم العلماء أولئك الذين يعلمون انهم لا يعلمون شيئاً .

« أسنى على أن علوم الأصول والكلام لم تثبت حتى الآن غير عقما المفرط وصجزها الفاضح . فهذا سر الحياة لا يزال كسر أبي الهول : لغز مبهم مغلق لا يستطيع الانسان له حلا ، وقد قضى عليه لمجزه عن حله بشر أنواع الموت : الموت الروحاني . ماهذه التي نسميها بدهيات ونظريات ومذاهب ومبادئ ؟ ..... كلام في كلام ؟ قلاع هوائية شاهقة قد بنيت أبداً بنيان بقراميد الألفاظ وتماسكت بموتة المنطق ، ولكنها خاوية المروع من العلم ، خالية الحجرات من المرفان . الكل أكبر من الجزء ، كلام ما أصدقه ، الطبيعة تمقت الفراغ ، قول ما أكذبه ! لا يستطيع شيء أن يحدث تأثيراً الا حيث يكون ، نعم هذا حق ولكن أين يكون ؟ لا تكن عبد الإلفاظ ، ألا ترى أن ما هو بعيد عني ، أو ما هو ميت قد انقطعت الصلة بينه وبينني ، هو في الحقيقة قائم « هنا » وقريب مني قرب هذا البلاط الذي أنا واقف عليه ، ما حمت أحبه وأحن اليه وأحزن عليه ؟ بيد أن ذينك المنصرين عنصر الزمان وأخيه المكان ما برحا منذ أقدم القدم وهما اللونان الرئيسيان المصبوغة بهما جذران كهف الأحلام ، بل ان شئت قفل هما السدى .

واللحمة لتلك النسيج المنقوشة عليه أحلام الحياة ورؤاها . ولكن ألم يخبرنا أولو النظر الثاقب في كل عصر ومصر أن عنصرى الزمان والمكان للتصلين بخواطرنا أمتن الاتصال ، المتزجين بنفوسنا أشد الامتزاج ان هما الا زوائد أجنبية عالقة بالفكر ، وعوارض سطحية لاصقة بالنفس ، وأن التأمل البصير يستطيع أن يلح موضع الاتصال بينهما وين الأبدية واللا نهاية . ألم تر الى كل الشعوب والأمم ، كيف تصورت الله جل شأنه موجوداً في كل زمان وقائماً في كل مكان ؟ أنتم النظر ملياً يتضح لك أيضاً أن الزمان والمكان ان هما الا من وتساوير الحواس ، وأنهما في الحقيقة لا وجود لهما ولا أثر ، واننا نحن - ماذا أقول - ذرات من النور ، سابحة في سباحات أنوار العلي التدبير !

« وكذلك ما هذا الكون بكوا كبه ودراريه ، ودعائمه الجامد قورواسيه ، الا صورة وخيال لاحقيقة فيه الا هذا الصوت الناطق بلفظة « أنا » . وما الطبيعة بما عيوت فيها وما يحيى ، وما يستجد فيها وما يبلى ، الا صورة معكوسة عن قوانا الباطنة ، وخيال يتراعى لأحلامنا الهاجسة ، أوهى كما يقول روح الأرض في رواية فوست « رداء الله وثوبه الظاهر الحى »

« في حالة من تلكم الحالات ، وقد غادرني هذه الخواطر العالية والافكار العميقة نضواً حسيراً ، متعباً مبهوراً ، خطرت يالى مسألة الملابس لأول مرة . فأدهشتني تلك الحقيقة القائمة وهى وجود الملابس والخطاطين . عجباً والله ! هذا الجواد الذى أمتطيه قد كفته الطبيعة مؤونة اللباس ، وأعدت له كسوة من الجلد والشعر ، فلو اتى جردته من سرجه ولجامه ، ولبده وحزامه ، لبقى الحيوان النبيل مكتفياً ببنائه ، قد هيأت له الطبيعة من نفسه

غزالا ونساجا وخياطا ، بل أعدت له كذلك حذاء وصائنا ووشاء . فهو  
يجمع ويمرح في بطون الوديان وعليه من اهابه الطيبي كسوة خالصة ،  
لاتلوحها أشعة الشمس ، ولا يؤثر فيها وابل المزن ، بل لا ينقصها ما يزنهما من  
محاسن الوشي ، فهي تروق العين بالفرر والأوضاح والشيلت والدارات والحل  
والهداب والألوان المشرقة والأصباغ الموقفة . فيالله كل ذلك وأنا قد تلففت  
في جزر الاغنام وألبية النباتات واماء الديدان وجلود الثيران وفراء ذوات  
الفرو من الحيوان ، وعلى هذه الهيئة أخرج الى الملافا أنا الا مشجب متحرك  
قد كوم عليه ركام من الاسمال انتشلت من مقبرة الطبيعة حيث البلى قائم لها  
بالرصاد وروكت على جسني كي تبلى علي بسرعة أقل وفي زمن أطول .  
وكذلك يمر اليوم أثر اليوم وأنا لا أجد مندوحة عن تغطية بدني بالخرق  
والاهدام ، كذلك يمر اليوم أثر اليوم ، ولا بد لهذا النطاء الحقيق أن يفقد من  
نخاته طبقة تكتسح الى اللزبة ، حتى يلحق بأوله آخره ، وينضم الى بعضه  
سائر ، فأعمد أنا ذلك المخلق المبلى الى اتخاذ مادة جديدة أبلها وأفيها -  
باللقبح والالشفاعة أو لم يرزقي الله اهابا شاملا ، أبيض الصبغة أو أسمرها ،  
نامع البشرة أو أكدرها ؟ عجبا لي ولشافي ! هل كنت اذن كتلة مرقعة من  
مزق الخياط ووقع الاسكاف ، أم أنا شخص دقيق الاجزاء ، متجانس الاعضاء ،  
محكم النظام أتيق الهندلن ذو حركة ذاتية بل روح حية ؟

« لشد ما أعجب والله من أمر هذه المخلوقات الآدمية تطبيق عن أيين  
لحقائق عيونها ، ثم تستطيع لابتىء سوى جود البلاءة وذهول النسيان ، أن  
بش آمنة مطمئنة في وسط الروائع والرواق . على أن الانسان كان ولا يزال

ذلك الحيوان النبي الأبله الذي هو على أن يشمر ويهضم أقدر منه على أن  
يعتبر ويفكر. فلو لم الذي يتظاهر بكرامته ويتشدد باحتقارهمو أمره المطاع ،  
والمادة هي التي تقتاده من أنفه حيثما كان ، فلو انه شهد مطلع الشمس أو بدء  
الخليقة مرتين لمادت تلك المناظر في عينه غير خليقة بانارة العجب ، بل غير  
جديرة باستراء النظر . ولعلك لا تجد واحداً من أبناء آدم من أي قطر أو  
في أي عصر سواء أ كان أميراً يرفل في حلل الارجوان ، أم صعلوكا يتضائل  
في خرق الكتان ، قد خطن بياحه ولو مرة في العمر أن نفسه ولباسه ليسا  
شيئاً واحداً وجزءاً لا يقبل التجزئة ، وانه لا يزال بفطرته عريان مجرداً حتى  
يتحصل على الملابس اما شراء واما سرقة . وحتى يوفق بعد أعمال الروية الى  
خيالاتها وزورها .

«أما أنا فلا أكاد أفكر في أمر هذه النخرق والاهدام التي تغفل  
تهونها الى سويداء قلوبنا وراح يفسد من أخلاقنا حتى يتولاني الرعب  
ويأخذني الوهل . واعتقاضي انه ما أجل الساعة التي ينزع المرء فيها عن نفسه  
لأول مرة هذه الفضلات الغريبة فيرى انه خلق عرباناً وانه وان كان ،  
كما قال سويقت ، حيواناً مفروج القامتين معوج الساقين ، لا يزال سرّاً  
ملتزماً من أسرار الكون ونفحة مباركة من روح الله »

## الفصل الثامن

في النجود

لا يهولن القاريء ما أبداه الاستاذ في ختمة الفصل الأخير من غريب

الآراء التي ماكدنا نطلع عليها لأول مرة حتى قلنا في نفسنا : عجبا لآمر هذا الفيلسوف أترأه يريد أن يظهر في هذا القرن قرن المدنية والحضارة يظهر علو الملابس ونصير التجرد !

مهلا أيها الاستاذ الأحق تذكر ما للملابس على الانسان من عميم الافضال وجزيل الأيادي ! انظر الى قفسك وأنت طفل رضيع حديث العهد بالقدم الى هذا الكوكب السيار، تتقلب في حضن مرضعتك ظاهر العجز عديم الحيلة، تمتص أناملك، وتقابل الدنيا بنظرات شاخصة والملاحظ ذاهلة، ماذا كان يكون شأنك لو لا تلك اللقائف والأقطة، والملاحف والأربطة ؟ أم هل نسيت اليوم الذي استبدلت فيه بثياب البيت ثياب المدرسة، فطار النبا في أنحاء القرية، وأقبل الجيران واحداً بعد واحد يقبلون وجنتيك المتوردتين، ويمنحونك المديدة من دراهم فضية أو نحاسية في أول عيد لك في هذا الوجود ! أم هل غاب عن ذكرك عهد الشباب والغرور اذ كنت تعنى كل العناية بتزيين شخصك وتأنيق هندامك ؟ بل تذكر حالك اليوم وقد تقضى ذلك العهد أو تبدل شأنك فاصبحت لاتتخذ الملابس للزينة بل للوقاية، أترأك تلبسها كارها بحكم الضرورة، وتعتبر اتخاذها عاقبة مشثومة من عواقب سقوط أبويك الأولين من الجنة، أم أنت تعقبط بها منشرح الصدر مبتهج النفس شاعراً بأنها يد دافئ، متحرك يل جسم ثان حول جسمك، تقيم فيه نفسك المحيية آمنة السرب لاتبالي بتقلب الاجواء، ولا تبعاً بتصرف الأنواء ؟ بفضل الملابس قد استطعت أن تمتطي ذلك « الجواد الذي امتطيته » فتخرج به ولو في صبارة الشتاء نهيب بك الأرض نهيباً، ويختال بك فوق ظهرها ترقاً ومرحاً، كأنك أميرها

وسيدها، عبثاً ما تلمص صدغيك عواصف الجليد، فاتها لن تلتقي إلا ببطقات الصوف الصفيق، وعبثاً ما ترعج حولك الرياح وتقصف، وتجاوب اصدااء الغابات وتمزف، وتتكور الزوايح وتمصف، ثم تنقلب أعصاراً يلفح فينسف: فانك لاعمالة مارق في وسطها مروق السهم، تقتدح الشرر من قارة الطريق، وترن في أذنيك موسيقى المناصر المتصارعة، وتنضيء سبيلك البروق الساطعة. فناشدتك الله ماذا كنت تفعل بنير الملابس، وماذا كان يفعل بنير السرج والجلجواطك السابح؛ الطبيعة كريمة ولكنها ليست أكرم الأكرمين، فهنا ينتصر عليها الفن ويتفوق.

وكأنني بالقارىء يقول: أقبل نسي صاحبك الاستاذ ماذا كره آفك عن ذلك المتوحش المنسكع في الغابات وعن حاله التمسمة الأسيفة؟ أترأه يريد أن ينقض كل ما قال، ويرجع بنا الى عهود التوحش والهمجية؟

رويدك أيها القارىء ان الاستاذ عليم بكل ما يقول، وكلانا قد تمجبل في لومه. لكن لم يكن للملابس اليوم وقد شرعت تستبد بنا وتفسد من أخلاقنا فضيلة تشفع لها، أفليس في الامكان استخدماها فيما هو أصلح وأنفع؟ أفلا بد من نبذها نبذاً؟ ان الاستاذ لا تخفى عليه مزايا الملابس ومنافعها، بل لعله يرى بناقذ بصيرته من خفي فضائلها ومآثرها ما لا يظهر قط لغيره وهالك مثالاً من ذلك:

« ترى شخصين أحدهما في ثوب أحمر فاخر ضاف، والآخر في ثوب أزرق سخيّف جاف. فيقول الأحمر للأزرق « حكمت عليك بالشق والتشريح » فترتمد فرائص الأزرق، ثم (يا للعجب العاجب) يدلف الى الممشقة كتيباً حزينا، فيشقى هنالك ويتدلى ساعة من الزمن، ثم يشرحه

الأطباء ويبيتون من عظامه هيكلًا يستعمل في المقاصد الطبية . كيف كان ذلك ؟ أم هذا تصنع يقولهم « لا يستطيع شيء أن يعمل الا حيث يكون » ؟ ان هذا الأمر لم يكن قابضاً على الأزرق ، بل لم يكن ملاسه بحال من الأحوال ، ثم أولئك الشرطة والمأمودون وسائر الذين يصدعون بأمر الأمر ليسوا متصلين به اتصالاً يمكنه من تحريكهم من هنا الى هنا والتصرف فيهم بحسب هواه ، بل كل منهم مستقل في موقفه ، منحصر في اهابه . ولكن مع كل هذا لا تكاد تخرج الكلمة حتى يحققها الفعل ، لا تكاد الكلمة المفروضة تفصل من فم قائلها حتى تنطلق الايدي بالعمل ، فيفعل الجبل فعله ، وتؤدي أدوات التشريح مهمتها .

« أيها القاري . للمفكر اني أرى السبب في ذلك يرجع الى أمرين : أولهما ان الانسان كون روحاني تربطه بجميع الناس روابط خفية ، وثانيهما انه يرتدى الملابس وهي العلامات الظاهرة النالة على تلك الحقيقة الباطنة . ألا ترى أن صاحب الثوب الاحمر قد اتخذ شعاراً مخصوصاً وارتنى رداً مخصوصاً بحيث يفهم جميع الناس أنه قاض ؟ بلى يا صاحبي هذا المجتمع الانساني ، الذي كلما زدته تأملًا زادني حيرة ، انما هو مؤسس على الملابس .

« كثيراً ما أطالع وقد تولاني الملل والاكتئاب أخبار الحفلات الرسمية والمقابلات الملكية والتشريفات السلطانية ، وكيف تتقدم الوفود بين صفوفه الحجاب والنبلاء ، والقواد والأمراء ، حتى تنتهي الى السدة العلية بين مجالس التعظيم والاجلال ، ومظاهر الأبهة والاحتفال ، فيتنا أجد خاطري في تخيل ذلك الموقف ، وأكاد ذهني في تصور ذلك المنظر لاروعني الا املس الملابس عن أفراد الجمع برمته . فأبروح آتخيل الحجاب والأمراء ، والأساقفة



والنبلاء، والأعيان والقواد، بل الحضرة العلية بجلالة قدرها، وكل ابن أم منهم واقفاً هنالك عارى الجسد لا تستره خرقه، فأغلل لا أدري أأضحك من ذلك للنظر أم أبكى.

« ترى ماذا يصنع صاحب الجلالة لو أن هذا الأمر وقع فعلاً : ماذا يفعل القوم لو أن الازرة كلها طاحت من مواضعها وتبخرت أنسجة الملابس بالفعل كما خيل لي في الوم ؟ فله أوبوم اكيف كان كل منهم يتسلل لو أذا إلى أقرب غنبا ، وكيف كانت تنقلب حفلتهم الليلية رواية مضحكة ، وكيف كانت نظام الحكومة برمته ، بل كيان المجتمع بجملته ، يتداعى معهم ويتلاشى بين عولات اللعار وصيحات الفناء ! »

هل يستطيع القارىء أن يتصور خطيباً عربانياً يخاطب برلماناً عارياً ؟ إن الخيلة تشجز عن تمثيل هذه الصورة ، وتقف دونها حسيرة مبهورة ، يد أن الأمر ليس من الاستحالة بحيث نظن . أو لم يكن كل فرد من أولئك الحارسين لحقوقنا ، الساهرين على حرياتنا ، عارى الجسد أو يكاد ليلة البارحة وماذا يمنحه - لو جرى بذلك محتوم القدر - من أن يتمشى عارياً الى ندوة البرلمان ، كما يتمشى عارياً الى غرفة النوم ؟

## الفصل التاسع

### المادية والرومانية

الآن حصص الحق وبرج الخفاء ، وظهر ان صاحبنا الاستاذ من أغلى غلاة المتطرفين ، لا يكاد يرى في روائع الحياة وزخارفها الا أسماً بالية وأناس كحفاة عراة ، غرى بنا أن لا نتلوهم بين هذه المباحث طويلاً ، وحسبنا

أن نعلم هذه الحقيقة البسيطة وهي ان تحت هذه الدنيا الكسبية دنيا عارية . لهذا نضرب صفحاً عن كثير مما يذكره الاستاذ عن « مصارعات الملوك المرأة مع الخوذية فوق الكلا حيث يسقط الفريقان مجدلين » وذلك حيث يقول « شرحهم للمشارط تجدى الفريقين مظهرًا متماثلًا من الأوعية والأحشاء ، والأنسجة والامعاء ، ثم اخفى تركيهم الروحاني تجدى الفريقين مظهرًا متماثلًا من الشراة الكبيرة ، والهمة الصغيرة . بل لملك تجدد الحوضى بما يعلم عن غرائز البهائم وتأطير المجلات ، وقانون التوازن والاختلال وما شا كل ذلك من فن جر العربات ، وفضل ما مارس من العمل في مناحي الطبيعة والكدف في مذاهب الحياة ، أخصب الفريقين ذهنًا وأوسعها حيلة . إذن ذا السر فيما بينهما من هذا البون الشاسع ؟ السر يا صاحبي في الملابس » كذلك نفعل كثيرًا مما ذكره الاستاذ عن اختلاط الطبقات واختفاء الميزات واستحكم القوضي واضطراب الأمن الى ما شابه ذلك من الأمور التي هي جذيرة أن تخطر بالبال . حتى تمثل الفكر صورة « المجتمع العريان » على أنا نكتفي من كل ذلك بالكلمة الوجيزة الآتية :

« هل نحن من ذوات الأكياس ، قد جهزتنا الطبيعة بأكياس طبيعية كالتي لليربوع ؟ أم كيف كنا نستطيع بغير الملابس تجهيز أنفسنا بذلك المعضو الرئيسي : مقر الروح ومركز النفس ، بل النعمة الصنوبرية لجسم المجتمع : أعني كيس النقود ؟ »

يبد أن الانسان لا يستطيع مع كل ذلك أن ينفذ الاستاذ بل غاية ما في الأمر أن يبقى لا يدري أيجه أم ينفذه . ولا غرو فانه اذا كان الاستاذ عند التأمل في بدع كسوة الحياة وما حوت من شرف التصاوير ورائع

التهاويل لا يقتصر على إجمالة النظر في وجهها بل لا يزال يقلبها على ظهرها  
يفتشى مواضع الخياطة الجافية والخرق المتدلية وسائر ما حوى ذلك الجانب  
التقبيح من المشوهات - فإن فيه مع هذه النزعة السفلية نزعة علوية لا تقل  
عنها قوة وشدة . ولئن رأيت يخط من مكانة الانسان وينزله في بعض  
الاحيان عن سائر الحيوان ، فانك لتراه في أحيان أخرى يرفعه الى أعلى  
عليين ، ويحمّله في صف الكرام المطهرين : ومن هذا القبيل العبارة الآتية :  
« ما الانسان في عرف المنطق المادى ؟ حيوان ذو قائمتين يأكل اللحم  
والأعشاب . وما هو في عرف المنطق الروحاني ؟ روح لدنية وصورة آلهية ،  
يحيط بنفسه ، تحت هذه الأظفار الصوفية والقطنية ، ثوب من اللحم ( أو من  
الحواس ) منسوج على نول السماء ، وبفضل هذا الثوب الاحمى يظهر  
الانسان لأخيه الانسان ، ويدبش معه في اجتماع وأفتراق ، ويرى بعينه  
وبهيئه لنفسه عالماً ذا مسافات مترامية من لازوردى الفضاء ، وآلاف  
مؤلفة من متطاوّل السنين . وكذلك يقضى المرء حياته في هذا الثوب المخيب  
مغموراً ملففاً ، مدفوناً مكفناً ، يد أنه ثوب طاهر شريف جدير أن  
يرتديه الملائكة بل الآلهة . ألا يقف الانسان بفضل في منتصف الانهاليات ،  
وملتقى الأبديات ؟ لقد منح الانسان ملكة الشمور ، وأوقى القدرة على العلم  
والإيمان ، بل ألا ترى أن طيف الحب قد يطل في قلبه بساحر بهائه ، ويأمر  
لألائمه ، وإن كان هذا لا يقع الا في مسترق اللحظات ؟ لله در القديس  
إذ يقول بشفتيه القهيتين « ليس في الأرض محراب مقدس غير ابن آدم »  
والا فأن تجعل الحضرة اللدنية لبصائرنا فضلاً عن أبصارنا كما تتجلى  
في أخينا الانسان ؟ »

تقي أمثال هذه الشفرات - النادرة لسوء الحظ - تتجلى باطنية  
الفيلسوف ساطعة باهرة ، وتنفجر نزعته الصوفية كالينبوع النافق والسيل  
الجارف ، وعندئذ يخيل إلينا أننا نلمح من خلال ما يحيط بظاهره من مستنقذ  
الأنجزة وكره الأوضار بحراً صافياً من النور والمحبة . لكن - وآسفاه -  
سيرغلان ما تلثم فروج العجاجة للعنكرة ، فتحجبه مرة أخرى عن الأنظار .  
إن هذه النزعة الباطنية لا تزال واضحة الأثر في جميع حركات الفيلسوف  
وسكناته ، فهو لا يكاد يرى شيئاً من الأشياء حتى يثبث فيه غير معناه الظاهر  
للكشوف معنى خفياً مستوراً ، ولئن كان يرى في صولجان الملك وبردة  
الخلافة كما يرى في عكاز الصعلوك ومدركة الشحاذ معنى من الضعة والبلوى  
والضلالة ، فانه ليرى في كل منهما أيضاً معنى من الرقة والروع والجلالة .  
ولا غرو فإن المادة مما حقرت وانضمت لا تزال مظهرأ من مظاهر الروح ،  
ومهما شرفت وارتفعت فهل يمكن أن تكون أفضل من ذلك ؟ إن الشيء  
للرقي ، بل الشيء الموهوم ، إن هو الاثوب ورداء للروح الباطنة الخفية ،  
القدسية السماوية التي لا يحيط بها فكر ، ولا يحدها شكل ، والتي قد أغلقت  
من شدة اللاء ! والآن فلنسمع كلام الأستاذ :

« أساس الحكمة وأصلها أن تحقق النظر إلى الملابس إما بعينك المجردة  
أو بعينك المسلحة حتى تمود سراية شفافه . قال أحكم الحكماء في هذا العصر  
( يبنى على الفيلسوف أن يتعرف أوساط الأمور ويتخذ هناك مكانه )  
كلمة ما أوصيها وحكمة ما أصدقها ! الفيلسوف هو الذي إليه يتضع الرفع  
ويرتفع الوضع ، هو الذي يكون لجميع الناس على السواء أخاً باراً وصديقاً وفيّاً  
« أيلق بنا أن نقف برعنى الفرائص مضطربى الجوانح بين يدي أنسجة

الملابس وأنسجة العناكب سواء أ كانت من نسج معامل الأنوال الصاخبة ،  
أو من نسج عناكب الأوهام الصامتة ؟ أم هل تظن أن في العالم شيئاً  
لا يستحق المحبة والاحترام ، مع أن كل ما في الوجود من صنع البارئ  
المتعال ؟

« طوبى لمن يستطيع أن يستشف بثاقب فطره صنوف الملابس  
(ملابس القطن وملابس اللحم وملابس الأوراق المالية والمناسب  
الحكومية) حتى ينفذ ببصيرة الى نفس الانسان ، وهناك يتبين في الأمير  
الكبير والصلووك الحقير آلة هاضمة واحدة غير ذات كفاية ولا مقدرة ،  
كما يتبين في كليهما سرّ الهياكل المنزّعة ، وطلسماً عجيباً معجزاً »

ثم يأخذ الأستاذ في الكلام على عاطفة العجب ، ويفيض في وصف  
عظيم فضلها وحيد أثرها ، قائلاً أنها أحق ما يستشمره المقيم في مثل هذا  
الكوكب المملوء بالمجائب والمدهشات ، وذلك حيث يقول « العجب أساس  
المبادأة . وأن دولة العجب في الانسان لباقية دائمة ، لا نزول حكمها ، ولا  
يأفل نجمها ، وإن كانت تأتي عليها فترات قصيرة من الانحطاط والتضعف ،  
شأنها في عصرنا الراهن . ان الانسان الذي لا يستطيع استثمار عاطفة  
العجب ، الانسان الذي ليس العجب (وبالتالى المبادأة) من شأنه ودأبه ، ليس  
بشي نظري - وإن كان رئيس ما لا يحصى من المجامع والمحافل وصاحب  
سما لا يحصر من المصنفات والمؤلفات - الامجد نظارة ليس ورامها عين  
بصيرة . فلينظر من خلاله أصحاب البصائر ، هنالك يصبح ذا فائدة ومنفعة .  
جل ان الفكر وحده غير مقترن بماطة الخشوع والعجب جدير أن يكون  
عقياً قاحلاً ، بل ساماً قاتلاً . وكل علم تمثله الرأس دون أن ينشربه القلب

علم لاخير فيه . أفحسب أن من العلم الصحيح تلك المعلومات التي يستطيع أن يستوعبها دماغ كدماغ الطيب في ألف ليلة مفصول عن مجتمه موضوع في إناء يحفظ فيه ربه الحياة دون أن يكون له بالقلب أدنى اتصال ؟ كلا ليست هذه من العلم في شيء ، وإنما هي بعض الحرف المتهنة التي يجدر بالرأس الشريفة أن تربأ عنها بنفسها وتترفع ! »

## الفصل العاشر

### ظرة الى الامام

لقد تبين الآن للقراء ما تنبأنا به وأخذت فلسفة الملابس تتكشف عن مغاوير شاسعة الانحاء ، محجة السماء ، لا يدري سالكها اتقضى به الى جنات زاهرة ومزوج ناضرة ، أم لا يزال منها في مهالك يلعب آلهام ومهامه يخدع سراها .

وكذلك لا يزال الامتاذ يخرج بنا من فدفد الى فدفد ، ويصعد بنا من حلق الى حلق ، ولا تزال نظراته وطمحاته تزداد نفوذاً وثقوباً ، واتساعاً وشمولاً ، فمن ذلك رأي في الطبيعة وانها ليست ركناً متراكماً ، بل نظاماً متلاحماً .

« لله در صاحب الزمير اذ يتنى ويقول (لواني استمرت أجنحة الصياح وسكنت في أقصى أنحاء المعمور لوجدت الله هناك) ، بل خبرني أيها القاري المستنير المهنّب الذي لا يعرف الله الا بالوراثة والتقليد : أأنستطيع أن تدلني على ناحية في هذا الكون ليس للقوة فيها أثر ؟ ان ظرة الماء التي تنفضها عن يبك الببلولة لا تستقر حيث تقع ، بل انك لتجدتها في غلك قد ترحلت »

عن مكانها وامتطت صهوة الشمال واقتربت من مدار السرطان . كيف تأتي لها أن تتبخر ، ولماذا لم تجمد في موضعها ؟ اتحسب أن في هذا العالم شيئاً عديم الحركة ، عديم القوة ، جامداً ميتاً ؟ »

« بينما كنت راكباً جواً أسير في بعض السهول قلت لنفسى ( تلك النار التي تتلأ لا كالنجم الثاقب وتلوح لعينك خلال الفسق على مدى البصر - حيث يكب الحديد الأغبر على سندانه ، وحيث ترجو أن تتركب هذه الجوداك - أهى شرارة منفصلة منعزلة لا صلة لها بسائر العالم ، أم هي قطعة من الكون متصلة به اتصالاً موثقاً ، وملتحمة به التحاماً محكماً ) أيها الجاهل الأحمق تلك النار التي تراها الآن مشتعلة وهاجة قد اقتبست أول ما اقتبست من جرة الشمس ، ثم هي لا تنفك تنغذى بالهواء الذي يجرى تياره حول الأرض من قبل طوفان نوح ومن وراء الشرى المبور . هنالك في ذيك المكان قد اجتمعت قوة الحديد وقوة الفحم مع ما هو أعجب وأغرب أعني قوة الانسان ، فنشأ بين ذلك المجموع ارتباطات فنازعات فانتصارات . ذلك المكان هو غدة أو مركز عصبي في هيكل الكون ، أو سمه ان شئت منسكاً مرفوعاً على صدر الوجود الكلي ، قربانه الحديدي . ودخانه الحديدي وتأثيره الحديدي : جميع ذلك ينفذ ويسرى في كيان الوجود الكلي ، وما فلك الحديد الا غبر الا كاهن يشرح سر القوة لا بالكلمة واللسان ، ولكن بالمصّب والجنان ، بل هو يشرح ققرة صغيرة من انجيل العرية - انجيل القوة الانسانية - القى ان يكن له الآن بعض الأمر ، فسيكون له يوماً من الأيام كل الأمر . »

« منفصل منقطع ! ليس في الوجود شيء ينطبق عليه هذا الوصف .

وما كان شيء من عناصر هذا الكون لينزل عن سائرته وينتبد جانبا ، بل الأشياء كافة ، حتى الورقة المصفرة الجافة ، تتعاون وتتضافر ، وتتفاعل وتتآزر ، يحملها من الحياة تيار زاهر ، عديم القرار عديم الساحل ، ولا تزال في أحوال متقلبة وأطوار متعاقبة . فالورقة النابضة ليست بضائعة ولا سميت ، لأن قوى عديدة تؤثر فيها وفيما حولها ، وانما على أسلوب معكوس ونظام مقلوب ، والا كيف كان يتأتى أن تتعفن وتنفى ؟ ألا لا تحقرن الخرقه بالبالية التي يصنع الانسان منها الورق ، ولا السمعة القفزة التي تصنع الارض منها القمح ، فانك ان أمنت النظر لم تجد في العالم شيئا حقيرا ، بل ما من شيء الا وهو كنافذة تطلع من خلالها العين البصيرة الى أسرار الغيب وأعمق الأبدية .

تترك الآن هذا السهل بحده وسنلده ، ومنسكه ومحراه ، وننظر الى هذه السفن الهوائية المحلقة في عتات الفضاء متسائلين الى أية غاية تجري بنا ؟ « كل شيء منظور انما هو رمز ، وما تراه بعينك وتلمسه يديك لم يوجد لذاته ومن أجل نفسه ، بل هو اذا دقت البحث غير موجود أصلا . ذلك بلان المادة لا تكون الا بفضل الروح ولا توجد الا لتصوير فكرة . ومن هنا صارت الملابس على احتقارنا ايها واستخفافنا بها ذات شأن رفيع . فانها من حلل الملوك الى اطمار الصاليك رموز ودلائل ، تشير الى الحاجة خاصة بل ايضا الى فوز مبين على تلك الحاجة . ثم ترى من جهة أخرى أن جميع الأشياء الرمزية ان هي في الحقيقة الا ملابس نسجتها الملكة الخفية أو اليد العاملة . فلما الخيلة فعلها أن تنسج ثيابا منظورة - أو قل اذا شئت أجسما سرية - ترتديها مبتكرات الفكر الخفية ، فتجلى للاذعان ، كما تجلى الارواح



في هياكل الابدان . وأما اليد العاملة فتقدم الى مساعدة الخيلة ، ثم بفضل المنسوجات وما شاكلها من الملموسات يظهران هذه الابتكرات الخفية للعيان ، فضلا عن الاتعان .

« لقد صدقوا حين يقولون : فلان عليه ثوب الهيبة والوقار ، وفلان ينشاه رداء الحسن والجمال ، وفلان عليه ثوب من مقت الله وغضبه ، الى ما شاكلها من الاقوال . بل تفكر في الامر مليا ثم حدثني : ما الانسان ذاته ، بل ما حياته الدنيا باحدهما ، ان لم يكن رمزاً وإشارة ، وان شئت فقل رداءاً منظوراً تسربله النفس الآدمية الألهية المباشطة من أعالي السماء الى وهاد الارض كأنها ذرة من النور ، أولهجة من الأثير ؟ ومن هنا جاز القول بأن الجسم رداء الروح .

« يسمون اللغة رداء الفكر . والحق أن المعنى روح واللفظ جسم ، أو ثوب من اللحم يرتديه الفكر . لقد قلت أن الملكة الخيلة هي التي تنسج هذا الرداء ، وليس الامر كذلك في الواقع ؛ أجل أنها تفعل ذلك وتتخذ مادتها من المجازات والاستعارات ، فانك اذا استثبتت من اللغة بعض عناصرها الأولية (وهي التي تحكي الاصوات الطبيعية ) لوحدت سائر عناصرها استعارات ومجازات ، بعضها لا يزال غضا زاهيا ، وبعضها قد أصبح جافا ذوايا . واذا كانت تلك العناصر الأولية بمثابة الهيكل العظمي في جسم اللغة فلا استعارات والمجازات هي لحم وعصبه ، وجله وعضله . ولن تستطيع معها أطلت البحث ان تجد اسلوبا خاليا من الاستعارات سليبا من المجازات . وانما تتفاوت الأساليب في أن بعضها هزيل نحيل قد جف عصبه حتى صار أشبه بنظمه ، وبعضها مصغر مكفهر قتله الجوع عوترآى على وجه الموت ، وبعضها يشرق في بشاشة المافية والصحة ويختال في عفوان

النماء والقوة . ثم هنالك من الاستثمارات ما هو كاذب مزيف وحشو مبهرج  
يتراكم على جسم الفكر ( وحقه أن يكون عارياً ) كما تراكم على البدن  
الأكسية الموشاة الكثاف، والزخارف المبهرجة الثقيل »

عمر ك الله أيها القارئ هل عثرت في جميع مطالعاتك على عبارة هي  
أحفلى بالتشبيهات وأحشد بالاستعارات من هذه النبذة التي يتكلم فيها الاستاذ  
عن التشبيه والاستعارة ؟ ولكن ما هذه بظلامتنا الوحيدة ولا بشكايتنا  
الكبرى فهناك ما هو أمر وأدهى : فلنرجع الى حديث الفيلسوف .

« أى حاجة نل الى الاكثار من الشواهد ؟ لقد جاء في التنزيل (سوف  
تبلى الارض والسماء ، كما يبلى الرداء ) وكذلك هما بلاريب : رداء من الزمن  
تتجلى فيه الأبدية . فكل شيء يوجد في عالم الحس وكل شيء يظهر الروح  
للروح انما هو في الحقيقة قوب وملبس يرتدى لاجل معلوم ثم يتزع . وكذلك  
تري أن مبحث الملابس ، اذا فهم على حقه ، مبحث خصيب يتضمن كل  
ما فكر فيه الانسان وما حلم به ، وكل ما فمله وما كانه ، فإل العالم الظاهر وجميع  
ما يحويه الأرداء ، وما لباب العلوم وجوهرها الا في فلسفة الملابس »

الى هذه الآفاق المترامية الأنحاء ، المغنية الارحاء ، وجد الناشئ نفسه  
متجها في حذر وعناء . وقد كان يهزرن عليه الامر أنه ما برح يرى في الوثائق  
المتروكة ورودها من المهر هفراث كوكبا من كواكب الامل ، ولكن هذا  
السكر كوكب قد أخذ يتوارى - لا في ضوء الصباح المسفر ، بل في غيب قاتم  
أغب ، ليس يدري أهو فجر النهار الضاحك ، أم مقدمة الظلام الخالك . والواقع  
أن تلك الوثائق التي طالما تشوقنا اليها قد وصلت إلينا منذ اسبوع فسرعان

ما فضعننا غلافها ، وتصفحننا بنافذ الصبر محتوياتها ، ولكننا وآسفا لم نلبث ان القيناها بين أيدينا وقد خاب الظن واخفق الرجاء .

ولقد بحث المهرهفات مع هذه الوثائق بخطاب مطول جعل يذكرنا فيه بما نعلمه علم اليقين فيقول أنه كيفما كان الامر بالنسبة للعلوم النظرية المجردة التي لا منشأ لها الا من الدماغ ، فالواقع بالنسبة لفلسفات الحياة التي تدعى فلسفة الملابس هذه انها منها والتي تصدر عن الخلق كما تصدر عن الرأس - الواقع بالنسبة اليها انها لن تنكشف عن جميع معانيها ولن تؤدي الى أقصى مراميها الا اذا تكشف الخلق الذي هو مصدرها ، « الا اذا تبين للقارىء رأى المؤلف فى هذه الحياة واتضح له بآية كيفية ، من سلبية وإيجابية ، توصل الى تكوين هذا رأى - أو بالاختصار الا اذا كتبت ترجمة المؤلف بطريقة فلسفية شعرية ، وقرئت كذلك بطريقة فلسفية شعرية » ثم يقول صاحبنا على سبيل الاستطراد « كلا بل لو أن الحقيقة العلمية المجردة ذاتها قد تجلت لناظريك لما اكتفيت بمطالعتها ، بل لانشأت تسأل نفسك من أين جاءت ولماذا وكيف ؟ بحيث لا يستريح لك بال حتى يصوغ لك الوم - ان لم يضع لك الواقع - جوابا يرضيك ، وحتى تجد بين يديك صورة كاملة لمنشأ الانسان ومساعيه ، ومجهوداته ومراميه ، سواء أ كانت هذه الصورة قد نقشت بألوان الحقيقة الصادقة ، أم بألوان الخيال الملفقة ، ولكن مالى أسهب فى بيان ما لترجمة فيلسوف الملابس من فوائد وفضائل ؟ أو لم يقل حكيمنا الكبير جوتا « ماعنى الانسان حقا الا بالانسان » وهلم الا حظ بنفسى أن كل مايجرى بيننا من الاحاديث ان هو الا ضرب من التراجم ؟ حقا أن التراجم لهى من حون سائر الاشياء اجز لها فائدو أعظمها متاعا لاسما تراجم الممتازين من الافراد »

ثم يستمر المهر هفراث في عبارة بليغة لعله قد سرقها من كلام الاستاذ  
أو لعل الامر كله خدعة من تمويه نيو فلسدروخ وذلك حيث يقول « ولا  
اخالك يا صاحبي الا قد توغلت الان في غابة فلسفة الملابس وجعلت تتلفت  
حوالك متعجبا مندهشا ، فكلم هنالك من نبذ نادرات ، وفقرات رائعات ،  
جديرة بان تستثير في نفس كل قارىء تطلعا غريبا الى معرفة تلك الرأس  
التي أنجبها ، الى اكتناه تلك الآلة السحبية المنقطعة النظير التي في مقدورها  
اتاج أمثال هذه الطرف البديعة والتحف المتممة ، أكان نيو فلسدروخ كما  
لسائر الناس أب وام ، وهل مركسائر الناس بدور الطفولة فكان يلف في  
الإقطة ، ويخرج الطلم بالملعة ، هل ضم الى صدره بين خفقات الضرب  
وعبراته صدر صديق ، وهل ينظر نظرة المتحفظ المتأمل في دهليز مقابر الماضي  
حيث لا يجيب النداء الا انين الريح ورجع الصدى ، بل ليت شرى كيف  
حاله في موافق النرام ، وجملة القول من أى سرايب ومعارض ، ومن أى  
اتفاق وثنيات ، قد اطلع الى هذه القمة القديمة العجيبة حيث هو الآن مقيم ؟  
« تلقاء هذه الامثلة كلها لا يزال التاريخ صامتا لا يحير جوابا ، فكل  
ما يعلم عن صاحبنا علم اليقين أنه رحلة آت من سفر بعيد قد نال منه الآن ،  
وبات يشكو الوجى ، وانه قد سطا عليه كثير من اللصوص وقارقه في الطريق  
الكثير من الرفاق ، ولكنه تمكن في كل مرحلة من دفع ضريبة الجواز (والأ  
لما تركوه يمتازها ) ولكن اين كل ما يتعلق بخط سيره من التفاصيل ، وماذا  
عساه أخذ في رحلته من الارصاد الجوية والمناظر الطبيعية ؟ كل ذلك لا سيبل  
الى معرفته ؟ أكل ذلك قد فقد بحيث لا أمل في العثور عليه ؟ أهنأ صحيفة  
اخرى من ذلك السفر الضخم ( سفر الناكرة الانسانية ) تركت لكي تطير

في مهب الريح من غير أن تطبع وتنتشر وتجلى وتحفظ ؟  
« كلا يا صاحبي إني الله أن يكون ذلك ، فما أنا أبث اليك - بفضل  
مالك عند الفيلسوف من مكانة - ترجمة حياته مكتوبة بقلمه ، أو على الأقل  
المادة اللازمة لإنشاء هذه الترجمة ، وكذلك سنكشف فلسفة الملابس وفيلسوفها  
لأعين الجمهور المتعجب في بلاد الانجليز ومن ثم تنتقل الى امريكا فالهند  
فاليابان ، حتى تنتشر على الجانب الأعظم من هذا الكوكب السيار ! »

وليتصور القارئ بعد ذلك شعورنا وقد وجدنا ، مكان هذه الترجمة  
التي ستميط اللثام عن فلسفة الملابس وفيلسوفها ، ستة أضياف ضخمة  
عنى بلغها وحزمها وختمها ، وفي داخل كل منها كمية هائلة من الصحائف  
والقصاصات مكتوبة بخط الاستاذ ، وهو لا يكاد يقرأ ، وقد تمرض فيها  
لكل موضوع في الارض والسماء الا ترجمته الشخصية ، فانه لم يتناولها الا  
لما في عبارة هي متبهى النعوض وغاية الانجاز .

ففي حزم بمخافيرها من هذه الأوراق لا يكاد الاستاذ يشير الى نفسه  
أدنى إشارة . ثم تراه في مواضع أخرى يئنه يحدثك عما وراء الطبيعة أو عن  
آرائه في الآلات البخارية أو عن إمكان اتصال جبل النبوة يلقى اليك عرضاً  
نبأ حادث من حوادث حياته الخصوصية لا تلمح حظها من الأهمية . وفي  
بعض الصحائف يقص علينا أحلاماً يعلم الله حقيقة هي أو مخترعة ، بينما  
وقائع يقظته وتصرفلت انتباهه قد أغفلت اغفالاً . وفي بعض القصاصات  
السائبة تقرأ حكايات صغيرة ولكها في أكثر الأحيان خلو من كل إشارة  
الى زمانها أو مكانها . أما تنقلاته ورحلاته فلا دليل عليها الا ما يصادفك في  
كل حين من اعلانات الشوارع التي زار الاستاذ مدنها في عتلف أسفاره .

ولعل هذه الأضابير قد حوت من هذه الاعلانات المكتوبة بكل لسان  
بجموعة ليس لها في الدنيا نظير . هذا وقد تشر الفينة بعد الفينة على بيانات  
مطولة عن شيء من تفاصيل حياته ، ولكن في غير ترتيب ولا تنسيق ،  
وفي تلقيق لا موجب له واسهاب لا فائدة منه . وهكذا تجد جذب  
المعلومات يتناوب مع الأسراف فيها ، وأعمال الأخبار يتداول مع الإفراط  
منها ، كأنما هذا الفيلسوف لم يسمع في حياته عن شيء اسمه النظام أو حسن  
الاختيار ، اذ كل ما في الوثائق فوضى فوق فوضى .

واذ كان في نيتنا أن نودع هذه الأضابير الستة المتحف البريطاني فانا  
نوفر على نفسي كل أطناب في وصفها ، وحسبنا الآن القول بأنه لا أمل  
البتة في أن نستخرج منها ترجمة لحياة الأستاذ بللمنى المفهوم من الترجمة ، بل  
كل ما نطعم فيه أن تنشأ بين الناشر والقارىء بمجهوداتهما المشتركة من كد  
الذهن وإجهد الخيال صورة قريبة الشبه لهذا الفيلسوف الغريب .

وكذلك شرع الناشر يواصل ليله بنهاره في استجلاء غوامض هذه  
الوثائق المعهشة ومقابلتها بمحتويات الكتاب الذى لا يقل عنها إدهاشاً ،  
محاولاً بكل جهده أن يبنى للقراء فوق هذا السديم المضطرب الموارء المتلاطم  
الفتور ، جسراً متيناً . وأكبر ظني أنه منذ قلم أول اثنين من بنات الجسور -  
الموت والخطيئة - يبناء ذلك المقد المائل المتمد من باب الجحيم الى حافة  
الأرض لم يأخذ أحد قط على عاتقه مثل العمل الذى يحاوله الناشر . والحق  
أن العاملين من حيث الضعوبة يتشابهان ، وإن كانا - فيما نرجو - من  
حيث الناية يتباينان . فانا نحن أيضاً مضطرون الى التقاط مواد البناء ، من  
أعماق الهاوية ومن أجواز الفضاء ، آخذين من هنا كتلة ومن هننا كتلة ،

عاولين بكل مالدنيا من مهارة أن تلصق القطعة بالقطعة ، بينما العناصر تظلي تحتها وتقوم ، وتسطق وتقوم . ذلك الى أننا لم نؤت قوة خارقة للطبيعة توحى بها هذا العمل ، بل كل عدتنا تنحصر فيما رزقه ناشر انجليزى ضعيف من قوة اجتهاد وملكة تفكير ، يحاول بهما أن يخلق « دنيا » مطبوعة من « سديم » مطبوع ومخطوط . وانها المحاولة - علم الله - وشك أن تقتك بمسكاته ، بل تكاد توحى بحياته .

ولقد أخذ الناشر - تحت تأثير هذه الجهود المتواصلة العنيفة - ينظر صابراً متجملآ الى بنيتة القوية تهزل وتنحف ، والى حظه من النوم يلتقص ويتحيف ، والى جهازه المصبي يضطرب ويضعف . وأي بأس فى ذلك ؟ ما فائدة الصحة ، بل ما فائدة الحياة ، ان لم تستهلك فى تأدية عمل من الأعمال ؟ وأي عمل هو أفضل وأنبى من غرس الافكار الأجنبية ، فى التربة القاحلة الأهلية ، اذا استثنينا طبعا فرس بنات أفكارك وتلك موهبة لم يؤتها الا الأقلون ؟ ان فلسفة الملابس هذه تبشّر ، اذا استطعنا أن نصل الى صميم معناها ، بأن تفتح فى تاريخ الانسانية عهداً جديدة - بأن تُسفر عن تبشير عهد أعجى وأعلى ، وأشرف وأسمى . فها نستحق هذه الثابة أن نتسابق اليها ونهاقت عليها ؟ قلى الأمل معنا أيها القارىء الشجاع ، لتكن العاقبة ما كانت : فشلا واخفاقاً أم فوزاً ونجاحاً ! فان تكن الأخرى فان لك لنصيبك منها ، وان تكن الأولى فان الذنب كله علينا .

## الكتاب الثاني

### الفصل الاول

#### اللقا

غير محقق ان كان كشف الستار عن غوامض مولد الانسان ومنسبه  
يخيد كثيرا في تعرف حقيقته . بيد انه لما كان مبدأ كل شيء في الكون  
لا يزال يمد أخطر لحظة في حياته كان الناس عند النظر في ترجمة البطل من  
الابطال لا يستريحون أو يزاح لهم النقاب عن جميع الظروف المحيطة والتفاصيل  
المتعلقة بمقمه الى هذا الكوكب السيار . سواء أ كان لهم في ذلك فائدة علمية  
أم لم يكن . فذلك قد أفردنا هذا الفصل الاول للبحث في منشأ فياسوف  
الملابس ، ولكن يظهر لسوء الحظ أن صاحبنا غلبض الأصل ، ان لم يكن  
مجهول النسب ، فهو لا يعرف له مولد ولا منسب ، وكل ما يعرف عنه انتقال  
من عالم النيب الى عالم الشهادة ، وذلك حيث يقول :-

« في قرية انتبهل كان يقيم اندريا قترال وزوجته في عزلة وسكون  
واعتباط وان كانا قد أشرفا على الشيخوخة ولم يرزقهما الله بمولود . وكان اندريا  
منابطا ومملعا عسكريا في عهد فردريك الأكبر . بيد أنه قد استعاض المهرات  
والجرفة من الرمح والمصا ، واعتكف في تلك القرية يزرع حديقة صغيرة



يعيش على ريعها شأن « سنسيتاس »<sup>(١)</sup> في عزة وقناعة . وكان يقضى  
الشيات بالتدخين أو المطالعة ، ويقع على جيرانه أنباء الماضي من وقائمه  
الحرية وحوادث حياته العسكرية .

أما زوجته جرتشن ، وكان قد ملك فؤادها كما ملك عطيل فؤاد ديمونا  
يمجد أفعاله لا بسحر أخطائه ، فكانت تحبه حباً جما وترى فيه للثلث الأعلى  
فالشجاعة والحكمة ، كأنه في نظرها « سيسرو » خطيب الرومان و « سيد »  
فارس الأسبان ، ولا غرو فان التى تراه ولا يستطيع نفرك أن يتعداه هو  
بالنسبة اليك بمنزلة أقصى غايات الكمال ، وأبعد مطامع الآمال . وبعد أولم  
يكن أندريا في الواقع رجل نظام وشجاعة وجد واستقامة جديراً بالحب  
والاجلال ؟ وهكذا كانت جرتشن تتعاهده وترعاه ، وتحنو عليه وتحنى  
به ، شأن الزوجة الصادقة الصالحة ، لا تقتر لحظة عن القيام بشئون بيته من  
علمي وتنظيف وخياطة ، فلم تكن عنايتها مقصورة على الاحتفاظ بسيفه  
التقديم وخودته المتينة ، بل كان البيت كله وجميع ما يكتنفه بروق المين بحسن  
دوائه وبشاشته ، ويشرح الصدر بحمال ترتيبه ونظافته . وكان كوخاً  
خسيس العرف مزدان الجدران ، تظله أشجار الغلب والفاكهة ، وتحتضنه  
أغصان للتسلقات ذوات الخضرة الدائمة ، وكلها ساعدة ، في اختلاف ألوانها  
والخفاف أفتانها من حياض الكلا المقصوص والمشب للسوى ، قد تكاثرت  
زهرها حتى راح يطل في جوف الكوخ من خلال نوافذه . ثم ترى تحت  
وآراف السقف أدوات الفلاحة مكومة على أجل نظام لوقيتها من المطر ،

(١) قائد من عطاء تولد الرومان و زعيم من حصار زمامهم اعتزل الحياة العسكرية  
والسياسة في أغريات أبله واعتكف في مزرعة صغيرة له

وحدة مقاعد نظيفة لو رآها ملك متوج لثنى أن تكون له ولاشتى أن يضطجع عليها ذات ليلة من ليالى الصيف ، مبرا من أكدار المهوم ، منغمسا في صفاء النسيم .

« في ذات عشية ساجية الأصيل ناعمة النسيم ، وقد توارت الشمس عن أهل القرية ، وإن كانت لا تزال تسبح مشرقة باهرة في أبراجها الملوية ، دخل ذلك المش الأدبى الظليل انسان غريب الهيئة ذو وقار وهيبة . فلم على ساكنيه ووقف حيالهما وقد عرتهما دهشة ، وكان ملتفعا بعبادة سابغة ففشر طياتها وهو لا ينبس ببنت شفة ، وأخرج منها سلة تفشاها رقعة خضراء من الديباج الفارسي ، ثم قال ( يا أهل الخير والتقوى انى أضع بين أيديكما ودبة لا تقوم بضمن قابذلا في صياتها والاتقاع بها كل عناية ورعاية واعلما أنه سيكون يوم تطالبان فيه بردها فتباين على ما أسلفتما أحسن الثواب ، أو تماقبان أشد العقاب ) ، قال ذلك بصوت جلى جهورى لا ينسأ السامع آخر الدهر ، ثم انسل في خفة وخفوت . وما كاد أندريا وزوجته يفيقان من الحيرة ، وعسحان عن عيونهما نظرة الدهشة ، ويبحدان من الوقت متسمعا للسؤال أو الجواب حتى كان الغريب قد اختفى عن النظر ، في أسرع من لمح البصر ، فنظرا في خارج الدار عليهما يقفان منه على خبر ، فوجدوا السكون سائدا وباب الحديقة مغلقا . ولم يكن في كل ما يحيط بالبقة شئ ينم عنه أو أثر يدل عليه وقضى الأمر في ثوان معدودات وفي غيبس الشفق وسكون المساء في غير عنف ولجة ، بل بكل رفق وتؤدة ، حتى خيل صاحب الدار وزوجته أن الأمر كله خدعة من خدع الوهم ، أو زوردة من غف ، لولا أن السلة ذات الرقعة الخضراء كانت لا تزال قائمة على المائدة

تنظر بالعين وتلمس باليد ، وما عهد قط أن وهما أو طيفاً حمل مثل ذلك الحمل .  
فبادر الزوجان الى فحص السلة ومعهما شمع موقدة ، فرضا النطاء الأخضر  
لينظرا ما حوت من كثر قفيس ، فلم ترعهما درة يتيمة ولا ملسة نخمة ، بل  
طفل غض الأهاب أحمر اللون نائم بين لفائف ناصنة من الرغب الناعم  
والخز الوثير ، والى جانبه صرقتن الدنانير لم يشهر للملأعة ما فيها . ووجدا  
أيضاً شهادة التعميد ولكنها مطموسة كلها غير الاسم ، ولم يكن مع  
المولود شيء غير ذلك من الوثائق أو الدلائل .

« وما كان التعجب والتخمين ليجديان ، في ذلك الأوان أو بعد ذلك  
الأوان . فقد اتقضى الغد وتاليه ولم يسمع عن التريب أدنى خبر ، لافى  
القرية ولا فيما جاورها . وفى أثناء ذلك كانت المسئلة الكبرى التى تواجه  
أندريا وزوجته (ماذا يصنعان بهذا الطفل النائم الأحمر اللون ؟) فقر رأيهما  
بين البهشة والتعجب على التكفل به وإرضاعه حتى يبيض لونه ، بل حتى  
يكبر ويشدد أزره اذا استطاعا الى ذلك سبيلا . وقد أمدحها الله فيما حاولا  
بمونه وتأيدته . وهكذا أتبع لتلك المجهول الأصل أن يأخذ من هذا العالم  
مكانه ، وهامو الآن بمد أن امتد جسمه طولا وعرضا ، واتسع علمه بالأشياء  
خيراً وشرّاً ، قد أصبح معروفاً بين الناس باسم الهر ديلاجونيس تيوفلسدروخ  
أستاذ « علم الأشياء كافة » فى الجامعة الجديدة بمدينة وستشستر »

وهنا يصرح الفيلسوف بأن أول علمه بهذا السر كان عن لسان الصالحة  
جرشن فترال فى الثانية عشرة من عمره ، ذلك حيث يقول :-

« وقد غادر هذا النبأ فى قلبي الصغير أثراً لا يمحوه كرايم ومرالبالى ،  
وجملت أسائل نفسى : ترى من كان ذلك السيد المهيّب ، الذى أنسل الى

الكوخ والشمس جانحة للغروب ، ثم انلس منه املاس الخيال في الفضاء ؟  
وقد تملكني منذ ذلك الحين شوق لا يوصف وحنين ممزوج بالحزن والوله  
الى معرفة الحقيقة . وما زلت كلما تأو ببنى الهوم والاشجان ، وأوحشتني العزلة  
والقطيعة ، اتجه بمخيلتي لتقاء ذلك الوالد المجهول الذى ربما كان قريبا مني ،  
وربما كان بعيداً عني ، وهو في الحالتين غير منظور ، فأتلطف على لقائه كيما  
يفضني الى صدره الحنون ويحميني هنالك من لواعج الآلام ... أيها الوالد  
المحبوب أفلا تزال تروح وتندو بين زحام الاحياء لا يفصلك عني الاستار  
شفاف رقيق من الغشاء اللصقاني ، أم تراك قد أسدلت بيني وبينك تلك  
الاستار الصفيقة - أستار الليل السرمدي ، أو لعلها أستار النهار الابدي ،  
التي عبثا ما أحول ان استشفها بنظري أو أتمذفها ذراعي ؟ وياه ! وياه !  
لست أدري وعبثا ما أحول أن أدري ! لعلنا حدثني قواصي المذموم انك  
هذا الغريب النبيل أو ذاك ، حتى اذا دنوت منه أضمن فيه النظر وأقرس  
منه عاطفة الخنو نأى عني بجانبه ، فاعلم انك لست به »

وهنا تأخذ الفيلسوف بمض نوباته الفجائية فيصبح قائلاً « ومع كل  
هذا خبرتني أيها الانسان المعروف الأيون : بماذا اقردت حالتني عن حالات  
سائر الناس ؟ أتحسب انك تعرف أبك أكثر مما أعرف أبلي ؟ ان آدمك  
وحوايك اللذين جاما بك الى هذه الحياة حيث لبنا حيننا من الدهر يرضعناك  
ويريانك والذين تدعوهم أبويك ان هما بالنسبة لك الا كاندريابو جرتشن  
بالنسبة لي : مجرد مرضعين ومرييين ، اما أصلك الحقيقي وأولك في السماء  
لا يرى بعين الجسم بل بعين الروح »  
ثم يستأنف الاستاذ قصته : « ولا أزال محتفظاً بالمتاع الاخضر وأشد

من ذلك احتفاظي بالاسم: دياجونيس توفلسدروخ. فلما القناع فلا سبيل الى استنتاج شيء منه ، وما هو الا قطعة بالية من الحرير كالأنوف من أمثالها. وأما الاسم فكثيرا ما أجلت فيه الروية ، ولكنني لم أقف منه على دلالة اعتدى بها الى الحقيقة المنشودة .

« وكأني بك تعجب من قولي هذا أيها القاري. ولكن مهلا ! اني ما زلت أنظر الى الاسماء نظرة الكبار واجلال ، قلن فيها من عميق المعاني مالا يحظر لك يال ، وما الاسم الا أول رداء ترتديه النفس ساعة قدومها الى هذه الحياة ، ثم لا تزال متشبثة به حتى يكون لها أبقى من أهابها وأدوم ، فانا لنعرف من الأسماء ما عمر نيفا وثلاثين قرنا. الأسماء وما أدراك ما الأسماء ! أما لو استطعت أن أريك خفي تأثيرها وبميد قودها لأريتك العجب العجيب ! ليس مجرد الكلام المعتاد بل العلم كله ، والشعر ذاته ، كلاهما لا يمدو كونه تسمية صائبة . لقد كان أول ما فعل آدم في هذه الحياة أن تلم الأسماء : أسماء الظواهر الطبيعية ، فسرك الله ماذا نحن فاعلون حتى اليوم الا مواصلة ما بدأه ، سواء أ كانت تلك الظواهر زراعية أو عضوية أو آلية أو فلكية (وذلك هو العلم) أم كانت وجدانات وشهوات أو فضائل ومكرمات. أو كوارث وآفات (وذلك هو الشعر) ؟

« في أثناء ذلك كان الرضيع ، وهو في باكورة عهده بالحياة وفي جهله بكل ما أحاط به منها ، قد أخذ يفتح عينيه لكريم النور وشرع يمدجوارحه ، ويتلمس بأطرافه ، ويتسمع ويتذوق ، ويحس ويشعر ، وجملة القول أنه جعل يستعين بحواسه الخمس أو إذا شئت فزد عليها حاسة التلجوع وقل بحواسه الست ، مع ما لا يحصى من الحواس الروحانية الباطنة ، تلك التي قد اخلفت تنبيه في

نفسه ، عاويلا بكل ذلك أن يعلم شيئاً عن هذا العالم الغريب الذي نزل به ،  
كائناتاً ما كان واجبه فيه . ولشد ما كانت سرعة تقدمه ، فقد استطاع في  
بضعة عشر شهراً أن يؤدي تلك المسجزة السجينة : معجزة الكلام . عجبوا الله  
أليست تربية الروح النضة أشبه شيء بتربية يضة (سماوية) غضة ،  
كل ما فيها لا يزال عديم الصورة عديم القوة ، ولكنها لا تلبث حتى تنبت  
بالتمريج في زلالها المائي عناصر عضوية وألياف حيوية ، ثم تري غامض  
الاحساس يتخض عن الفكر فالتخيل فالتقوة ، ومن ثم تنشأ المبادئ والفلسفة  
والأسر الملوكة بل القصائد الشعرية والمذاهب الدينية !

« الى هذه العايات القصوي جعل ديلجونيز الصغير يتقدم بخطوات لينة  
حديثة . وقد أراد آل فرال ، ان يتقيا القيل والقال ، فاشاءوا في القرية ان الرضيع  
يمت اليهما ببعض صلات القرابة مانت عنه أمه فارسله اليهما أهله ، إذ كانا هما  
أحق الناس بكفالتة . وجعل الرضيع يتغذى ويتزعرع ، غير مكثرت  
لشئ من ذلك . ولقد سمعت بعض أهل القرية يقول أن الطفل كان هادئاً  
ودبماً قليل الكلام قليل الحركة ، وأنه لم ير البتة يصيح أو يبكي . لا غرو فانه قد  
بدأ يشعر بأن الوقت عتيق ، وبأن لديه من المهام مالا يسمح له بالمويل أو الأثين ! »

## الفصل الثاني

عمر 'القرنة'

« ألا سمالك النيت باعهد الطفولة ورعائك الله يا زمن الصبا ! وأنت أيتها  
الطبيعة العارضة هل كنت الأما رو وما لجميع هذا الخلق ، تزودين كوخ الفقير  
بساطع ضيائك ، وبارح لألائك ، وتلفين وصيماك الضعيف بلقافة لينتمن وغير  
الحب وسابغ الامل ، فلا يزال في اثنائها ينمو وينلم ، ترقص حوله مفرحات

الاحلام ؟ ولئن حببنا لاذ ذلك دار الأبرار بين جدرانها ، فإن لنا فيها لمقلا ومأوى ، ولنا من الوالد بنى واملم ، ومؤدب وسلطان ، تلقى اليه من الطاعة ما يهدى اليها نعمة الحرية ، وتؤدى اليه من الخشوع ما يقينا ذل العبودية .  
يومئذ تكون الروح الصغيرة حديثة العهد بالتوقف من البداية ، فهي لا تعرف معنى الوقت ، ولا تدري أنه ذلك التهر الجروح ، ذو التيار الطموح ، بل تراه مجرداً فسيح الأرجاء ، يلعب الموج على متنه ، ويتكسر الشعاع على ثيجه . تمر السنين على الطفل كأنها احقاب ، ذلك بان تصرف الدهر لا يزال سرّاً مكتوماً ، وعوامل البلى ومعاول الفناء - تلك التي لا تنفك تقدح على عجل أو مهل في هيكل الكون من صخره وموانه الى حيوانه وانسانه الى هوامه وديدانه - لا يزال أمرها غفياً ، وأثرها مطوياً . هنالك نذوق من حلاوة الراحة في ذلك السكون القريب ، والعيش النرير ، ما يحرم علينا بعدها مذاقه متى انكشف لنا العالم عن جليلة أمره ، فقلنا أنه تلك الرحي العنيفة الحركة المستمرة الدوران . ألقم حينئذ أيها الطفل الجليل ، فما قليل يؤذن مؤذن الرحيل ، ويسار بك في رحلة شاقة وسفر طويل ! أجل - ان هي الا لحظة حتى تحرم لغة هادئ ، النوم ، وحتى تنقلب احلامك المفرحة خيالات مزعجة لما تنانیه في يقظتك من مر الكفاح وعنيف الجهاد . نعم سوف تقول كما قال الاول في صبر وجلد : ( أي حاجة بي اليوم الى الراحة ، والأبدية كلها أملئ وفيها من الراحة ما يكفيني ؟ ) أها السلوان للريح ! هذا يبروس قد فتح الممالك ودوخ الاقطار ، وهذا الاسكندر قد ملك الارض ودانت له الامصار ، ومع ذلك فقد اعجزتها مثالا ، ولم يستطيعا لك راماً ، ثم نراك تأتي من تلقاء قسك وبمحض هواك فتقع على اجفان الطفل نوماً

نميا ، وتترك في فؤاده روحاً هنياً ، ذلك بأن النوم واليقظة عنده سريان ،  
وجنة الحياة الضاحكة تمتد حوله الى غير نهاية في حفيف أوراقها الناعمة ،  
وتمايل اغصانها اللائعات ، تبقى بذكي الأرج أقاسمها العلة ، وتنظر  
عن براعم الأمل أفنانها الخضلة ، تلك البراعم التي إن قمتحت في عهد  
الشبية عن نوارها الغض فلن توثق في عهد الكهولة قطوعاً جنية يائسة ، بل  
ثمرة صلبة شائكة ذات ثغرة صفيقة الغلاف مره اللذاق لا يهتدي إلا الأفلون  
الى لبابها وشحمها !

من خلال هذه الاوار البهية والاضواء المتألثة ينظر الاستاذ الى  
عهد طفولته شأن الشعراء . ثم تراه يفيض في تفاصيل ذلك العهد بتدقيق  
واسهاب يكاد يبلغ حداً لا ملل ، يتنقل كل هذا قطع خطاية ونبد شمرية ،  
ثم وصف منافي صباه ومهادلهوه . فن ذلك وصفه للدوحة التي كان يختلف  
اليها أهل القرية كل عشية فيجلس الشيوخ في ظلها يتحدثون ، ويضطجع  
الى جانبها العمال المتعبون ، ويظل الاطفال النشيطون يمرحون حولها ويلعبون ،  
وبروح الفتيان والفتيات على ايقاع الموسيقى يرقصون ويتنازلون ، وذلك  
حيث يقول « فيالها من أصائل ناعمة ، إذ يعم السكون وتخفت الاصوات ،  
والشمس قد ولتنا ظهراً وجنت للعيب ، كأنها ملك أصيد مهيب ، على  
اصطافه أرجوان الملك مزخرفاً فاخر المقيان ، وحوله موكب حرسه  
مؤلفاً من بدع الالوان . وقد أمكنت الفرصة عمال هذه الارض من  
اجتلائح لحظة يستريحون فيها قليلاً ، بعد كد النهار وتعبه ، ويطهون يسيراً ،  
غيب عنه اليوم ونصبه ، على قمة بأن تلك النجوم الوديمة الرفيقة لن تشي  
بهم ولن تم عليهم »



ثم يقول الاستاذ على ذكر ملاعب صباه وأنت إذا تأملت في ألعاب الأطفال ، حتى ما كان منها كله اتلاف ، لرأيها جميعاً تنم عن غريزة انشائية ، مما يدل على أن الطفل يشعر بأن وظيفته في الحياة هي العمل والانشاء . وأحب الهدايا إليه آلة أو أداة من أى نوع كانت ، للهدم أو البناء ، للتدمير أو التخریب ، فاتها على كلا الحالين صالحة للعمل والتنمير . ثم تراه باشتراك مع أترابه في اللهو يمرن نفسه على التعاون والتضامن ، للسلم والحرب ، للطاعة والامر .

« ولقد كان من أوقع المناظر في نفسي أن أشاهد الراعى في الصباح الباكر ينفخ في بوقه ، فتوارد إليه من كل حذب وصوب تلك الاغنام الجائمة السعيدة ، تتعاضد وتترافض بحثها أمل القطور ، بالرعى النضير . ثم تراها وقد آبت في الرواح كأنها تسير على نظام عسكري ، يفصل كل منها عن رفاته ، متجهاً يميناً أو شمالاً الى زقاقه ، لا يخطئ مرماء ، ولا يشتبه في مأواه ، حتى اذا وصل الراعى الى نهاية القرية ولم يبق معة من القطيع بهيمة تقف في البوق آخر قفزة وعاد الى بيته . لقد اعتدنا معشر البشر أن نحجب الغنم في صورة الشواء والتقدير ، والحصر والتقييد ، ولكن أليس فيما تظهره هذه السجايا والمرحة من الفطنة والذكاء والميل الى العناية والمزاج وحسن الطاعة والثقة بالإنسان ما هو جدير باستنارة العطف والمحبة ؟ »

ينهب فريق من الفلاسفة الى أن الناس جميعاً يولدون متكفلياً الموأهب لافرق البتة بين ذكيتهم وغيبيتهم ، ورشيدهم وغبوتهم ، وإنما هي ظروف عجيبة ومؤثرات مدعشة تصادف ذلك فتفتح ملفه من قوي وموأهب وتخطئ هذا فيظل منلقاً مطوراً ، ويميش دهره مخفلاً غيباً . ذلك - على زعمهم - هو

السر فيما تراه من البيون الشاسع بين المبقرى النافع والأبله اللائق ، احدهما قد لقيت نفسه من كريم الظروف ما غلما ورقها حتى زكت وترعرعت ، والآخر قد انسحقت نفسه بتأثير قواه الحيوانية وضغط آله الهضمية ، فهي إما قد تبخرت وانغسلت ، وإما قد غاضت إلى قرار معدته فاستقرت هنالك في غمرة لا تيقن منها . هذا مذهب القوم . أما صاحبنا الاستاذ فيري غير ذلك حيث يقول « لأسهل على من الاخذ بهذا الرأي أن اوافق القائلين بأن بذرة الكرنبة اذا لقيت تربة كريهة ومناخاً صالحاً قد تصير سنديانة رائحة ، وإن بذرة السنديانة اذا منبت بظروف سيئة من مناخ فاسد وتربة سبخة قد لا تثبت الا كرنبة مشوهة .

« يدلانى لست أنكر ما للترية والتهذيب في باكورة الحياة من بليغ الار ، فانه على صلاح الترية اوفسادهما يتوقف مصير بذرة الكرنبة كرنبة ممثلة ورقة ناضرة أو كرنبة جوفاء صفراء ذابلة ، ومصير بذرة السنديانة سنديانة باسقة غليظة لفاء ، أو سنديانة قصيرة نحيفة عجفاء . لهذا كان خليقاً بكل انسان ولا سيما معشر الفلاسفة والحكماء ان يدونوا بالدقة كل ما احاط بتربيتهم من الظروف الخاصة ، ملائمة أو مما كسة ، منشطة أو مشطبة . وقياماً بهذا الواجب اذكر الامور الآتية من جملة ما كان له في قسمي وقع واثار :  
« كما أن الملامى الصبانية تمت في الطفل الذكاء والنشاط كذلك كانت القصص والاحاديث التي طالما سمعتها من الاب اندريا تستثير في نفسى ملكة الخيال الوحب التاريخ . ولشد ما كان شغفى بتلك الروايات والاحاديث إذ كان جيراننا يلتفون حول الموقد كل عشية . وينصتون الى الراوى بأذان صاغية وقلوب واعية وأنا بينهم مقبل عليه ، متوجه بكل جوارحى اليه ، يخيل اليّ انه

بطل من أبطال الاساطير وأن ملاكاه في اسفاره من حوادث وغاطر كان في عالم وهمي بعيد. وكلما أمعن في قصصه فتحت في قسي ملكوت الخيال واتسعت بين جنبي أقطار الوم. كذلك ما كان أكثر ما نلت واستغدت يوقوفي الى جانب شيوخ القرية تحت ظل السوحة . لقد كان عالم اللانهاية لا يزال كاه جديد آفي نظري ، وهؤلاء الشيوخ المبعجلون الثرثارون أولم يقضوا ثمانين حولا يفرصون جانباً من فضائه، ويمسحون طرفاً من فئائه ؟ ولشد ما كانت دهشتي إذ جعلت اتين أف قرية انتبھل قائمة وسط قطر بعيد الارجاء وفي وسط دنيا شاسعة الانحاء ، وأن هناك شيئاً يسمى التاريخ، وأنى أنا أيضاً لابد أن أؤتى يوماً من الايام نصيبي منه باللسان وباليد .

« على هذا النحو أيضاً كان تأثير عربة البريد في قسي . اذ كنت أشاهدها تتخلل القرية ذهاباً وأياباً تنوء بما عليها من جبال الامتعة والرجال . وما خطر ببالى حتى بلغت سن الثامنة أن هذه العربة كانت شيئاً يختلف في جوهره عن قر ارضي يشرق ثم يغرب بمجرد فصل التواميس الطبيعية شأن القمر السماوى . فإكان يمر يومى انها تسير على طرق مصنوعة، متنقلة من مدن بعيدة الى مدن بعيدة ، كأنها وشيعة الحائك تحكم ما ينهمن صلات المعاملة وروابط المبادلة . عند ذلك خطر بفسكرى ذلك الخطاطر العميق وهو أن أى طريق - وليكن طريق هذه القرية المتواضعة - يفضى بك الى آخر الدنيا !

« ثم اذ كز اسراب الخطاطيف ، تلك التي كانت تتوافد كل ربيع من اقصى أفريقيا كما اخبرت ، جاثبة في طرقها الاغوار والانجاد ، والسهول والاطواد ، والقفار والبحار ، والملائ والامصار ، حتى تنتهي الى كوخنا قنبنى

هنالك أوكلاهما حيث تقيم آمنة مطمئنة، تطير وترفرف وتغزو وتتردد وتتناسل  
وتقرخ . من ذا الذي علمك فن البناء إتباع الطيور المرحلة الرشيقة ؟ بل من  
ذا الذي علمك سر التضامن في ملعو أشبه بجمعية ماسونية بل هيئة اجتماعية ؟  
ألم اشاهدك مراراً كلما تهتم وكر لاحد افراطك وأعجله الوقت عن الانفراد  
بينائه تسارعين في صبيحة الندى معاوتته، فلا تزالين في جيئة وذهاب، وحركة  
واضطراب، وغدور وروح، وقرقرة وصياح، حتى لا يمسى المساء إلا وقد  
تم بناء وكره.

« وهكذا لبث الطفل يتعجب ويتعلم وسط هذا الكون الحافل  
بالأسرار، تله الأرض الطائحة في وسيع الفضاء، وتظلم القبة العميقة الزرقاء،  
وتقوم في خدمته الفصول الأربعة النهمية، تتقدم اليه على التوالي بمختلف  
هداياها ومطايها، ومتنوع ملاهيها وملاعبها . وما كانت هذه المظاهر  
والظواهر الا حروف الهجاء التي كان يجب على الطفل أن يتعلمها حتى  
يستطيع قراءة ما يتيسر له من ذلك السفر الجليل - سفر الحياة . فسواء  
عليه أكانت هذه الحروف مكتوبة بالخط الكبير المذهب، أم بالخط  
الصغير غير المذهب، ما دام قد أوتي عيناً بصيرة تستطيع قراءتها . على أن  
دياجوريز الصغير كان لفرط شغفه بالتعلم يحذف في مجرد النظر إليها من النعيم  
واللذة ما يقوم مقام التذويب والترصيع . لقد كانت حياته كلها عنصراً مشرقاً  
لينا من الفرح والنبطة، وكانت عجائب الكون تبرز له الواحدة تلو الأخرى  
وتعلمه الحكمة في مرض الفتنة.

« على أني أكون هاذيكاً مبطلا اذا ادعيت أن سمادتي حتى في ذلك  
الآن، كانت سليمة من النقصان . فواقع أني قد غادرت السماء، وهبطت

الى الأرض دار الحنة ومنزل البلاء . فكنت أرى بين طيات أقوالى  
غزخ ، تلك التى ما برحت تزخر فى أطرافى وتزين مدى بصري ، حلقة  
سوداء من الهم لم تقارنى حتى فى عصر الطفولة ، وإن لم تكن بادىء بدء  
أنخن من الخيط اللطيف ، بل كانت أحياناً نمرها بهجة الألوان وبسرتها  
رواق الأنوار فتختفى اختفاء تاماً . بيد أنها ما فتئت تعود فتظهر بل تزداد  
على مر الأيام اتساعاً وانتشاراً ، وانضاحاً واشتجاراً ، حتى أوشكت فى سنى  
اللاحقة أن تطبق بسوادها سماء حياتى ، وحتى آذنت أن يتهمنى منها ليل  
مقيم الظلام ، مطموس الأعلام . تلك الحلقة هى حلقة الضرورة التى تحيط  
بنا جميعاً إحاطة السوار بالمعصم ، بل إحاطة الادم بالقدم . فطوبى لمن أشرقت  
له شمس سماوية كربة فجعلتها حلقة للواجب تنعكس عنها الأشعة الباهرة ،  
وترقص حولها الأضواء الزاهرة . غير أنها على كل حال باقية مقيمة لا يزال  
منها حياتنا أساس مكين ، وسياج متين .

« فى السنين القلائل الأولى من مقامنا فى مصنع الحياة لا تكف تأدية  
عمل كثير ، بل يقام بأطعمتنا وإيوائنا بغير مقابل ، وجل ما يطلب منا أن  
نلاحظ ما يجرى حولنا فى المصنع ، وأن نتأمل الصناع وهم يعملون ، حتى  
ندرك شيئاً عن ملهية الآلات ، ونستطيع تلمس هذه أو تلك من الأدوات .  
وإذا كان المراد من الترية هو إنما الجانب اللامع دون الجانب المتعدي من  
النفس فلقد كان حظى منها فوق ما يرام . إذ كنت قد نلت من أسباب  
الانماء والتهذيب ما لا مزيد عليه لمستريد فى كل ما يتعلق بلبن الطبع ورقة  
المزاج وحسن التطلع وصدق الاحساس . بيد أن الامر لم يكن كذلك

من الوجه الآخر ، فإن الجانب التمتع من قسي قد ظل مقيداً معطلا ، ولا أزال حتى اليوم أأثني من هذا النقص وخيم عواقبه . وذلك أنني نشأت في بيت جبل أهله على حب النظام وكرهه كل ما يشوشه ، لا سيما عبث الاطفال . فلا جرم أن تكون تربيتي مقرونة بالشدة ، والواقع أنني كنت مقيداً بكثير من ضروب التحريم ، لا أكاد أبيع لنفسى الاسترسال في رغبة من الرغبات ، أو الاستمتاع بشهوة من الشهوات ، إذ كنت كلما هممت شعرت بأن حلقة ضيقة من الطاعة قد ضربت على نطاقي ، وشد حولي وثاقها . وكذلك كنت أبشر ، وأنا في نعومة أظفاري ، آلام اصطدام الزادة بالضرورة ، فتنهز دموع العين وتنشب في حلق مرارة ذلك الجذر المشتبك بثمار الحياة اشتباكاً لا انفصال له .

« على أني أعود فأقول أن الافراط في تعود الطاعة هو بلا نزاع أدنى إلى الصواب من التفريط ، والغلو فيه أقرب إلى الرشاد من التقصير . فالطاعة واجب عميم ، وفرض محتوم ، والمرء في ذلك بين امرين : إما أن يطاوع فيمنطف ، وإما أن يمانع فينقصف . فلا رأي الله بعد اليوم اندب حظي من الترية ، بل أخلق بي أن أروح بما أصابني جذلاً منتبطاً . لقد كانت تربيتي مقرونة بالتقير والشدة والمرارة والعزلة ، مخالفة من كل وجه لأصول العلم ، ولكن الأيحموز أن نفس هذه الشدة والعزلة والمرارة كانت هي التربة الصالحة لأنماء جنود الجد والاخلاص ، وانبات تلك الشجرة الكريمة التي تبني منها كل ثمرات الحياة وأطيابها ؟ وكيفما كان الامر ومهما كانت تربيتي مخالفة لأصول العلم ، فلقد كانت صادرة عن محض المحبة وحسن النية وشرف القصد ، وفي هذا ما يكفي لسد كل خلة وأصلاح كل عيب . وما أنس لأنس ما كان لأخي

الشفقة الطيبة - السيدة جرتشن - من جزيل الفضل علىّ ، فقد علمتني بصالح الاعمال ، دون الأقوال ، وبفضيخ الالحاظ ، دون الالفاظ ، ماقيمهم من العقيدة الدينية . وكانت رقيقة الاحساس تحية خاشعة . فيالله كيف كان تأثير ذلك في نفسي ! لقد كنت أري أعلى من أبطه في الارض ساجداً في خشوع وخنوع بين يدي من هو أعلى منه في السماء ! إن امثال هذه الامور - لاسيما في غضاضة الطفولة - تتخلل الى صميم القلب ، وهناك تنشأ من عاطفة انخوف عاطفة الاجلال وهي أقدم ما يخلق في صدر الانسان . أتفضل أيها القارئ أن تكون ابن فلاح تعرف بأى شكل هما كان غير مهذب ان في الكون وفي الانسان آلهاء ، أم تؤثر ان تكون ابن أمير لا يعرف إلا الاسماء كلاب الصيد وشارات خيل السباق ؟ »

## الفصل الثالث

### عمر المدرسه

ينظر الفيلسوف الى العهد المدرسى من حياته نظرة المستخف غير المحتفل ، ويرى في زهيد ما تعلمه بالمدارس ما لا يستحق ذكرا ، وذلك حيث يقول « لقد تعلمت في المكتب ما تعلمه سائر الاطفال ، ثم ابقيته مدخرأ في ناحية من رأسى ، لا أدري بمد سبيل الانتفاع به . وكان معلمى رجلا بائساً مستضعفاً مستذلاً ، كسائر ابناء طائفته . وجل ما استفدته منه استكشافه أنى من اصحاب البقرية ، وأنى جدير بالنبوغ في فنون العلم والادب ، وانه ينبغي ارسالى الى المدرسة فالجامعة ، »

لقد عرفنا الآن أن معلم المكتب كان صادقاً في نبوته . والواقع أن

حيا جونيذ الصغير كان، على ظاهره سكونه واقتباضه، وصمته واحتجازه، لا يزال يدي من وادر القطن المستمرة ما يتم عن نفس مفكرة تتوقد شاعرية، وتطلب لودعية. والأخبرني، ناشدتك الله، متى صادف الناس فيما صادفوه غلاما في الثانية عشرة من عمره يخطر بباله مثل هذه التأملات الرائعة: «في ذات يوم وقد جلست على ضفة الندير انصت الى هدير تياره، واناأمل في تدفقه واحمداره، والكون مستغرق في سكون الهجيرة، ثم بذهني فأدهشني ان هذا الندير بعينه ما يرح بهد ويتدفق على قلب الزمان، وتصرف الخلدان، من قبل ان يثاق فجر التاريخ والدمع لا ينفك غض الاهاب، والدنيا ناضرة الشباب - ثم في نفس الهجيرة التي عبر فيها قيصر نهر النيل ساجحا كان هذا الندير يسيل في البرية، لم يطلق عليه اسم، ولم تقع عليه عين، بل لعله كان يجري جريته هذه يوم عبر موسى البحر بقومه ناجيا من غضب فرعون. على ايها الانسان! انك لتجد في هذا الجدول الصغير ما أنت واجد في الفرات أو النيل: شربانا أو عرقا من تلك البورة المائية العظمى التي تتخلل كيان هذا العالم الارضى وما برحت ولن تبرح تلازمه منذ نشأته من العدم الى يوم رجعت الى العدم. اياها الاحق! تأمل في الطبيعة واعجب من عراقتها في القدم. أن هذه الصخرة التي أنا جالس عليها تعد من السنين نيفا وستة آلاف عام، الا يلح القارى في هذا الخاطر البسيط - الذي كان ينبوع صغير - مبادئ تلك التأملات السامية التي تتخلل فلسفة الملابس عن روعة الزمان وعلاقته بالابدية؟ ثم بأخذ الاستاذ في وصف أيلمه بالمدرسة وبالجامعة، ولكنه لا يذكر لها من طيب اليهود وجميل الذكريات ما يذكر لا يلم طفولته. وهي، وان كانت لا تتخلو من بقع شامسة خضراء، فانها مملوءة بغدران النموع المرة،



ومناقع التبرم للقرّة . وذلك حيث يقول « بدأت أيام نحسى ، واستهل عهد شقائقى ، منذ وقت عني على المدرسة لأول مرة . ولشد ما أذكر ذلك الصباح للشرق اذ جعلت أعدو بجانب الأب أتندوا غملا بنشوة الأمل والجنل ، حتى دخلنا الشارع المفضى الى المدرسة ، فلذا كلب صغير قد ربط بذيله أحد الأشقياء من الصبية وهاء من صفيح ، فاندفع ينهب الأرض نهبا وقد طار القزع بله . وكذلك جعل هذا المسكين المتألم يحوس خلال القرية طولا وعرضا ، محدثا من الصنب واللجب ما لفت اليه جميع الانظار ، وحصله أشهر من علم في رأسه ناز : ذلك لمر الحق مثال دقيق ورمز صادق لكثير من أبطال الحروب ، أولئك الذين قد علّق بهم القدر الخيبت صفيحة صاخبة من الأطماع لا تزال تسوقهم سوقا ، وتطردم طردا ، فكلما لجوا في الركض والشد ، لجت هي في الصنب والطردا

« وتلفت فاذا الحى ألقى نحن فيه سا كنون قد اختفى على مدى البصر ، واذا نى بين قوم غرباء ، لا يرقون لى ولا يعطفون على ، فأحسن القلب الصغير لأول مرة أنه في هذا العالم يتيم وحيد »

وكان رفاقوه في المدرسة كما هو المتاد يسبتون اليه ويضطهدونه وذلك حيث يقول « كانوا كلهم صبيانا ، وكان أكثرهم جفاة الطباع غلاظ الاكباد ، يسرعون الى اجابة داعي الطبيعة القظة التى تأمر قطع النزال أن ينقض على الظلية المستضعفة ، وتعرض سرب البط على قتل رفيقها المبيض الجناح ، وتغرى كل قوى في هذا العالم باهتضام الضعيف المستكين » وهو يترف بأنه وان كان من الوجهة الأدية صادق الشجاعة صحيح الاقدام فهو في المصارعة والنزال سيء البلاء ، وبوده أن يتحاشى تلك المواقف جهده

المستطلع . والظاهر أن السبب في ذلك لم يكن صغر جرمه فإنه مازال يبدى عند الغضب من خفة الحركة وشدة الوثبة ما يبعث على الدهش والاعجاب . وإنما كان الأمر عنده مبدأ وعقيدة حيث يقول « إذا كان من العار المخجل أن يخرج الإنسان من الحرب مهزوماً فجرد اشتراكه فيها عار آخر لا ينقص عن عار الهزيمة الا قليلا » وكان في ذلك المهد كثير البكاء غزير البعثة حتى لقبه أقرانه « بصاحب الببرات » . وما كان غضبه ليثور الا في الأحيان النادرة ، وعندئذ تمصف في رأسه عواصف الموجة ، ويضطرم في عينيه الحبيب الحق ، حتى يظل أشجع الشجعان من أقرانه يرتجف بين يديه ارتجافا . أما عن التحليم وأساليبه والقائمين بأمره فلا ستاذ يتكلم بتحمس يكاد يبلغ حد الغضب ، وذلك حيث يقول « وكان أساتفتي من المنفلين المتقمرين ، ليس لديهم ذرة من العلم بطبائع الانسان أو الحيوان ، كلا ولا بشئ في الوجود سوى قواميس المفردات ودفاتر التحضير . لا دأب لهم الا أن يحشروا في أذهاننا أكداساً مكلسة من ميت الألفاظ ومجلب الببارات ، ويسمون ذلك تنقيفاً للعقول وتربية للملكات . لله أبوم ! كيف نستطيع تلك الآلات الجامدة التي لا تجول فيها نسمة من الحياة ( يعنى المعلمين ) والتي لا يبعد على مصانع القرن الآتى أن تخرج أمثالها من الجلد والنشب أن تمد وسائل النمو لشئ على الإطلاق ، لاسيما للعقل الانسانى ذلك القى ينمو ، لا كما ينمو النبات ( بتسميد جذوره بالببال اللفظى ) بل كما تنمو الروح ، بالتلاصق الخفى مع الروح وهنالك تشتمل النفس من النفس ويقتبس الفكر جذوة الحياة من نار الفكر ؟ كيف يستطيع إشعال غيره من هو في ذاته بارد الجوف قد خلا من كل حجرة حية ، ولم يبق فيه الا رماد هامد من المحفوظات اللغوية

والقواعد النحوية ؟ لقد كان أساتذتي يعرفون الجمل الكثير من النحو والصرف ، ولكنهم لا يعرفون من شئون النفس الإنسانية سوى أن فيها ملكة تسمى الذاكرة ، يمكن التأثير فيها من طريق الفناء المعنوي بواسطة المصا !

« وبلاء ! تلك هي الحال في كل مكان ، وسوف تبقى كذلك على مدى الأزمان ، حتى يطرد الفاعل الآخر الخرق الحقيق ، أو يقصر عمله على حل النقيض ، ويستأجر مكانه مهندس صناع يتلقى ما يجب من التشجيع والتشيط ، ثم وحتى تعلم الجماعات والأفراد أن تنفيذ الأرواح بالعلم والعرقان لا تقل منزلة عن تمزيق الأبدان ، بشظايا القنابل وأسنة المران ، وأنه ينبغي أن يكون بجانب قواد الجيوش وبطارق الجحافل ، ممن تنحصر مهمتهم في التجميل والتذيع ، أئمة مكرمون ورؤساء محجلون تكون مهمتهم للترية والتعليم . وإنه لمن علام الفساد في هذا المجتمع أنك بينما تجد الجندي في كل مكان يعيش الخلاء متباهياً بآلة التخريب ، لا تجد المعلم قط يتباهى بآلة التهذيب ، وأكبر ظني أنه لو تجاسر وخرج إلى الملاء متقلداً عصاه متظراً من القوم أن يقابلوه بتحية الاجلال ، لما وجد منهم غير السخيرة والاستهزاء »

ويظهر ان اندريا توفي الى رحمة ربه في السنة الثالثة من ذلك العهد فابصر الطالب الصغير لأول مرة ان ظاهره مكس بالحداد ، وأن باطنه مكس بنوع من الكآبة لا يستطيع وصفه اللسان . وذلك حيث يقول « لقد اضررت له تلك الهاوية المظلمة السحيقة ، التي نطأ جيماً على قسرتها الرقيقة ، وترامت لمينه اقالم الموت شاحبة مكفرة ، تروع الناظر بسكاتها الصامتين من ام لا تحصر وأجيال لا تحصى . وأخفت ابي في البكاء

والنحيب فأوجنت لحزنها متفناً وكسرها متفناً . أما أنا فقد بقيت في  
قلبي بحيرة مملوءة بالمبرات ، تكتنفها قفار صامته ومجاري موحشات . غير أن  
الروح كانت لا تزال في عنفوان النشاط والقوة ، فأنفست تلك التجارب المظلمة . يد  
الناكرة في ثرى الحيلة ، وما زالت تنمو هنالك وتركو حتى صارت غابة ملتفة  
من الأثل والسورور ، كثيفة ولكنها جميلة ، محزنة ولكنها أنيقة ، تهتز وتعيد  
فتردد في جنباتها الزفرات المذاب ، والأين للسقطاب ، ولا تبرح الظلال  
السود غيمة عليها وإن تمت فوقها شمس الظليمة — ذلك شأنها طول  
الشباب ، واحسبها باقية كذلك لدى الكهولة ، فأني قد ضربت خيمتي في  
ظل أئمة ، وحملت القبر حصني النيع ، اتف على يابه واظفر إلى الجيوش  
التمادية ، وإلى الحياة الماتية ، متأملاً ما حوت من ألوان المذاب والمقاب  
يبحش رابط ، مستمعا إلى وعيدها القاصف بانتسامة هادئة . فيا أجباني الذين  
اضطجعت على وثير مهاد الراحة في دار الأمن والسكون ، والذين كان متعياً  
طائفي وأنتم في قيد الحياة ان أبكي عليكم ، غير قادر على إيصال المعونة إليكم !  
ويا أجباني الآخرين الذين لا تزالون مشتتين في مجاهل المأساة الموحشة  
ومفاوز المحوة للمقفرة ، تجوبون أنحاما ، وتصبنون بدمائكم حصاماها —  
إن هي إلا لحظة قصيرة حتى نجتمع . كلنا في صعيد واحد ، وحتى تأوي إلى  
صدرا أمتنا الحنون ، فنصير في مأمن وعصاة ، لا يصيبنا أذى من نير الاضطهاد  
وسوط المذاب ومرزية الأحران وزبانية الجحيم : أولئك الذين يطوفون  
في انحاء الزمان المضطرب »

في هذه اللحظة اطلعت السيدة جرتشن ريديها على جليلة امره وافهمته

ان أندريا لم يكن باللع وذاك حيث يقول « وهكذا كان يتى مضاعفاً ،  
فقد حرم عزاء الله كرى كما سلبت نعمة الملك . هنالك تلاصحت في نفسى  
عوامل الأسى والعجب ، فياروعة ما أنتجت ، وما كثرة ما أثرت ! على  
لقد ضرب ذلك النبأ بعروقه في ثرى القلب ، ثم لبث قائماً هنالك يترج  
بخطرات الفؤاد ويتواشج بهجسات الضمير كأنه الجذع الذى تنمو عليه أحلام  
يقظتى ورؤي منامى . لقد كنت منقطع النظر . وكان هذا الخطر لا ينفك  
يشعرني بنوع من السمو والارتفاع ، كما كان يشمرنى بنوع من الانحطاط  
والانضاع . ولا بدع فلعل - كما كنت نسيج وحدي في مولدى - كنت  
أيضاً نسيج وحدي في أقوالى وأفعالى ومذهبي وآرائى »

وبعد إيراد الكثير من أمثال هذه الملاحظات المبهمة يصل الفيلسوف  
أخيراً الى ذكر أيامه بالجامعة فيفتحها قائلاً :

« لقد أعيب في المثل السائر : إذا الأعمى قاد أعمى سقط كلاهما في  
اللهوى . فهلا كان يحسن بهما تقادياً من الزلل واجتناباً للعتار أن يحمدا في  
مكانهما ؟ اليس الأضراب عن الطعام والمبيت على الطوى خيراً من تناول  
الطعام المسموم ؟ أفرأيت لو أنك عمدت الى مربع من الارض في بلاد المهج  
ومفاوز التوحشين ، فسوّرتة بسياج واعدت فيه مكتبة لا بالثقة ولا  
بالحافة ونصبت على ابوابه جماعة اطلقت عليهم لقب الاساتذة وكلفتهم  
أن يتقاضوا من راعبي النخول أجوراً طائلة وأن يصيحوا ملء افواههم (هلوا)  
اسما الملا فقهه جامعة ) - اقول إذن لكنت مثلت بالجور وبالنتيجة ، وان لم  
يكن بالهيئة والمنظر ، ما يشابه الجامعة التى كنت فيها لو يكاد . اقول  
يكاد لأنه اذا كان بناء جامعتنا يخالف بناء هذه جد الخاففة ، فقد كانت النتيجة

أيضاً في الحالتين غير متماثلة ، اذ كنا نقيم لسوء الحظ لافي مفاوز المصحح ومجاهل التوحشين ، بل في غمار مدينة اوروية فاسدة ، مكروية بالسلطان ، مشجونة بالآثام ، وفي وسط جمهور لا يتخلع بمجرد النداء ورخيص المبدلات ، بل لابد من التذرع الى خدعه بوسائل اكثر تعقيداً وأبهظ ففكة .

« على انه ليس بين هذه الجماهير كلها الا ماهو سهل الانخداع متى أخذ للأمر صادق أهيته ، واعد له لائق عدته ، وان خادعها ليفيدون من الارباح مالا يخطر في بال . وأنه لمن دواعي العجب أن لا يوجد لدينا حتى اليوم شيء من قبيل احصاءات السجل والتعويه ، وأن يظل علماء الاقتصاد مكبيين على احصاء كل ماهو صغير الشأن من فروع الصناعة ، صارفين النظر عن فرع التفلق وهو أجهل خطراً ، كأن كل ما يدخل في باب النصب والاحتيال والتفج والادعاء والنش والرياء وما شاكلها من غريب المهن والاسرار ليس من الصناعات المتبعة في شيء ! فتلاهل يستطيع امرؤ ان يخبرني عن كمية ما يجمع من المال في مهتي التعليم ومسح النمال بواسطة صحيح التعليم وصادق المسح ، ثم عن كمية ما يجمع فيها بواسطة كاذب الاعلان وخادع التعويه ؟ على أنك اذا عمدت الى كل منحى من مناحي الحياة الاجتماعية من سياسة وتعليم وتأليف وتفكير وتجاره وصناعة ، فسألت عن مبلغ سد حاجة الانسان في كل منها بالبضاعة الصحيحة ، ومبلغ سدّها بمجرد صورة البضاعة الصحيحة - أعني أنك اذا تساءلت عن مبلغ حلول العمل الصوري مقلم العمل الحقيقي في كل زمان ومكان ، وبأى الأساليب والنتائج يتم ذلك لرأيت بين يديك مبحثاً واسعاً مخصباً حلقاً بالظلمات البائنة والنتائج المشرمة ، ولكم بعد لبث حتى الآن محتوم الغلاف لا تكاد تمسه غلويض الباحثين . فأذا

كنا نقدر اليوم نسبة البضاعة الحقيقية الى البضاعة المصورة سبب واحد الى مائة على المبالغ من الاقتصاد لا يرتجى بلوغها في المستقبل متى تقدم فن احصاء للنصب والبلبل فتناقصت صناعة الأكاذيب على التدرج ( كلما ارتفع شأن صناعة الحقائق ) حتى نصبح أخيراً ولا حاجة بنا اليها البتة ؟

« هذا ما تؤمل أن يتم في العصر الذهبي القادم ، أما في عصرنا البرزى الراهن فالنرى أراه في مختلف مناحي الحياة كالتهليم والسياسة والديانة ، حيث تمس الحاجة الى الجمل الكثير وحيث لا يستطيع الحصول الا على التزوير اليسير - أن البلبل قد يكون مفيداً نافعاً ككواء محمي مسكن ، وأن قابلية الانسان للانخداع ليست شر مواهبه ، واسوأ منأخه . فهب مثلاً أن الامة قد تضعضع عصبها الحربي ، أعنى انها أصبحت مفلسة قد صغرت من المال خزائنها ، وصارت جيوشها على شفا التردد فالانحلال فالتناحر ، أفلا يحسن وقتئذ أن تمتد الى ما يشبه السحر والمعجزة فتدفع لهم أعطياتهم بأوراق صورة ، وقطعهم ماء جليداً أو أطعمة خيالية ، وبذلك تسكن سورتهم ، وتبقى على وحلتهم ، حتى يتم لها تحصيل المؤن الحقيقية ؟ هذا هو ، فيما أظن وأرجح ، غرض الطبيعة لا تفعل شيئاً عبثاً - من تركيبها في فطرة منيعتها الانسان تلك الملكة المعجية : قابلية الانخداع .

« قد در هذه الملكة ما أبدعها في عملها ، وما أسلسها في سيرها ، لا تكاد تحتاج الى شيء من الآلات والمعدات ، بل هي تصنع لنفسها ما تريد من هذا القليل ! لقد كان أساتذتي في الجامعة يعيشون في أمن وخفض ، بفضل لاشيء سوى شهرة أنشئت لهم بفعل غيرهم في الزمن النابر بنير كبير مشقة ، فهي لم كطاحون متينة التركيب دائبة اللووان تطحن لهم من تلقاء نفسها ما شاؤوا ،

ولا تتطلب منهم سوى أن يجدوا دهانها مرة في كل عام . هنيئاً لهم أولئك الطحانين ! وما أسعدهم حظاً بأن الأمر كان كذلك ! لقد أحسنوا صنماً إذ لم يكلفوا أنفسهم مؤونة العمل ، فاقى كلما تذكرت الآن محاولاتهم في سبيل العمل - في سبيل ما كانوا يسمونه التعليم - امتلاً قلبي بنوع من التعجب الصامت والاعجاب الواجم .

« ولقد كنا نتباهى بأن جامعتنا من أنصار المذهب العقلي ، وأعداء المذهب النقلي ، وأنا خصوم الدماء لكل ما ينطوى تحت لواء الباطنية والصوفية . وكذلك كانت الأدمغة الخالية الصغيرة تحشى حشواً بأكداس من الكلام المريض الطويل عن رقي الأنواع وعصور الظلام وكواذب الأوهام وما شا كل هذا ، فسرعان ما تنتفخ بما يعلوها من رياح الجدل العقيمة . فما كان من تلك الأدمغة متيناً حصيفاً كان مصيره الضلال في يدهاء الشك الماجز الويل ، وما كان ضعيفاً سخيلاً انفجر ، فاستحال هواء من الزهو والنور لا تنتظر منه في المقاصد الروحانية فائدة - ولكن هوّن عليك ولا تبتئس فهذا أيضاً بعض ما قسم للإنسان وقدر . أناشكو وتنمّر لأن عصرنا هذا عصر كفر والحاد ، وأنت تعلم أن ما هو خير منه سيطلع علينا مع الغد ، بل هذه تباشيره قد لاحت منذ اليوم ؟ لقد جرى حكم القضاء بأن تماقب قترات الايمان والكفران ، كتماقب ضربات القلب انبساطاً واققباناً ، وتماقب شطرى اليوم ليلاً ونهاراً ، وأن يكون ربيع ازدهار الآراء وصيف لربيع المعتقدات سابقين ولاحقين لخريف اصفرارها واضمحلالها وشتاء انتشارها وانحلالها . على أنه ربما كان من البلية لنوى المحجبي أن يولوا في أمثال هذه الفترات القاحلة - قترات الاجاد - فيظنون



فيها يقظين عاملين، دنيين مشيحين. أما أهل النغلة والنبابة فأولئك ينعمون فيها بسبات عميق، شأن الحيوانات المشتية التي تحتاز صبرة القر في غمرة الكرى، فلا يفقون من رقدتهم إلا بعد أن تهدأ الزعازع العاصفة، وتسكن الزلازل الراجفة، وقبل الربيع الجديد إجابة لدعواتنا اللهي ومكافأة لضحايانا الموجعة يتضح مما تقدم أن تيوفلسدوخ كان ولا شك يعاني من برحاء الألم شيئاً كثيراً، يؤيد هذا قوله بعد ذلك « لقد كان الصغار الجائعون ينظرون نظرة الملهوف الى مراضهم الروحانية، فيؤمنون أن يرضعوا الصخر الامم ويستطعموا الريح المقيم. وما كنت لأقصر عن سبق الاقران في حفظ ما تلقن هنالك من مجذب المجادلات الفقية والمباحث اللفظية، والمعالجات الآلية التي كانوا يطلقون عليها اسم العلم زورا وبهتانا. كذلك ما كان ذلك الجمع الفقير من طلبة الجامعة ليخلو من بضعة أفراد يتطشون الى مناهل العلم الصحيح، فكنت استفيد من احتكاكي بهؤلاء روحان التنحس والنشاط. وكنت بحكم طبيعتي ولحسن حظي أميل الى التفكير والمطالعة متى الى الصخب والمشاغبة، فظالما كنت أنغمس في فوضى تلك المكتبة فلتستخلص من كتبها ما لا يخطر ببال حفظها. وكذلك وضمت لنفسي دعائم حياة أدبية، وتعلمت يجدي واجتهادى معظم اللغات الراقية، وكنت لا أتى طرفة عين عن المطالعة في كل الموضوعات وفي كل العلوم. ولما كان الانسان على الدوام قبلة الانسان كان لي غرام شديد باستقراء الأخلاق عن ظهر النيب، وتعرف صفات الكتاب من أسلوب كتابته، ومن ثم تكونت في نفسي اصول فكرة عامة عن الطبيعة البشرية والحياة الدنيوية: فكرة مازالت تجاربي تقيم من أودعها على مر الايام وتوسع من نطاقها على كرايالي »

كذلك يستفيد القوى من الموز والفاقة غني وثروة ، وكذلك يمشر  
اسماعيلنا القتي أثناء هيامه في الصحراء علي أنفس المقتنيات : اعني فضيلة  
الاعتماد على النفس . بيد أنه مابرح يضرب في فلاة موحشة ومغازة قراء  
نصبح بها يوم وتعزف جنة

فيتموى لها سيد ويصبح مسمم  
فلشد ما كانت تساوره أفاعي الشك ، وتناوره وحوش الازتياب ،  
ولطالما بات كما يقول « مؤرق الوساد ، نائي المهاد ، في ليل طامس الاعلام يحيط  
به من الظاهر ، وغيب دامس الظلام يحقق به من الباطن ، جاثراً بالنعاء  
يتطلب نور الهدى ، ويلتمس الخلاص من الردى ، حتى يبلغ منه الجهد وغشيه  
اليأس ، فليستلم لحكم القضاء وخر صريعاً بين يدي كابوس الالحاد ، وبات  
في أحلامه المرتاعة يحسب هذا الكون الحى البديع مجمع الالباسة وعالم  
الموتى . ولكن لا بأس في هذا جرى محتوم المقادير ، إذ لا بد للروح أن تنمى  
في مثل هذا المطهر<sup>(١)</sup> حتى تخرج منه ققيه الرذن طاهرة الذيل ، لا بد لميت  
رسوم الدين أن تعترف بموتها وتذهب هباء في مهب الرياح ، قبل أن ينطلق  
روح الدين من سجن رقائه البالى ويطلع علينا في بهائه الجديد ، حاملاً طي  
اجنته شفاء الارواح وعزاء النفوس »

فإذا أضفنا الى هذه الآلام المطهرية ، على ما بها من شدة وتبريح ، نصيبا  
وافر آمن الارزاء الارضية ، كفققد المرشد وققد المعين وضيق ذات اليد وضيق  
فسحة الامل ، وإذا اجتمع كل هذا على امرىء رث الوسائل ولكنه في شرح  
الشباب حتى الخيال الجوارح والوثاب والمطالب الطوال المراض : ألا نجد حينئذ

(١) منزلة وسط بين الجحيم والنردوس تطهر فيها الارواح من ذنوبها قبل دخولها الجنة

بين أيدينا نفساً قوية تعاني من الظاهر والباطن كرباً كبيراً ، وتقاتل من  
الخارج والداخل ضغطاً حازماً ؟ وهلا نرى يومئذ نار المبقرة تعالج الصمود  
خلال أكداس مركبة من الحطب النضير وقد طنى فيها الدخان المتكرر ، على  
الليب المستمر ؟

وما كان تيوفلسدروخ ، على فرط حيائه واتزائه ، واقتباضه واعتكفه ،  
ليغوت أنظار القوم ؛ فقد كان معروفاً لدى طائفة من ذوى المكاة والجاه ،  
وإن لم يكن يحظى منهم بشيء من المساعدة . والظاهر أنه شرع يتعلم ؛ على  
كره منه ، علم الحقوق وأنه نال الشهادة في هذا العلم ، ولكننا ندع هذه التفاصيل  
جانبا ونكتفي بالكلمة الآتية نجملها خاتمة كلامنا عن عهد الجامعة :-

« وهنا أيضاً كان تعرفى بالمر بوجود ، وهو شاب من أسرة عريقة في  
صميم بلاد الانجليز ، يمت بصلة القرابة إلى بعض ذوى المقامات في هذه  
الناحية من ألمانيا . وهذا الأمر كان بلا شك من البواعث التي أغرته بمغادرة  
وطنه والقدوم إلينا رجاء إتمام دراسته . صلة له لقد طاش سهمه وخاب فله !  
كيف يبنى الكمال في مكان لم يبق فيه أثر لفكرة الكمال فضلاً عن المجهود  
اللازم لتحقيقه ؛ ولطالما كان أحداًنا يجلس إلى أخيه فلا يزال تندب حظ الشبان  
في هذا العصر المنكود ، فنذكر ضيعة مساعي ولاية الأمور في التعليم ، وإنا  
بعد كل ما كابدها من وصب ونصب سنخرج إلى الدنيا ولم نكتسب من  
صفات الرجولة إلا هذه اللحي النابتة في عوارضنا ، فلا نحن ندرى في أى طريق  
نسمى وبأى نور نهتدى ، كلا ولا نحن ندرى بأى المقائد تؤمن وبأى المذاهب  
تقتدى . إنى لأذكره يقول « الله ما أعجب هذه الرؤوس التي نعملها فوق  
للناكب ! لقد جهزت من الظاهر بقبعات تركتها ناهيك بها حسن برق

وبهاء، ولكنها من الباطن خالية هواء ، لا تحوي الارغوة من المنطق  
الجدل والألفاظ الجوفاء . أرى الناس يتعلمون بأيسر نفقة عمل الأخذية  
فإذا تراني قد تعلمت عمله بمد تكبد النفقات الطائلة ؟ تالله يا أخى لقد أفقت  
فى المأكل والملبس منذ قدوى عنهما ما لو تجمع لكفى للاتفاق على مستشفى  
عظيم « عندئذ يكون جوانى « هوّن عليك يا صاح ! لقد أودع الانسان  
قوة هاضمة لا بد له من تشنيلها ولو بالسرقة . أما ما تقول عن سوء التعليم  
فخذار أن تريد الشر وبالا ، وإياك أن تضع ما لا يزال بين يديك من نفيس  
المصر فى وطء الشوك لانه قصر عن اجنائك التين . إن لدينا لكتباً قيمة ،  
وقد أوتينا عقولاً بها قرأ وفهم ، وإن لدينا لسماء الله وأرضه ، وقد منحنا  
عيوناً بها نبصر وندرك ! »

« وكثيراً ما كنا نخوض فى أحاديث الفكاهات ممتعة مشرفة . وكنا  
تأمل الحياة ومسرحها الحبيب يجمع بين المأسى المبكيات والمهازل المضحكات ،  
فى مناظر متنوعة المظاهر لا تخلو من مسحة الهول وروعته . بيد أنا كنا  
ننظر اليها بقلوب ملؤها الحية والشجاعة . ولعل هذه كانت أسعد أوقاتي .  
وأكلها هناء وصفوا . وكنت أوشك أن أشعر تلقاء ذلك الشاب الحمي  
القلب العنيد الرأس بماطفة الصداقة التى أصبحت اليوم من الطراز العتيق .  
ضلة لى من غي أحمق ! لقد حسبت من المستطاع أن أحب هذا الانسان  
وأن أضمه الى صدرى وأن أكون له مدى العمر أخاً وشقيقاً . بيد انى لم  
ألبث حتى أقفت على التدرج من هذا الحلم ، وحتى فهمت روح المصر  
الجديد ومقتضياته ، نم لقد أدركت أن النفس إن هى إلا ضرب من اللعة ،

وان تألف الأرواح لامعنى له إلا اجتماع الخللان على الخواص ، وان  
رابطة الأخاء ليست الا رابطة المواقلة . أما ما عدا ذلك قترهات وأوهام ،  
وسخافات وأحلام »

## الفصل الرابع

في سبل البحث عن عمل

يقول صاحب الترجمة ، والظاهر أن قوله هذا كان بُعيد تخرجه من  
الجامعة ، « وهكذا تحقق في الوجود شيء ما : أعنى أنا ، دياجونيز  
تيوفلسدروخ ، تلك الصورة المرئية الموقوتة ، تشغل من الفضاء بضعة اقدام  
مكعبة ، وتحتوى من مادی القوى وروحانيها قدر معلوما ، من آمال وخواطر  
وشهوات ونزعات ، إلى آخر ما يتألف منه ذلك الجهاز العجيب الذى يجهز به  
أعقد ألغاز الحياق وأغربها - الانسان . لقد أودعت من المقدرة ما أ كافح به ،  
ولو كفاحاً ضئيلاً ، دولة الظلام الرهيبة : الا ترى حتى الحفار الحجير يعمل  
يفأسه على اقتلاع الكثير من الاشواك ووردهم الوبيء من المستنقعات ، وبذلك  
يفتاد يسيراً من النظام حيث وجد القوضى سائدة ؟ بل وأنتك لتلقى حتى  
أحط الكائنات قد أوقى حظها من هذا النوع من المقدرة ، فالقباية التى يقتحمها  
طرف العين لا تزال تنظم ما كان من قبل غير منظم ، ولو بادغامه في عناصر  
جسمها وتحويله من مادة غير عضوية إلى مادة عضوية ، ثم هى لا تنفك  
تحدث بطينتها من الهواء الصامت المليت انعاماً حية وأن تكن من أخفت  
ما سمع السامعون .

« وإذا كان هذا شأن الذي أوتى نصيباً من القدرة المادية فكيف بمن رزق حظاً من القدرة الروحية ، بمن تعلم أو شرع يتعلم أسرار ذلك الفن السحري الأعظم ، فن التفكير ؟ انى أدعوه فناً سحرياً ولا غرو فأليه يرجع الفضل في جميع ماتم حتى اليوم من مدهشات المعجزات ، وفيما سوف يتم في مستقبل الأيام من خوارق يخطئها الحصر ونشاهد منها حتى في عصرنا هذا ما يحير الالباب . لست بذاكر ما لوحى الانبياء والشعراء من عجب المآثرات ورائع الآيات ، ولا أنا بمتعرض لوصف ما كانت تحدثه رسالات هؤلاء الملهين من خلق عوالم يحملتها وافناء أكوان برمتها . ولكني أسائل أبلد البلاد : ألم يسمع زفير الآلات البخارية يتصاعد حوله من كل مكان ؟ ألم يشاهد فكرة النحاس الايقوسى (وهى بمد ليست الأفكار آية) تسبح على أجنحة النار ، وتشق لجيج البحار ، وتصارع النوء والاعصار . وتبدى من دلائل الجلد والقوة ، وغرائب الغناء والهمة ، ما تعجز عنه اعوان السحرة ، من جابرة الجان وشياطين المردة ، فعى لا تكفى بنسج الثياب والأبراد ، وعو المسافلات والابعاد ، بل تعمل بعزعة حذاء على قلب نظام المجتمع بأسره رأساً على عقب ، وتهىء لنا بدلاً من عهد الاقطاعات وسيادة الشرفاء ، عهد الصناعات وحكومة الحكماء ؟ ألا إن الحقيقة التى ليس فيها مراء ان الانسان المفكر هو ألد خصم وأعدى عدو لأمير الظلام ، وأنه كلما أظن أحد المفكرين مقدمه سرت فى كيان الدولة السفلى رعدة الرعب والفرع ، فتتبرى للقائه من جنود الباطل فرقة جديدة ، تعلم وتماج من أساليب الكفاح ضرورياً جديدة ، علماً تستطيع اقتناصه فتعصب عينه وتغل يديه . » إلى أداء مثل هذه المهمة العالية قد دعيت أنا أيضاً بصفتى واحداً من

أبناء هذا الكون . يد أنه من دواعي الأسمى أن المرء ، مع ما يخول بأمر الطبيعة من حق إعلان الحرب على أمير الظلام وحق الفتح والامتلاء على ما استطاع من دولة الباطل ، لا يستطيع أن يحرز صولجان لزمته ويمتلي كرسي ملكه ، الا بتجشم النصب الناصب وتكبد المناء المعني »

ترى هل يقصد الاستاذ بهذه المباراة المقرة والاستمارة المفخمة شيئاً سوى أن الشاب خليف أن يلاقى مصاعب وعقبات في سبيل البحث عما يلائمه من العمل ؟ انا نستطيعك العذر أيها القارئ ، فهذا شأن الاستاذ في أساليبه وتمايزه . وبعد فلنسمع ما يقوله بعد ذلك :

« ملكوتي وسلطاني هو فيما أتج وأصنع ، لا فيما أملك وأجمع . لقد أوتى كل امرئ مواهب باطنية معينة وظروفا خارجية معينة ، يخرج منها بحسن الملائمة مقدرة قصوى معينة ، ولكن عقد المقدم ومعضلة المعضلات هي خص ملكاتك الباطنة وظروفك الظاهرة رجاء الاهتداء الى نوع هذه المقدرة الناجمة من اتحاد القوى المخلية والأحوال الخارجية . اذ الواقع مع مزيد الأسف أن الروح الفتية لا تزال تنفطر عن مقدرات متباينة فيظل المرء حيرة لا يعرف صحيحها من فسادها ولا يميز صادقها من كاذبها . هذا الى أن المرء ساعة يولد يخرج الى العالم في وقت جديد وظروف جديدة . فسيرته في الحياة لا يمكن ان تحتذى على مثال سابق ، بل لابد أن تكون نسيج وحدها . أضف الى ذلك أنه كلما تأتى الظروف الخارجية وفق المواهب الباطنية ، قرأنا اذا منحنا من الذكاء قسطا وافراً ابتلينا بالفقر أو فقدا الاخوان أو بسر الهضم أو بفرط الحياء ، أو بما هو شر من كل ذلك : الحق . وكذلك يظل المرء يتيث بين خليط المقدرات متلعسا منها ملهوها ، وملتقطا في

أكثر الاحيان ما ليس له . ويقضى الشاب الأعشى في هذا العمل الأخرق سنين عدة من عمره القصير ، حتى يعود بفضل متكرر التجارب خيرا بصيرا ، بل ربما قضى كل عمره في هذا العمل المقيم ، بين رجاء متجدد ، واخفاق متردد ، متقلبا من مسمى الى مسمى ، ومضطربا من ناحية الى اخرى ، حتى اذا بلغ سن الشيخوخة وهو بعد في غرة الحداثة عمد الى آخر مساعيه : نزول القير .

« ذلك بلا تراخ كان يكون مصير اكثر الناس ، إذ كان معظمنا من ذوى البصائر المشواء والاعين الرمداء ، لولا شيء واحد هو الذى ينقذنا : الا وهو الجرع ، ذلك الذى لا يعرف التريث ، ولا يفهم التلبث ، فهو متى دام المرء أعجله عن التردد والاضطراب ، واضطره الى سرعة الاختيار . ومن ثم رأى الناس من الحكمة وحسن التبصر أن يعمدوا للاحداث الأغرار مناهج للتمرن على مختلف الحرف ، حتى اذا سلك الشاب منهاجها لم يأت على آخره الا وقد أفرغ ما اوتيه من الكفاة المهمة العامة في قالب حرفة معينة خاصة ، فيصبح في استطاعته أن يعمل عمله في الحياة مع القليل أو الكثير من التبذير في المقدرة ، ولكن مع اتقاء شر أنواع التبذير - تبذير الوقت . وانه لمن حسن التدبير أن مثل هذه الخطة قد اتبعت حتى في الشئون المعنوية والمسائل الروحانية ، وان هيئت للمتطلمين الى الاشتغال بهزم الامور منهاج للتدرب على مختلف المهن ، لأن الصانع المعنوى لا يولد بصيرا ، كلا ولا ينح نعمة البصر بعد تسعة أيام من مولده شأن بعض الاصناف من الحيوان ، بل يظل مكشوف الرؤية زمنا طويلا ، ولقد بيني كذلك مدى العمر . بيد انه متى انحرف في سلك مهنة من المهن انطلق فيها يلف ويلجور



كفرس الطاحون ، لا يضيره ما بعينه من عشوة أو عمي ، بل تراه منشراح الصدر مثلوج الفؤاد ، يحسب أنه لا يزال يتقدم الى الامام وان كان في الواقع لا يتقدم خطوة . ثم لا يخلو عمله من فائدة أو فائدتين : واحدة لنفسه وهي إطلاعها ، واخرى للمجتمع وهي إضافة قوة حصان آخر الي القوة المحركة لطاحون الاقتصاد الكبرى . لقد أعد لي أيضا زماما ربط به الي هذه الطاحون ، ولكنني لم البث حتى تبينت أنه شناق آزم كاد يخنقني ، فبادرت الي قطعه . عندئذ وضح لي أن العالم بخذافيه أصبح بين يدي مثله كمثل محارة ، كلفت فتحها اقتدارا أو احتياجا أوتيت من حول ومن جيلة . بيد أنني وجدتها من شدة الانغلاق وفرط الاستمضاء بحيث كدت أقضي دون الظفر بينيتي ، في هذه الكفاءة تتجلى خلاصة ما كتب على الاستاذ أن يلاقيه . لقد كان هذا الشاب ذو المواهب العالية والمزاج الناري مثله كمثل مهر فتى جهوح نشط من عقالة وخرج هائما من مذوده يريد للرح في نواحي الارض والضرب في مناكبها المراض ، ولكنه ما لبث ان وجد في كل صوب ينتحيه سدوداً منيعة تستبي عينيه من ورثها مراعى فيحاء واكلاء خضره ، ولكنها محرمة عليه ، فلما أن يحمى في مكانه ريثما يرعى الجوع له ويرى القحط عظامه ، وأما أن يُجنَّ من النيف فلا يزال يتخط وتوثب ، ويناطح من السدود كل صخرة صماء ، ويصادم من الأسوار كل صفاة صلباء ، فلا يبوء الا بهشيم أعضائه وتمزيق أشلائه ، حتى وفق اخيرا الى اقتحامها باعجوبة بمد بذل الالوف من المحاولات ومعاينة الاهوال من الالام ، فخرج يحض لا فيما كان يتخيل من مراتع رغبة ومروج سميدة ولكن على كل حال في فضاء معشب تُستمرأ فيه حلوة الحرية وإن مازجتها مرارة الفاقة . وجلة

القول أن تيوفلسدروخ بعد أن نبذ مهنة القانون التي نفسه في فلاة جهلاء ليس فيها من العمل الصالح مرشد ظاهرى ، ولا فيها من الايمان الراسخ مرشد باطنى . لقد كانت الضرورة تسوقه اعنف السوق ، ولا غرو فإكان الزمن ولا لابن الزمن أن يترث ويقف ، وكيف بالوقوف لمن لا تزال تحبوه وتوفزه ، وتنخسه وتحفزه ، وجدانات مسترة لاشفاء لنفيلها ، وملكت متعة لا حمل لماطلها ؟ وهكذا كتب عليه كما كتب على غيره ، أن يمثل تلك الرواية الرهيبة « لا غاية ولا راحة » ، وأن يمر في أدوارها المتتامة ، ويخرج من خاتمتها الفاجعة ، مستنبطاً منها ما استطاع من عبرة وموعظة .

يبدأ أنا نقول انصافاً لصاحبنا أنه كان معذوراً بعض العذر فيما أتاه ، وأن الشئاق لم يكن على عنقه بالتخفيف الوطأة ولا بالهين الحمل ، فلا بدع أن يضطر الى قطعه . لقد وجد نفسه أثر تخرجه من الجامعة وبعد نجاحه الباهر في الامتحان في موقف لا يحسد عليه انسان ، يبحث عن العمل فلا يجده ، ويتمس المرتزق فلا يوثاقه ، وما كان مثله ، وهو المقطوع الصلة بكل صاحب منزلة وجه ، أن يأمل من الانتظار كثيراً . والظاهر أنه كان يمشى يومئذ في عزلة عن اقرانه ، وذلك حيث يقول « لقد كان أترابي من خريجي الجامعة لآثم لهم في غير المظلم والملبس . أما غير ذلك من دلائل الحياة فقد خلت منه جميعهم ، وأجدبت منه طينتهم . فله در تلك العيون الحمعلقة ! لقد كانت مع شدة تحديقها لا تبدى من التفكير بصيصاً . وكيف بالتفكير لمن هو كليل الحواس عن إحراك ممالى الأمور وبواطنها ، وجلال الشئون وفقائتها ، كل ما يستطيعه أن يستشقى خفي ربح الترقية مقبلة من أبعد البعد ؟ » ألا يحسد القارىء في هذه الكلمة ما ينم عن مرارة الحظيطة الهتاجة ،

وتألم الكرامة المجروحة ؟ لاجرم أن هؤلاء الزملاء كانوا يسخرون .  
صاحبنا من غرب أطواره ، بل لملهم حاولوا أن يفضوه ، وأن يفعلوا ما هو  
أشد من ذلك استعالة : أن يحرقوه . والمؤكد على كل حال أن ترى فيما بينهم  
وبينه كان لا يصلح لآبات صداقة أو مودة . لقد انفصل الفتى عن سرب  
الجراء ، ولم يكن يُدرى بعد هل هو من أشبال الاسود أو من جراء الذئاب ؟  
والظاهر أنه كان مفرط الحياء والكبرياء ، حتى الأنف أشم المعطس ،  
شديدا لا اعتداد باستقلاله وكرامته . ولم يلبث أولئك الوجهاء الذين كانوا يلحظون  
تقدمه في الجامعة أن تحولوا عنه ، وقطعوا كل أمل من استصلاحه لتلوثهم في  
نظرم « بداء المبقرية » . هذا التصرف يحتاج الاستاذ في الكلمة الآتية :  
« كان الأبرار » ، كأن الجمل الكثير لا يحتوي التزرا ليسير ،  
كأن من يستطيع . جح في عنان السماء ، لا يستطيع السير على أديم النبراء !  
ولكن الدنيا عجوز خرقاء كانت تحسب كل درهم مذهب دينارا خالصا ،  
فلما طال عليها النش زعت ثمتها من الدنانير جملة وأقسمت لاتعامل بنير  
نقود النحاس »

ولعل القاري يتساءل كيف استطاع هذا النابغة السماوي الطيار ، وقد  
رفض القوم قبوله بينهم كعامل ارضى سيار ، أن يظل سابحا في الجو دون  
أن يمتحن عن الميائ ، وينهب حيث ذهب القارخان ؟ وجوابنا على ذلك أن  
هذا لنز ليس له في هذا الخليط من الوثائق حل جلي . وسواء ا كان صاحبنا  
يستعين على الميش بأعطاء دروس خاصة ، أم بترجمة بعض المؤلفات القيمة ،  
فلنؤكد - كما يقول - أنه لم يقع فريسة الجوع ، بدليل بقائه حتى اليوم في قيد  
الحياة . والظاهر أنه لم يكن صفر الدين من النقود كما يستتبع من اشتغال

الوثائق على طائفة من قوائم الحساب لمض الفئاق ، عثنا ينهنا على رقتين وصلتا اليه يومئذ من بعض ذوى المقامات ، إحداها إعتذار عن عدم استطاعة كاتبها الوفاء بما وعده من المساعدة على الاشتغال بعمل يليق بنبوغه ومستقبله ، والاخرى دعوة إلى حفلة شلى من الأسرة التي تمت اليها بالقرابة هر توجود زميله بالجامعة .

على هذا الوجه التهمكى كان جواب استصراخه ، وتلبية استنجاده :  
كأس من منخيف الشراب بدلا من غنى الطعام الذى تلتوى من شدة الحاجة اليه امعاؤه ، ودعوة الى حفلة سر ومفا كبة بدلا من العمل الذى كادت تصدأ من فرط الافتقار اليه اعضاؤه . وقد أجاب تيوفلسدروخ هذه الدعوة ولكننا نستطيع الامن بلب التخمين أن تتصور كيف كان موقفه ، وقد بات مع الضرورة القاسية فى صراع ناشب ، وسط الحاضرين هنالك من هواة الادب وعشاق الموسيقى من كلا الجنسين ، كأه أسد جائع دعي الى وليمة عشبية بين ريرب من الغطاء والغزلان . لعله التزم الصمت ولم يخرج مغالبه من انغمادها ، والآفا كبر الظن أن لم يملها فى المشب بل فى الربرب .

ندع هنا جانبا ونستمع قول الاستاذ « لقد كان العالم كله فى نظرى لنزاً هائلا كلفزاني الهول ، إما أن أفوز بفك طلاسه وأما أن أقع فريسة بين برائه . وكانت الحيلة لا تزال تنكشف لخاطري عن روائعها وروائعها ، عن أنوازها المتضرجة تنخل غياها الملهمة . وكان فى نفسى تناقض غريب لا أجد بعد الى حله سبيلا ، ولم أكن أدري أن الموسيقى الرومانية انما تنشأ عن ائتلاف متافر الانغام واتساق متباين الألحان ، وانه لولا الشر ما كان الخير ، ولولا بشاعة الحركة ما كان جمال النصر »

ويقول الأستاذ في موضع آخر «سمعت بعض الناس يقولون (على سبيل المزاح طبعاً) أنه لو كان من المستطاع اعتقال جميع الشبان من سن التاسعة عشرة في براميل تكفأ عليهم ، أو إخفاؤهم بأي طريقة أخرى ربحنا منهم ، حتى إذا بلغوا الخامسة والعشرين أخرجوا إلى الدنيا أرجح أحلاماً وأرصن وقاراً ، لكان للناس في ذلك مزيد وافر من الصفاء والهناء . وغني عن البيان أنني لأوافق البتة على هذا الاقتراح كنقطة عملية ، بيد أنني أقول إذا كانت الفتاة تبلغ في شرح الشباب عنفوان الحسن والظرف والملاحة ، ففي ذلك الأوان يستوفي الفتى أقصى فائدتها الرذائل السالفة الواقعة . فينأثر أماً بأم من الجباري واهق من الطاووس ، إذا به أشرم من العقاب حبابي الملاهي وشغف بالذلات ، قد فغضه التيه والكبر ، وملاه العجب والفخر ، وجميعه الناحوا الإباء ، وتغاضى به التبعج والادعاء ، فهو في جميع أموره متهموس أحق ، متهور أخرق . ومن العجب العجائب أن ذلك الحدث المنور الذي لم يئذل بعد جهدا ولم يحاول سمياً لا يبعجه من مساعي الغير شيء ، بل لا يزال يدعي لنفسه التفوق عليهم ، زاعماً أنه لو كانت مساعدتهم جديرة بهتة لبلغ بها أوج الاعجاز وذروة الأتقان . ثم لا يفتأ يرى الحياة من الهنات الهيئات ، واتهام من فرط البساطة أسهل من القاعدة الثلاثية ، ما عليك إلا أن تضرب الحد الثاني في الثالث ثم أن تقسم الحاصل على الحد الأول يكن خارج القسمة هو الجواب فإن لم تحصل عليه فانت في زعمه أجهل من دابة واهق من بهيمة . بدأ له من غمغل ، لم تعلمه التجارب أنه مهما فعل فلن يرح لديه كسر مشؤم ، يكون في الغالب عترياً دائراً ، وأنه من البعث محاولة الحصول على ناتج صحيح ، بل من البعث التفكير في ذلك !»

لا ريب أن تيوفلسدروخ كان في ذلك المهدي قاضى من المهوم والعراقل  
عناء شديدا ، والا فكيف يمل قولہ : « سنة الطبيعة لا تغير لها ولا تبدل ،  
وهى أن ما ندعوه الوقت أو الدهر لا يزال يلتهم أبنائه ، لا منجاة لك منه الا  
بمواصلة المدو ، بمواصلة العمل ، سعيين طمعا أو نحو ذلك . وحتى اذا فعلت  
لم تستطع فى النهاية الا فلات من قبضته . هل فى مقدور اى ملك ، أو اى  
مخالف مقدس من الملوك ، ان يأمرؤا الوقت بالوقوف ، وان يتحرروا من قيده  
ولو فى الوم ؟ ألا ان الحياة الدنيا قائمة بمخالفيرها على الوقت ، ومشيد من عنصر  
الوقت ، وانما هى فى مجموعها حركة ودفعة من دفعات الوقت ، الوقت مصدرها  
والوقت مادتها . ومن ثم كان واجبا جميعا ان تتحرك ، أن نعمل - فى الانجاء  
التويم . اليست أبداننا ، بل أرواحنا ، فى حركة مستمرة ، شذنا ذلك اولم  
نشأ ؟ اليست حياتنا كلها موجة قلقة بين جزر ومد ، بين قتل ومسترو وتويع  
مستمر ؟ اليس أوفى ما نستطيع بلوغه من إشباع مطالبنا الظاهرية والباطنية  
انما هو إشباع لأجل مسمى ، لوقت معلوم ، فهما تفعل لا يلبث أن يطيح  
به الوقت ، ويصبح بالنسبة اليها فى حكم الممدوم ، فلا تزال فى حاجة الى  
استئناف المضى والعمل من جديد ؟ أيها الوقت ، أيها الوقت ، كيف احطت بنا ،  
وسجنت أرواحنا ، وأغرقتنا فى أعماق لجنتك المضطربة الخالكة ، حتى  
أمسينا لا نستطيع أن نختلس ولو لحظة من أوطاننا السبوية الا فى أحيان  
الآفاقه وما أندرها ؟ لقد كنت ، وأنا احد أبناء الوقت أشقى خطا من كثيرين  
سولى ، وكان الوقت يؤذن بالتهامى قبل الاولان ، فأنى مهما بذلت من  
المجهود ما كنت لا أستطيع الى المدوسبيلا ، من فرط ما بث فى طريقي من  
المقبات ومن ثقل ما علق بقدمى من الاصفاد . « لمل الاستاذ يقصد ، على

ما ترجح ، أن يقول باللغة المتعارفة بين أهل الدنيا ان الواجب كان يقضي عليه ، كما كان يقضى على سائر الناس ، بأن يسلم ويسمى في الاتجاه القويم ، ولكنه بعد طول البحث لم يجد عملاً ، فاققلب تمسا شقياً . ولا بدع ان يكون هذا مصير من لم يزل شبح الجوع المخوف ماثلاً على البعديهم ، ومن كانت بروحه الجياشة تعاني من القلق والبطالة زحلت الذبول والاحتضار

كالنار تأكل بعضها ان لم تجد ما تأكله

« وكنت حتى هذه الساعة معروفاً بين عشرائي وخطائي بليل الى الدعة والسكون ، وكانوا يأخذون على ذلك الميل ، ويقولون انه بش المعبر عن وجدائنا في الملهبة وعواظي الحادة . والواقع أنني كنت أنظر الى الناس بحب مفرط وخوف مفرط . ولا غرو فكل من يدرك من روعة الجلال السرمدي طرفاً جدير أن ينظر الى شخص الانسان بعين التقديس . وكان القوم كثيراً ما يوجهون إليّ اللوم ، وأحياناً يستشرون لي البعض ، لما كانوا يحسبون في جوداً وجفاء ، ولما كنت قد اعتدت في حديثي من لهجة تم في الظاهر عن تهكم وتهجم وان لم تكن في الباطن الا ذمراً أعدتها لنفسى حتى يتسنى لشخصي الضعيف أن يعيش في حماها مطمئناً آمناً ، موادعاً مسالماً ، لا تستفز قوارص النير ولا يستفز النير بقوارصه . بيد أنني قد عرفت الآن أن التهم هو في الجملة لنة الشيطان ، فقلت عنه وآليت أن لا أقر به . وكمن امرئ قد أثرت في تلك الأيام حفيظته ، واجتلبت بتلك اللمحة عدوانه ! ان الكهل المتهم ذا السكينة الماكرة والأساليب الخادعة تخليق بان يمد آفة المجتمع ، فكيف بالشاب الذي يستبدل خشوة التهم بنعومة النراة ، وحرافة المكر بحلاوة السناجة . أو لم نشاهد رجلاً من ذوي

الانذار يتقدمون في رفق ووقار ، ومرادهم أن يظنوا بأرجلهم أحد هؤلاء  
المتهكمين من الشبان ، وأن يظفروا المجلس من تلك الهنة الحقيمة والحشرة  
المرذولة ، فلا يروهم الا انقجاره ، كأنه قنبلة أو طوربيد ، فاذام قد طاحوا في الجو  
صعد آثم خروا على الأرض صيبا ، مهشمي الجوارح ممزقي الأعصاب ،  
صائمي الرشد مفقودي الصواب ! »

وبلاء ! كيف يستطيع من لمثل هذا المزاج الشيطاني والطبع الناري  
أن يمهّد نفسه في الحياة سبيلا ؟

## الفصل الخامس

( عهد الغرام )

« وكذلك ظل الفتى في سبيل البحث عن العمل منين طوالا ينتظر  
وينتظر ، ويأبى أبرخ الآلام من م وضجر ، حتى خطر بباله ذات يوم : لماذا  
كل هذا ؟ لأجل الخبز والدفعه ! أو ليس في غير هذا المكان من أرض الله  
ذات الطول والعرض ما يقوم باطعامك وادفائك ؟ لقد عقلت النية على  
التجربة ، قضى الله ما قضى ! »

لقد اتبع لنا إذن أن نشاهد تيوفلسدروخ مستقلا بنفسه في ظروف  
جديدة . نعم لقد قضى الامر ، فاتفصل الفتى عن قافلة السفن حيث كان مكانه  
المتخلف في المؤخرة لا يثبت على عظيم الرضى ، وأخذ الآن يبحر حباب  
اليم في طريق منفرد متمندا على ما أوى من هداية ومقدرة . ويل لك أيها



الخطر المنكود ! لن كنت لا تزال تبهر بالثافة ومهمتها ، وتنسخط على ربايتها ونوايتها أو لم تكن هي على كل حال تسبح في طريق مبنية لأغراض معينة ويتعاون أفرادها جميعاً أخذاً وعطاء وإرشاداً واستئناساً ؟ ماذا أنت اليوم صانع ، وأنى تسلك بمفردك في مجاهل الدأماء ، ومهامة اللجة الخضراء ، بل كيف تهتدى إلى الطريق المختصر لضالك المنشودة من جزائر السعادة ؟ لا جرم أن تقع لمثل هذا الجواب الجوال ، الخطر بنفسه بين الممالك والأهوال ، حوادث وعجائب واقفلة بالمرصاد . بل ها هو لا يكاد يخطو أول خطوة حتى تمارضه جزيرة مسحورة توقف تقدمه ، تفسد عليه كل تدايره ، وتقلب محطته رأساً على عقب .

« إذا كانت الحياة لا تزال تتكشف في دلمان الشباب عن محاسن بهجتها ، وإذا كانت جنة الخلد لا تزال تتجلى لافق على كل بقعة من الأرض في مفاين روعتها ، فإن هذا التجلي لا يتم في صورته أسرع وأبرع منه في صورة القاعة الحسنة . لطالما قلت إن الإنسان هو أبدأ في نظر أخيه الإنسان مهبط روح القدس ، وإن سرراً الهيا ليربط كل نفس إلى أخواتها بروابط المحبة والأنس . بيد أن هذا التجاذب السماوي والتآلف الروحاني لا يصير ضراماً مشرقاً ، ولا ينبعث لهيماً متألقاً ، إلا في هذا التقارب بين الجنس ومنه ، كما يورى الشرر بين السالب والموجب . أفتحسب في استطاعتك أن لا تحفل حتى بأحقق إنسان ؟ أليس من أحب آمالك أن تجمله وإياك شخصاً واحداً بأن تضمه إليك ولو بأسباب الرهبة إن لم يكن بدواعي المحبة ، أو أن تضم أنت إليه إذا أعيتك الحيلة في جفبه إلى نفسك . وإذا كانت الحال كذلك بين المشترء والخلطاء فكيف بها في هذا التقارب بين الجنس ومنه ! إلا أن في هذا التقارب

اشرف ما يعرف في الارض من تآلف والتحام ، واسمى ما تطيقه الطبيعة البشرية من اتحاد وانضمام . نعم في هذا الوسط الموصل بين مختلف الجنسين ، كما في الوسط الموصل بين مختلف السلكين ، تشتعل نار الكهرباء الروحانية ، تلك التي يسرى تيارها السيل في اتجاه الكون اجمع ، والتي ندعوها اذا هي اتحدت بين الرجل والمرأة عاطفة الحب !

« وأكبر غنى أنه ملن شاب الا وتشرق في مسرح خياله جنة قصية غناء ، وبروضة قدسية فيحاء ، تخلع عليها حلة الانس والبهاء ، حورية من من بنات حواء ، ويتراعى من خلال مسالكها الظليلة الورقة ، ومن فروج خثائها المنورة الاثيقة ، « شجرة المعرفة » ماثلة في جلال وروعة ، وجمال ورقة . ولقد يزبد المنظر فتنة وحسنا لوقم على خفارته « ملاك حارس » وحال ينتمون عابرة السبيل « حسام ملتهب » ، فيظل الفتى وكل ما يستطيعه أن يحظى بتمعة النظر دون الدخول ، ويتملى بنعمة المشاهدة دون الوصول . سقيت النيث يا عهد الشباب والفضيلة ! إذ لا يزال الحياء ذلك الحجاب الالهي المنع ، وإذ قصور الامل وشرفه الرفيعة لا تزال قائمة في جمالها المقدس ، لم تضام ولم تدرس ، ولم تنكشف لاهيننا المفيقة ، عن حقير اكواخ الحقيقة ، واذا لا يزال الانسان بطبعه ذلك الكائن الطليق الحر ، لا تحده غاية ، ولا محصره نهاية !

« أما صاحبنا الفتى البائس ( يعنى نفسه بلا نزاع ) فقد كان ، ولا يزال ، شعوره تلقاء مليكات الأرض مما يعجز الوصف عن تصويره . ولا عجب أن يكون هذا شأن امرىء آثر العزلة عن الخلق ، وأوقى مع ذلك خيالا تنوها ، لا يزيد احتراقه في الخفاء الا تأججا . لقد كان يرى فيهن لألاء

النور اللدني ساطعاً يخطف الأبصار، وكن جميعاً في نظر مقدسات روحانيات،  
مطهرات سماويات، ولم يكن عهد بهن يتجاوز لمحن لها وهن ينسين  
بجانبه انسياً في رياشهن للملائكة المفلتة التلاوين البديع التزيين، أو  
وهن يحمن على أطراف خفلات الشاي بميدات اللثال، محفوفات بهالات  
الجلال، كلهن هواء ونور، ونسيم وصير، أرواح متزققة، في صور متألفة،  
فانتلت ساحرات، كأنهن كاهنات مهيبات، في أيديهن ذلك المعراج العجيب  
يرقى عليه الفتى فينال أسباب السماء ! هكذا كان شأن الحسان في نظره .  
وما كان ليهجس في وهمه ، وهو ذلك البائس المسكين ، ان يوفق ذات  
يوم الى الفطر لاحداهن ، بل كان مجرد سنوح هذا الخاطر يتركه وكأن الأرض  
الفضاء به تدور ، ولقد يخيل اليه انه لو تم ذلك لخر صعباً ، وقاضت الروح  
الى بارئها .

« وهكذا كان الفتى ، على انكاره ما تؤمن العامة بوجوده من ملائكة  
وشياطين ، لا تزال تزوره أسراب من الاطيار السماوية ، والأرواح العلوية  
ترفرف حواليه ، كلّ رأي من عينيه ، ومسمع من أذنيه ، أينما راح وحيثما  
اغتنى . وكان يلحظها بعين غصيبة الطرف خشية وخشوما ، وقلب خفاق  
الجوانح تبيد أو خضوما . ولكن هب أن احدى أولئك الحسان المصورات  
من نور وهاء ، المبهجات من شعاع وهواء ، ألقت عليه من سواجى إلحاضها  
نظرة مكهبة توحى الى قلبه ( لا بأس عليك أيها المنزوى فقد أبيع لك  
أنت أيضاً أن تحب وأن تحب ) ترى اذن أى نار بركانية ، قاصفة الرجفات ،  
نأسفة اللفحات ، كانت تنفدح يومذاك وتندلع ! »

والواقع أن مثل هذه النار ، وما يتلوها من فرقات وانفجارات ، قد

شدت بالفعل في صدر هرديا جونيز ، وهل كان عن ذلك مندوحة ؟ لقد كان ذلك الصدر ( ولعمركنا القارئ اذا نحن جاربنا الاستاذ قليلا في أسلوبه المجازي ) يحوى قدرا لا يستهان به من حروق الحلة ومن ثرات الوجد ومن كبريات الدعاية ، وكل ذلك في مستقر حار ، على مقربة من فرن خيال ملتهب . فهل عجب أن يتألف من هذه العناصر الحامية ما يكفي لتكوين أجف نوع من البارود ، بل أقوى صنف من الديناميت ، حتى لا تكاد تقترب منه أدنى شرارة - وما الشرر بالنادر في هذه الحياة - حتى يتقد فينفجر .

نعم لم يكن ثمة شك في أن ملاكا من هذه الملائكة الخائفة حواليه ، المرفرفة على مرأى عينيه ، سوف يعمد يوما من الايام الى الاقتراب من هذا الخلال المنزوي ، وهناك يشمل بنظرة من تلك النظرات السالوة الشافية نارا ما أخطر شأنها ! فطوبى له يومئذ لو تكشف امره عن نار كنار السواريج تتعاقب انفجاراتها المأمومة في روتق بديع السنا ، ومنظر انيق الهبتلي ، خلال الادوار المتوالية لحب فتى سعيد ، حتى تنفذ ملامتها ، وتهمد جفوتها ، وتخرج الروح الفتية سليمة لم يصيبها اذى . أجل طوبى له لو ان الامر لم ينكشف عن حريق هائل وانفجار مروع ، عن نار تمزق اعشار الفؤاد كل ممزق ، وذلك هو الموت - أو تصدع النشاء الرقيق « لقرن ذلك الخيال الملهب » فتندلع لواهيه وتظل تبيت مطلقة العنان فيما جاورها من المفرقات ، وذلك هو الجنون ، حتى لا يبقى من ذلك الهيكل البديع الرائع الا بقية رماد هاب ، أو فوهة بركان خاب .

وهكذا شامت المقادير ان يقع فيلسوفنا في شرك الغرام ، وأن يصيبه جنون الحب المستمر . فاحب حبا ملك عليه عقله ونهاه واستهلك لبه وحجابه . ولكنها مرة واحدة ، مرة لم تقبها ثانية . وكذلك شأن القلب الآدمي لا يستطيع ان يعرف الحب الصحيح ، الحب الصادق العميق ، الامر قوادة . وما كان للرشقة الاولى من كأس الغرام ان تصادها في الخلاوة رشقة أخرى . فلا عجب أن نرى الفيلسوف بعد هذه الحادثة الغرامية القفزة قد أغلق قواده دون دواعي الصباية ، بل سد سمعهم دون هواهم الفزل والدعابة ، وبات يعتد النساء لأكثر ولا أقل من طرف غنية بديمة ، لا بأس عليه إذا هو متع ناظره بمشاهدتها في المعارض ، ولكنه لا يفكر قط في اقتناء شيء منها في بيته .

وكأنني بالقارىء يتلف شوقا الى معرفة ما أحاط به هذا الحادث من الظروف ، وما تضمن من التفاصيل ، وعلى الاختص بلوى التناسبات ولا يبي الاسباب كان التقاء العاشق بالمعشوق ، وكيف كان موقفهما في ذلك الملتقى . ولكن الفيلسوف ، كمادته دائما ، يتركنا من هذا الامر في حيرة حيرة ، ويكتفي بإيراد هذه الكلمة الموزجة « لقد كتب في لوح القضاء ان يقاطع مدار كوكبها السماوى الاعلى مدار كوكبه الارضى الأدنى ، وان يجيل اليه وقد أطل في أعماق الخنازير الصافيات ان سبحت الانوار العليا ، قد هبطت الى مساحب الظلال السفلي ، حتى اذا انكشف له خطوه أنشأ عملا الدنيا عويلا ولجبا »

ولقد يظهر ان المشوقة كانت فتاة في مقتبل الشباب وريمان الجلال من بيت نبيل ومختد كريم ، ولكنها لم تكن من ذوات الثراء ، ولعلها كانت تميش في كنف أقرباه لها من ذوى النشب والجماء : على اننا لا ندرى

كيف كان التقاؤه بها . ولعل الامر قد حدث من باب المصادفة . وحسب  
القارىء ان يسمع من فم الاستاذ هذه الكلمة في وصف القصر الفاخر حيث  
كانت تقيم الحسناء :

«أيها القصر النبيل ! من ذا الذى مر بك في جمالك وروعتك ، وحسبك  
وهيئتك ، الاحبس خطله ووقف بين يديك متأملاً متمجياً ؟ لكافى أراك  
الساعة ماثلاً هنالك في أحضان ذلك المدرج الجبلى العميق تحيط بك العزلة  
الصافية ، وتحنو عليك الظلال الصافية ، وقد ارتفعت شواهد شرفائك المرمية ،  
وبوارج جدرانك الجرانيتية . تلمع في أشعة الشمس الراحلة ، كانك من  
قصور الفردوس بنيت بأجر النضار وغشيت بنوب الذهب . وبالله ما يبلغ  
تلك الروابي المشرفة عليك ، والقلاع الحارسة لك ، تهض سفوحها الخضراء  
متدرجة متموجة ، قد انتزعت بالمشب النصير ، وترصعت بالحصباء والصخور ،  
وازدانت ههنا وههنا بإيكت منفردات تبسط على الأرض ظلها الظليل . بلى  
أيها القصر لقد كنت لهذا الحائر المتجول كمبهد ممنون في صحراء حياته  
المحرقة ، وكنت تضم بين جدرانك لوح قضائه المحتوم قد جرى فيه القلم  
بسعادته وشقائه ، وسرائه وضرائه : فا كان أجدره بالوقوف والتأمل لو كان  
يدرى ماخبأت له من عذاب ونعم ! »

وليتصور القارىء أن صاحبنا الفيلسوف دعى الى حفلة تشاي بهذا القصر  
فادخل في حديثه ، فالتقى نفسه في مجلس زاهر قد ضم جماعة من صفوة  
الفتيات والفتيان ، يتجاذبون أحاسن الحديث ويستمعون أطايب الألحان  
والظواهر ان الحقيقة لم تكن دون القصر بهجة وبهاء ، وروقا وسناء ، وذلك  
حيث يقول الاستاذ : -

« تحت ناضر الايك وأثيث الاغصان ، وبين عاطر الزهر وعبق  
الريحان ، كان يجلس أولئك الامجد يروقه من بدائع الالوان كل مجلى أتيق ،  
وتحييهم من نوافج الانوار أمثال نفحات المسك الفتيق ، وتراعى لهم من  
خلال الابواب المفتحة مناظر يرودها الطرف ويمرح ، وترتع فيها العين  
وتسرح ، من خمائل غناء ، ورياض لغاء ، ومروج خضراء ، وسيوح زرقاء ،  
وكل شئ هنالك قد أشرقت ديباجته. وانجلى صفحته ، وترقق مأوئه ، وتآلق  
للآؤه ، وقد ارتفعت من كل صوب وناحية تناريد الطيور فرحة طربي ،  
وأرانب الهوام سعيدة جنلى ، حتى لكان الانساق قد اختلس من الدهر  
ساعة هنيئة ، واسترق من الحوادث لحظة بريئة ، وآوى الى أحضان السعادة  
مستقرا من صدرها فى مكان أثير ، ومضطجع وثير .

« وماهى اللحظة حتى قدم صاحبنا الى القوم وفيهم - بلومين ! وكانت  
جالسة فى تواضع رقها ، ومهابة روعتها ، بين أترابها وصواحبها كالكوكب  
الوهاج بين مصاييح الثرى ، فتقدم اليها منحنيا يحسمه وروحه ، لا يكاد يجزأ  
على رفع بصره الفضيض ، لفرط ملشاع فى قلبه من ارتباك مستلذ واضطراب  
مستلذب .

« وما كان اسم هذه الحسناء بالجديد على مسمعه . لقد سار ذكرها فى كل  
ناد وعفل ، ولهج بوصفها كل لسان ومقول ، فمن متحدث عما أوتيت من  
عاسن وهبات ، ومن متندر بما ركب فى طبعها من اهواء وزروات .  
فكان صاحبنا قد صور لنفسه من ألوان هذه الاشاعات التامضة ، مدحا  
كانت أم قلما ، ثناء كانت أم نقدا ، صورة رائدة ، أخاذة بمجامع الافئدة ،  
تملا الجنان رهبة وخشوعا . وكان قد رأى شخصا من قبل رأى العين فى

متنديات المدينة ومحافلها ، فشاهد ذلك القوام الالهيف المهيّب ، وتلك الفناير  
الوحفة الفاحشة ، تظلل وجها تلعب فيه الضحكت والانوار ، على متن اعماق  
سحيفة من الجد والوقار . بيد أن هذا كله كان يتراعى له كتهاول السحر  
واضغاث الاحلام ، لاسييل الى ادراكه ، بل لاحقيقة لوجوده . نعم لقد كانت  
الشمس في بيت عزها ادنى اليه مثلاً ، واسهل عليه مرأى ، فإكان ليهجس  
بوجهه أن يلتقي بها ولو في العمر مرة ، وما كان ليسمو بأمله الى أن يخطر ذكره  
على بالها خطرة ! ولكن هكنا شامت الاقدار ، فلذا به الساعة جالس وإياها  
في حلقة واحدة ان بسمت شملتة أنوار بسمتها ؛ وان لفظت وقع في اذنه  
رنين لفظتها . ثم اذا كانت الشمس وهي في سماء مجدها لاستنكف أن تطل  
في أحط الوديان ، وأوضع القيعان ، فن ذا التي يدري لعل هذه الحسناء كانت  
قد لاحظت قبل اليوم هذا الخامل المغمور ، ولعلها سمعت من أفواه حاسديه  
وشائثيه ، كما سمع هو من أفواه حاسديه وشائثيه ، ما أثار عجبها منه وأعجابها  
به . ترى اذن هل كان التجاذب مشتركاً ، وثوران العواطف متبادلاً ، هل كان  
القطبان المختلفان برعشان وقد أدنى أحدهما من الآخر حنيا الى العناق ، وهتزان  
شوقا الى الالتصاق ؟ أو قل هل كان القلب يجيش جيشاناً في حضرة مليكة  
القلوب ، كما يجيش صدر البحر اذا هواقرب من مدار القمر ؟ نعم لقد كان هذا  
شأن صاحبنا ، لقد أحس كأنما قد لمست له من عصا السحر ، فلذا بروحه  
قد تارت من اعماق مكانها ، واذا بكل ما هنالك من لغة والم ، ونسيم وعذاب ،  
وذكرات غامضة لكل غابر ماض ، واحساسات مبهمه بكل قادم آت ،  
تصطفق وتثور ، وتلتطم وتغور ، في أمواج زلخرات ، وحواملت دائرات .  
ولعللما كان صاحبنا قد شهد قبل هذا الموقف مواقف أقل إثارة



للعواطف ، فكان يمرّوه فيها تهيب واتقباض ، وكان يبادر الى إخفاء اضطرابه وارتباكهم وراء ستر صفيق من السكوت ، بل خلف حجاب كثيف من الجلود . فلماذا إذن ، وقد راح في هذا الموقف ينتفض من أحماق سريره ، لم يسقط في مصرع الانغماء ، بل جعل يصعد في مدارج القوة والشجاعة والبيان ؟ لا جرم إن شيطانه قد هتف به حينئذ ان أبرز من مكنتك ولاق ما ساقه لك الحظ ، هذه ساعة الاقدام فلما أن تظهور وإما أن تتوارى آخر الدهر ! وكذلك تأتي على الانسان أحيان يبلغ فيها وجده من الطينين مبلغاً يستغز الروح من رقدتها ، حتى تشعر لأول مرة أنها تفوق هذا الوجد بطشاً وقوة ، فإذا هي قد ظهرت عليه وسمت عنه تحملها أجنحة النصر في هالة الفوز ، وتسمح بها سبجاً مفرط المدهو من شدة إسراره ، مفرط اللين من شدة اندفاعه . وإن صاحبنا ليذكر بمزيد النعش والارتياح كيف كان اذ ذلك لا يلزم الصمت كعادته ، بل ينغمس في تيار الحديث بلباقة ، فلذا هو قد قبض على ناصيته يصرف كيف شاء زملمه . لا ريب أن وحياً من السماء كان ينزل عليه في تلك الساعات يلهمه الحكمة والصواب ، وينطق على لسانه بفصل الخطاب ، فتظل نفسه المطوية تنشر مكنون خواطرها في معنى جليل ، ولفظ نبيل ، وعبرة مشرقة بهية ، وديباجة مصقولة طليّة ، وتعود روحه وكأنها بجر من النور يتلألاً ، هو مقر الحق ومنبع الحجبى ، تطلع من جوفه أطراف الخيال صورة أثر صورة ، في وشى بديع التلاوين ، ورواق باهر التحاسين »

والظاهر ان بعض المتقربين كان يسكر صفاء المجلس بوابل من حديثه الملول ، غير دار أي بطل مخيف قد أقبل الساعة ليزعزع أركانه ويهيم كيانه بما جعل يصوب عليه من نكات لاذعة ، وتهكمات قارعة ، لم تلبث ان أغرته

بالصمت أولاً ، ثم لم تتركه حتى حملته على الانسحاب أخيراً . وذلك حيث يقول صاحبنا : « ولقد كان انخزال ذلك اللجوج المالحك مدعاة ارتياح الحاضرين ، ولكن أى قيمة كانت لمستطاب ثنائهم ومستعذب لطرأهم بجانب تلك الابتسامة الحلوة الجفلى التى كافأت بها الحسنة هذا البطل المتصر على جميل صنيعه وحسن بلائه ؟ لقد جرأته هذه الابتسامة على توجيه الخطاب إليها ، فأقبلت عليه والتفتت اليه بل ليت شعري أكان فى ذلك الصوت الرنان وعشة خفيفة ، وهل كانت حمرة الشفق تخفى على ذلك الخلد الأسيل خجلة طفيفة ؟ » ثم اتجه تيار الحديث الى مناح سامية ، فى معرض من المعانى بديع ، حيث المعنى يبعث المعنى ، والفكرة تقدح الفكرة . وكانت لحظة من تكلم اللحظات النادرة إذ تفتح أغلاق النفوس ، ويشعر الانسان بأنه اقترب من أخيه الانسان . وكذلك ظلت كؤوس الأحاديث تدور على المجلس مشعشة رائقة ، فيرة صافية ، وقد ارتحل عن كل صدر همه ، وانزاح عن كل قلب عبؤه ، وذابت حواجز الكلفة فتمازجت النفوس ، وتلاشت حوائل الاقتباس فتماقت القلوب ، وترامت الحياة على مدى البصر مفتتة الألوان ، منسقة النظام ، كأنها قطعة من الفردوس ليس فيها لئير الحب سلطان ! مثل هذه للموسيقى خليفة أن ترن فى جوانب النفوس الكريمة متى طاب لها الزمان والمكان . بيد أنه ما كاد الضوء يترقق على رؤوس الرمان ، والظلال تستطيل فى بطون الوديان ، حتى دب فى كل قلب ديب من الحزن والشجى ، وتمشت فى الجوانح وسوسة تذكر كل امرئ . بأنه كما يوشك هذا اليوم المشرق البهى أن يفضى الى غايته من ظلمة وسكون ، كذلك يوم الحياة لا عملة صائر الى الانحلال فتروال ، وكذلك هموم الانسان وأراحه ، وأفراحه وأتراحه ،

لا محالة مفضية الى ظلمة القبر وسكون الأبدية .

« وكانت الساعات تمر على صاحبنا مر اللحظات ، لفرط شعوره بالسعادة والطهارة ، وكانت الالفاظ تهبط عليه من تينك الشفتين الحلوتين كما ينساقط الندى على العشب الظلآن ، وظل يخيل اليه ان كل ما فيه من كريم المواطف وشريف الوجدانأت راح يهمس في أذنه « طوبى لك فقد طبت مجلساً وكرمت مقاماً » ولما نهضوا للوداع اذا بيد الحسنة في يده ، وكان الجو يبق بأفئاس النسق ، والنجوم الوديمة تلوح في الأفق ، فطلب اليها معاودة اللقاء ، فلم يقابل طلبه برفض أو إياه ، ثم ضغط في رقن تلك الأنامل الرخصة الناعمة ، فخيل اليه انها لم تسحب من يده بسرعة ، ولم تنتزع من قبضته بعنف »

وارحنا لك أيها المسكين ! لم يبق شك في ان السهم اصمى قواذك ، وان مليكة القلوب قد اعتزمت ان ترى بين صرعاها رجلا من ذوى المبقرية فالقت عليك من شباك سحرها ماغأدرك موثقاً اسيراً . وهنا يقول الفيلسوف « لبس الحب كله ضرباً من الخبل ، وان كان يشبه في كثير من الوجوه . والاولى عندى ان يقال انه اكتشاف غير المحدود في نطاق المحدود ، اكتشاف الكل الخيالى في شخص الواقع الحقيقى . وهذا الاكتشاف بدوره قد يكون صادقاً أو كاذباً ، قد يكون ملائكياً أو شيطانياً ، قد يكون الهلماً أو جنوناً . بيد انه في كلا الحالين لا يخلو من عنصر الوم ، الوم الذى يتخذ من الواقع الحقيقى المحدود . نقطة ارتكاز لرافته الارخيدية ، فيحرك بها عالم الروانيات غير المحدود . والحقيقة ان الوم في حياة الانسان بلبجنة وباب سمير ، وملحياتنا الحسية الامسر ما مؤقتاً صغيراً ينصب عليه من هذين البابين سيلان عزيزان . من المورثات ، يمثلان هنالك ما يمثلان من المبكيات للمضحكت . ولو كان الامر

مقصورا على الحس لوحد المرء في الكفاف رضاه ، وفي شظف العيش هناءه  
ومناه ، ولكن سلط عليه الوم ، وهو لا ينفع له غلة ولو استولى على أبراج السماء  
وامتلك ناصية الجوزاء. الا ترى الى يروس كيف دوح الامصار ، وفتح الاقطار ،  
وهو مع ذلك لا يمتنسى من قلبي الشراب خيرا ، كما كان يمتنسى ؟ بل قل الا ترى  
اليك ايها المسكين كيف رحت تحلق في سماء الخيال ، وتشرف على حلقة الجنون  
والنبال ، كفنا وهياما بما تنتك الحسناء كأنما ليس في الارض غير هامن الحسان  
الفاتنات !

والظاهر انه كان يلتقي بها في المدينة كثيرا ، وذلك حيث يقول « وكذلك  
مر اليوم أثر اليوم وشمس قزاد ملشرة قمره بضائها ، وتخلع عليه من بهائها .  
يا لله ! لقد كان منذ لحظة واحدة يتخبط في حالك الظلام ولا يطلع من الحسان في  
نظرة عطف به في نظرة غرام ، وكان ضيف الايمان بكل شيء حتى بنفسه ،  
وكان لمزله وأزواجه ، وبأوه وكبريائه ، مع تمرنه لهجات الموم  
والاشجان ، والوساوس والاحزان ، قد أمسى طالبا بالغم والغيظ قلبه ، منقطعاً من اعز  
ما آرب الحياة امله . فكيف حالت به الحال وكيف أصبح اليوم القدا أصبح يحدث  
نفسه : أنها تلحظني بنظراتها ، فأنأ مدني بانأ اكون موضع الرعاية من  
اجل ذوات الحسن ، وأنبل ذوات النبل ، الاتاجني عيونها السوداء لا بأس  
عليك فما أنت بمحتقر الافرها الاقم من رسول رحمة وعزاء ، ويشير بنجاح نوماء  
وكذلك ظل الفتى تقيض في قلبه انعام رخيمة ، وتهفو في صدره فحات كريمة  
نحدثه بانهمو أيضا انسان من صلب آدم وحواء ، وبانه هو أيضا قد أعد له املا  
ذن سمعت من غبطة وسراء

«وسط هذه المؤثرات من حديث كالسحر الحلال بين جد وفكاهات ،

نصبي القلوب ساجيات، وضحككت كنبرات الالخان صافيات، وعبرات كاللؤلؤ  
 الرطب مترقرقت، يمازج كل هذا من الموسيقى صوتها الاعجم الفصيح، وغناؤها  
 المعنى المريح - ظل صاحبنا في هذا المهد السعيد يندو ويروح. نعم لقد حالت  
 الحياة، فاذا هي فجر مختلف الالوان ساطع السناء، وإذا بابرع شمس الجلال تنازل  
 صاحبنا الفتي، فاضحى طالع في نورها البهي سفر الطبيعة الحيد، وظل يضاحكه  
 من مشرقات الالمانى كل أمل جديد. لك الله أيها الحسناء اهل كنت الاكبعض  
 كواكب السماء، ناركها رفيقة كالماء، وشماع خضيل اللآلء؟ هل كان فيك  
 حتى من العيوب والنزوات، الا ما كان في نظر الفتي محاسن وملاحات؟ أو لم  
 تطلى عليه كنجمة المصباح الاسني، تستنزل أطيب الالخان من الملائ الأعلى، فاذا  
 أنفام سماوية، كالتي تثيرها تأمل دكاه الوردية، من مثال بمنون في البرية، ترن حواليه  
 وتغلا أذنيه، وتهدتحتة فراشا من الراحة وثيرا، حتى تتادده في أحضان  
 السعادة ضجيجا، قد انهزمت بين يديه جيوش الشك والهموم، وأزلفت له  
 جنات الآمال والنعم؟ اذن لقد كان حلما مزعجا كل هذا الماضى، واذن  
 لقد كان الفتي يعيش في جنة الخلد وهو غير مادارى. فاهو الا أن التقي بهذه  
 الحسناء، حتى انجلت عن عينه غشاوة السحر السوداء، فاذا بمجدران سجينه  
 المكروب، ثمناث وتغوب، وإذا بالاسير الموثق، حي يرزق، بل حر مطلق.  
 فياليت شعرى أكان الاسير يستشعر لمعتته حبا وغراما، ولوعة وهياما؟  
 لقد كان يشعر بأن قلبه ومهجته، وحياته وسعادته، كل ذلك ملك لها، وفداء  
 مستعذب في سبيلها، ولكنهما كان يجرأ على تسمية الامر حبا. ولاغر وقد كانت  
 حياته كلها عاطفة مبهمة، لم تبرز بمدى صورة فكرة ينة. »

نعم ولكن بروزها الى حيز الافكار ، بل حيز الافعال كان أمرا لا بد منه . فا كان حقيق ولا معتقة ، وكلاهما من أبناء الزمان ، ليستطيعا العيش على مجرد الماحق والوجدان . والظاهر ان الفيلسوف لا يزال حتى الساعة حيران لا يدري « كيف استطاعت هذا الحسنة أن تجذب قلبها اللين الرقيق ، وصدرها الحنون الرفيق ، من قوة العزم ومضاء الصريعة ، مامكنها من قطع هاتيك الصلات المباركة الكريمة . وبحك أيها الاستاذ ! ان الامر لا وضح من ان يحتاج الى بيان ، فحسبك ان تسأل نفسك قائلا : « هب ان الامر قدر على ما كنت أشتى ، ففي أية مكانة كانت تنزل ، وفي أى مظهر كانت تبوء ، مدلم تيوفلسدروخ بين طبقات المجتمع الراقية ، ودوائره العالية ؟ » أم هل كنت تحسب ان حرارة الحب في الصدور ، تنفي عن حرارة الاطعمة في القصور ؟ أما والله لقد أثبتت حسناؤك يوم آثرت عليك من هو أوسع منك جاها وأوفر نصبا ، انها أصدق منك فلسفة وأتقن نظراً !

لقد شهد القارىء كيف نشأ هذا النرام ونما ، وجعل برق في رونق يدبج المجتلى ، حتى بلغ ذروة السعادة والمنا . فليعذرونا اذا نحن الآن أمسكنا عن وصف مصرعه الوشيك في حضيض الشقاء ، وانكساره الوحي في هاوية الظلماء . لقد رأينا المتطاد الموقن البهيج ينهض من النبراء ، ويحتال صاعدا في الهواء ، ويشق أجواز الفضاء ، حتى بلغ عنان السماء . فاذا تنتظر أن ترى وقد اتعبر لما بسامل طيبي أو لحادث عرضي ، فهوى ممزق الاشلاء كل ممزق ، مفرق الاوصال كل مفرق ؟ كلا ملاقارىء من فائدة في وصف هذه المناظر الموحية ، بل حسبنا أن تلقى لمحة على الفصل الاخير من المأساة : « في ذات شارقة وجد الفتى نجمة صباحه قائمة كدراه ، محمرة غبراء .

لقد كانت الفتاة واجبة ذاهلة فرحة الأمل ، دامة الاحداق ، وبلاذ ! ملهى  
اليوم بنجم صباح ، يهدى الامل والانشراح ، ولكن شهاب منفر ،  
باقتراب الساعة ودنو المحشر . وقالت بصوت يتهدج : « الوداع الوداع فلا لقاء  
بعد اليوم » اذن لقد وقمت الصاعقة ، فلترك كل ما أبدى فى ذلك الموقف  
من نضرات لمفى ، وتوسلات ولمى ، وغضب متفرز ، وحنق متميز ، فقد  
ذهب كله أدراج الريح ، ولتسرع الى الخاتمة - « وقال الفتى بصوت يئم عن  
تجلد وأقة ، لان كرامته المبروحة أسفته فى آخر لحظة : « الوداع اذن أيها  
السيدة » فوضعت يدها فى يده وأنشأت تأمل فى عياه ، فإراعه الا تقجر  
مقلتيها بصيب من الدمع هتان ، فلم يشمر الا وقد اندفع اليها يضمها الى  
صدره ضمة تمناق فيها القلبان ، وعازجت المهجتان ، كما يتمازج من الندى  
قطرتان - ضمة كانت هى الاولى والأخيرة ، هى الفاتحة والخاتمة ، ثم ماذا ؟  
نعم ثم أسدلت على روحه أستار الليل الكثيفة ، وأرغيت حول مسجوف  
النياهب الخفيفة ، وارتفعت من كل صوب وناحية ، دمامم الزلازل العلوية ،  
وبلت بين أطلال الوجود الخيرية ، يهوى هوى فى ظلمات أغوار الهاوية ،

## الفصل السادس

### أحزان تيوفلسدروخ

مازلنا نثري بأن صاحبنا الفيلسوف رجل نسيج وحنق فى أخلاقه وخصاله ،  
غريب الشأن فى أطواره وأحواله . وانه لا تماثل أحدا فى طبع أو مزاج ،  
ولا يجارى مخلوقا فى مسلك أو منهاج . ولو كان كسائر الناس ، لأخذ وقد  
غشيت غاشية اليبس ، فيما يأخذ فيه كل طشق منكود من تخبط وصرع

وجنون ، ولهم ترائب وضرب جبين ، وتحطيم أدوات ، وقذف لعنات ، ونظم أشعار ، ومحاولة انتحار .

ولكن شيئاً من ذلك لم يكن . بل نرى صاحبنا وقد سوى حسابه القديم ، ودفن في أعماق الصدر همه المقعد المقيم ، يتناول عصا الترحال ، ويشرع حول الأرض في تطواف وتبحرال . فإن تعجب فاعجب لا تئلاف ماعهدنا فيه من حدة الإدراك وتوقد الوجدان ، مع هذا المظهر المدهش من رباطة الجأش وثبات الجنان . لقد عرضت له الحسنة الساحرة ، فسلطت عليه من نقائنها الماهرة ، مافتح أغلاق فؤاده المختوم ، فإذا كل ما فيه من غبوه ومكتوم ، يندفع ويتهزم ، كالجنى المنبعث من القمقم - ولكن ما كاد تيار السحر ينحبس حتى انفلقت خزانة القواد ، ولطه لم يبق لها في الوجود مقلاد ، لاف تجربة الحب ما كانت في حياتنا صاحبنا لتعاد .

وأعجب من ذلك أنه ما كاد يفرغ من هذا الحادث المقتت للقلوب حتى راح يمتدح أمراً طبيعياً ، وحدثاً حادياً ، لا يستحق أن يذكر عنه شيئاً . وإن ذكره فبأمثال الملاحظات الآتية : « لقد لاح في أفق الفتى ملاك شام في عينيه برق الأمل الأعلى ، فإذا هور قد أخرجه من ظلمة الموت الى نور الحياة . ولكن ما هي الالهة الطرف حتى غشيت وجه الملاك سحابة من وميض الجحيم ، فإذا الزواجر المهوراء تصصف بصاحبنا وتلوى ، وإذا بهقهة الآبالسة تصل في أذنهم تسوى ! » وفي موضع آخر يقول : « ما كان هذا النرام الا ادواراً كالذي يصرى راكب اليم ، فيخيل له لمخائل الفناء ، في تقار الهبة الخضراء - أمل من النورور كنوب ، وصراب من الباطل خدام ! »

كذلك مضى صاحبنا لطيفه ، وقد أخفى ما يتلطف في صدره من نيران



الوحد والكمد ، تحت ستار صفيق من الصمت والجلد ، يبدو لرائيه مثال  
الدعة والسكون ، أو تحدث لحدثيه عن كل عاصي من الشئون ، فلا يكاد يمر  
في خاطر الناظر اليه أن جحافل من الآلام تصطرع تحت هذه السكينة ، وإن  
جسما من الأبراح يفور وراء هذه الطمأنينة ، اللهم الا من خلال النظرة ،  
تبرق في عينه الفترة بعد الفترة ، فلا يدري إن كان هذا البريق لآلئ دمة  
مترققة ، أو شواظ لوعة متحرقة . وإنا لنذكر هنا ، اعترافا منا لكل ذي  
فضل بفضل ، أن اقتدار المرء على أن يحرق بين الضلوع مادة أشجانه ، كما  
يفعل بعض المداخن بدخانه ، هو فضيلة وإن تكن سلبية ، الا أنها من أجل  
الفضائل شأنا ، وأندرها في عصرنا هذا وجودا .

يبدأنا لا ننكر أن الطريقة التي لجأ اليها الفتى من الضرب في مناكب  
الآفاق لا تخلو من مسحة جنون ومس ، فقد أخذ يمتسف مجاهل الضراء ،  
ويتجشم العناء والوعثاء ، على غير خطة مرسومة ، وإلى غير غاية معلومة ،  
رائده الوحيد قلق هائم ، وقائده الفذ ضجر مستحکم . وانك لتجد في وصفه  
لهذا المهد من حياته من فرط التشوش والاختلاط ، والارتباك والاختباط ،  
ما يصور حالته النفسية يومذاك أصدق صورة ، وما ينادرنا نحن من معالجة  
مهمتنا في أصل حيرة . على أنا بلذون جهدنا في استخلاص ما نستطيع استخلاصه  
من هذه القوضى .

فإن ذلك مثلا أنا نجد المباراة الآتية ، بلا مقدمة ولا عميد : « شعور غريب  
ذلك الذي يمرى المسافر ، وقد ارتقى قمة من القمم ، فإذا به يرى في بطن الوادي  
بين الحماثل والبساتين ، وفي أحضان المعازل الطبيعية والحصون ، مدينة من  
المدن ، متضائلة على البعد كأنها صندوق من اللعب . عندئذ يخيل الى الرائي

أن برج الكنيسة القباب في الهواء إن هو الأصعب مرفوعة ، وإن ذلك السراق المنمقد من النخن إن هو إلا أنفاس الحياة . وكذلك النفس الآدمية لا تزال تلح من وحدتها ثوباً من الوحدة على كل شيء تنو إليه بعين المحبة ، فترى المدينة الحافلة ، وهي في ذاتها بمجموع من عديد الأكواخ والقصور ، تبدو لنا كأنها وحدة مندمجة ، بل كأنها شخص حي . ولكن ما هذا الشعور بجانب ما ينضم إليه من آلاف الخواطر ، إذا كانت هذه المدينة موطن أفراح لنا وأحزان ، ومرادفات لنا وأشجان ، إذا كان المهد الذي ترجنا فيه لا يزال قائماً هنالك ، وإذا كان أحبابنا الأحياء لا يزالون بيننا كنافها ينفون ويروحون ، وأحبابنا الأموات في مضاجع ترابها ينامون ، أترى صاحبنا وهو في قاتمة تجواله قد عاج بدافع التريزة تلقاء مسقط رأسه ، شأن كل طريد شريد ، فألقى إليه نظرة على البعد ، حتى إذا تذكر أنه لن يجد هنالك معونة انصرف هائماً على وجهه ؟

والظاهر أن متجه كان يمد يده إلى قفار الطبيعة كأنما راح يبتني في أحضان هذه الأم الرؤوم شفاء لأبراحه ، ويلبس الجراحه ، وذلك حيث يقول :  
« لم يكن ذلك أول عهد الجبال . بيد أنه قلما روت الجبال ، وقد اقترن فيها الجمال بالجلال ، كما في هذا المكان ، حيث الصخور مرسومة منضبة طبقات فوقها طبقات ، وهضبات من دونها هضبات ، في جفاء شكل وغلظة منظر ، ولكنه جفاء تطلقه من التضارة رقة غريبة ، وغلظة تنازجها من التضارة رشاقة عجيبة ، فترى الصخرة العبراء في هذا المناخ الخصب ، تطلع من تحت بساط الكلا القشيب ، في برودة مننسية ، وترى الأكواخ البيضاء ، في خلل الأشجار الغناء ، تجتمع كالمناقيد حول الجلامد المرمدية .

وهكذا تنعاقب الحلاوة والجزالة ، وتتناوب اللطافة والفخامة ، فيسير السائح على جواده في معابر مطردة خلال مغارم وبجاج ، تخترقها جداول متدفقة الأمواج ، وتكتنفها جدران من الصخر كالأبراج ، فأناير متمججا بين فجوات مريدة فائقة ، وأفناد من الجلمد الكالح متناثرة ، وأنا يطلع على واد ناضر ريان ، قد التقت في ساحته الجداول والندران ، فتألفت منها بحيرة فيسيحة الرحاب ، على منفافها الرطاب ، وجد الانسان مسكناً جميلاً ، وعيشاً رغداً وظلاً ظليلاً ، فكان السلام قد استقر في أحضان البأس ، وكان النعيم قد سكن في حمى القوة .

« ولكن هل يستطيع ابن الأيام ، أن يتطلع في دوامة هذه الحياة الى السلام ، وبخاصة اذا كان له من الماضي شبح مزعج لزام ، واذا كان المستقبل بأجمعه دجنة حمة الأشباح مرعبة الظلام ؟ كلا . بل لقد كان جديراً بالسائح الشريد أن يخاطب نفسه ( أوم تعلق أبواب السعادة في وجهك حتى لقاء المنون ، وهل جال بخاطرك أمل ليس بطائش مجنون ؟ ) ولكن تقدم ، فلقد قال حكيم الأغريق : ( من استطاع أن يرى الموت بعينه ، فلن يحفل من رؤية الخيال )

« عن هذه الأفكار وأمثالها من السوانح ، ينصرف ذهن السائح ، لأن الواحي ينتهي بنته ، في هذه البقعة ، حيث يقاطعه طود مشمخر الافناد ، لاسيلى الى ارتقاء ثنيته على صهوة الجواد . فما يكاد يصل مترجلاً الى قته حتى يرى نفسه قد ارتفع مرة أخرى الى ضوء الأصيل ، في منظر عجب ومسرح جليل : نجد واسع الاكناف ، مترامى الأطراف ، تنحدر عنه المساليل والندران ، وتفرع منه الشباب والوديان ، فتصب في كل ناحية من الاق

انصبابا ، أو تنساب على المهل انسيابا ، ثم ترى تحت قدميك سلاسل الجبال  
متراكبة الطبقات ، متراكمة الهضبات ، قد نجمت من هنا وهناك غارقاتها السماء ،  
كانها تشرف على بطيخة ملساء ، ولاحت بين ثناياها البحيرات صافيات  
الجمام في وهادها المطمئنة ، باردات النطاف في عزلتها المستكنة . وقد خلا  
المسكن ، من كل أثر للإنسان ، اللهم الا أن كان هو الذي مهد ذلك الطريق  
النافذ في صميم الصخر ، المقتحم لهذا الوعر ، كما يصل الملائق بين أطراف  
البلاد ، ويمقد الروابط بين أشنات العباد . ولكن عد عن هذا وول وجهك  
شطر مغرب الشمس ! فأية بهجة هنالك وبهاء ، وأية روعة ورواء ! يا لله كيف  
تذهب تلك القنن في أعالي الفضاء ، وتسمو الى عنان السماء ، كأنها اكليل  
هذا الاقليم الجبلى ، ومركز الدائرة لهذا المدرج الصخرى امثات ومثات من  
القمم الوحشية تبدو لعينك في أخريات ضوء الأصيل وهي تتوهج وتألق  
كأنما سال على جوانبها ذوب العقيان ، وفاضت على معاطفها حلل الارجوان ،  
مائلة هنالك في البداء كأنها عمارها الجبارة ، وملوكها المائلة ، وقائمة في  
جلال الصمت والعزلة لافرق بين منظرها في هذه المشية الساجية ،  
ومنظرها ساعة انحسر عنها الطوفان في السنين الخالية . وكان في هذا المشهد  
المتجلى لعين السائح بقعة ، من روائع الحسن وروائع الهيبة ، ما جملة يحقق  
اليه بنظرة كلها اعجاب وطرب ، بل حينئذ يوله . والحق انه ما كان يدري  
حتى الساعة ان الطبيعة كائن حي ، وانها أمه الرؤوم وانها مظهر إلهي ! وبينما  
كانت حمرة الشفق القانية ، تستحيل الى زرقة السماء الصافية ، وقد توارت  
الشمس بالحجاب ، واربدت حواشي السحاب ، أحس السائح همسا نديا ،  
خفيا ، كأنه همس الأبدية واللا نهاية ، وكأنه خفيف الموت والحياة ،

ينساب في أعماق روحه ، ويسرى في شباب نفسه ، فإذا به يشمر كأن الموت والحياة سبان ، وكأن الأرض ليست جثة هامدة ، وكأن روح الأرض قد استوت على عرشها البهي ، فجملت روحه تتاجها في ذلك الروق السني .

« ومالبت الأقبالا حتى أنجملت ذهبية النشوة بصوت عجلات قادمة .

فالتفت السائح ، فذا عربات فاخرات ؛ تجرها صافنات مطهات ، طالعة من

الشمال متجهة الى الجنوب . وكانت مزدانة بالزهر والريحان ، وكل الدلائل

تشير الى أن وسطاهن تحمل زوجين على وشك الاقتران . فطوبى لهذين

السعيدين ! لقد وجد كل منهما أخاه وهذه ليلة قرانهما ! وما هي الأحظاظ حتى

اقربت مني عربة المرومين ، فيأله ماذا أرى ! المهر توجد ويحاجبه ... من ؟

بلومين ! وحياتي الزوجان تحية يسيرة كتحية المتجاهل ومضيا لشأنهما ،

واختفى الموكب في ظلال الخائل وبطون الوديان ! الى أين ؟ الى الهناء والنماء !

الى الحياة المشرقة والمبشرة الخضراء ! اما أنا فبقيت وحيدا مع الظلماء ! »

من هذه اللحظة يبدأ على الحقيقة تجوال الاستاذ وتطوافه . اذ يظهر

أن هذا الحادث - حادث التقائه بالزوجين - قد محق ما كان لا يزال كالمنا في

صدره من بقية أمل ، فامسى لا قصد له ولا غرض ، وباتت الحياة في نظره

متاهة مظلمة الأرجاء ، كتب عليه أن يقضي فيها السنين وهو يحبط العشواء ،

بين أشباح تطارده من كل وجهة ، وشرات تترصده في كل خطوة .

وهنا نستطيع التقارىء عننا اذا نحن أمسكنا عن متابعة الأستاذ في

حله وترحاله ، وظلمته ومقامه ، فان أبسط وصف لهذه الرحلة الهوجاء لو كان

شيء من ذلك بالمستطاع - خليق بأن يلاء بطون العجلات الضخام . بل حسبنا

أن نثبت هنا الكلمة الآتية في بيان حالته النفسية : -

« وكان في نوع غريب من القلق والهيام، يستحني الى الاملم، ويحدوني الى الأقدام. وكنت أجد في الحركة الجنائية راحة وشفاء، ولكن راحة مكثوبة، وشفاء موقوف. أية غاية أنشد، وإلى أية كمة أقصد؟ لقد انطلمست من سائى نجوم الهدى، فلم أعد أبصر إلا أفقا متجبها. بيد أنى لا أجد بدا من التقدم، وكيف أجد لموطى قفى قرارا، والأرض تحنى أحمى من الرمضاء، في الهجرة النكراء؟ وكنت وحيدا لأطمئن الى سكن، وغريبا لآنس بألف، وكان ما يستلج في صدرى من النزاع السخيل، وما يتسر فى قلبى من الجوى والنليل، لانى يصور لى من الضمير خيالات وأوهاما، لأتفك أهم فى أثرها هياما، حتى اذا حسرتى الضنى وانهكنى الكلل، عدت أدراجى قائما من الغنية بخية الآمال. وكنت لأزال أشعر بأن هذا النليل الذى يتحرق بين أصلاعى لا بد أن يكون له ينبوع شفاء ينقع أوارده، وهطفى ناره، فكم كمة حبجت، وكم مورد قصلت، من رجال عظام، ومدائن عظام، وحوادث عظام، التماس السواء، وابتغاء الشفاء، فلا أجد ما يمس النليل أو يبرى الداء. رحلت الى الأنطار المجهولة، كما ظلمت الى البلاد المعروفة، وأقت فى الفياقى الخلاء المتأبدة، كما ثويت فى الحواضر المكتظة الفاسدة، فلم أجد على اختلاف الاحوال فرقا، بل رأيت الأمر كله سواسية، وكيف ينجو الهارب من ظله، وابن الزمان من اجله؟ وهكذا كنت أجدنى فى عجلة مرهقة، يسوقنى حاد خفى يسرع بى، الى أية غاية لأدري! وانما كنت أسمع صوته من أعماق الفؤاد يصيح بى الى الاملم! الى الاملم! انهم ولقد يخيل الى أن الرياح والانهار، والاشجار والاطيار،

والطبيعة كلها تهتف بي الى الامل ! الى الامل ! فيا لله ما كل هذا ؟ حقا انى  
ما زلت ان الزمان ، ذلك الطائر السجلان !

« تسألنى كيف كنت أرزق ، ومم كنت أعيش ؟ فهل فأتاك يا صاح أن  
تعتبر هذه الارض الخشاء ، للتغذية لجميع الأشياء ، أترأها تطعم المصفور  
المتنقل بين الاغصان ؛ ثم تميز عن اطعام ربيبها الانسان ؟ أى الله أن تموت  
قفس جوارها ما امت تميش وتمش . الرزق والمعيش ! انك لا تدري أى  
كيمياء صحية ، وأية قدرة غريبة ، تكن في النفس الآدمية المبتهمة ،  
وكيف تستطيع بأنملها الدقيقة أن تخلق ما يكتفى من الغذاء لجسمها خلقا ، ثم  
كيف تستطيع أن تخلق (لا بمجرد أناملها بل يجمع كفيها) خربا آخر من الغذاء :  
أشباحا وأغوالا ، توسمها تمذيا ونكالا ! »

وارحمنا لك أيها المسكين ، لقد كتب عليك أن تهيم على وجهك شريداً  
بلازمك من الجوع أبغض حليف ، ويطاردك من المهوم جيش كثيف ،  
فكأنما قضى عليك أن لا تنال نعمة الحرية إلا بعد أن تكتب « قصة أحزانك »  
على وجه البسيطة بمواطئ الاقدام ، كما كتب غيرك من قبل قصة أحزانه  
على وجه القرطاس بمعداد الاقلام . ولكن لا تيأس ، فلقد ولدت في عصر  
راجت فيه سوق الأنابل ، وقضى فيه وباء الأباطيل ، فلا غرو أن تشمر  
ررحك الفتية وقد شرعت تنبه حوالى المشرين بأن الدنيا بؤرة غش وبهتان ،  
وبأن الحياة كلها خداع وبطلان ، لا يتاح فيها النجاح ، الا لكل كذاب  
وقاح . ومن ثم قضت الضرورة ، على كل فنى بصيرة ، بأن ينفث لوعته ،  
في الصورة التى تلائم طبيعته . فهذا « جوتا » قد نثت في « أحزان ورتز »  
همومه ، وهذا « بيرن » قد أفرغ في ديوان شعره سمومه ، وهذا « نابليون »

قد نَسَّ من كرمه الكارب ، بأسلوبه المائل الصاحب ، في رواية غنائية موسيقاها قصف المدافع الداوية ، وهدات القلاع المتداعية ، وأنوار مسرحها لمع البوارق ، ويران الحرائق ، وأوزانها الموقعة أنين قتلى المارك ، ووقع زحف السنايك - فطوبى لمن استطاع كصاحب الفيلسوف أن يكتب هذه المادة - اذ كان لابد من كتابتها - على صحيفة الرغام ، بمواطئ الأقدام .

## الفصل السابع

( استحکم اليأس )

وراء هذه الحجب الكثيفة التي ترفع بها الاستاذ كان كيانه الروحاني لا محالة في حركة ونماء ، وهل في هذا التيار الجوح - تيار الحياة - يستطيع ابن الزمن جودا ؟ لقد أبصرناه يعاني في ذلك العهد الغامض كربة حرجة ، وبكابد أزمة عسراء ، فهل كان اضطرابه في الألق على غير هدى الاختمارا شديدا ، بل غليانا عنيفا ، كلما كان أشد وأقوى ، كان ما يتمخض عنه من ثمرة وزيدة أنضج وأصنى ؟

يبد أن أمثال هذه الازملت ، تكون أبدا مغممة بالالم المضيض ، فالنسر اذ ينسلخ من ريشه يبيت هزلا مدتها ، ولا يستحدث مقارا جديدا حتى يحطم على الصخر متقاره القديم . فها رأينا على ظاهر صاحبنا من تجلد واصطبار ، فلا نزاع في أن جوفه كان يتهزم كالرجل بسورة الالم وحمي الشقاء . أولم ير كل آمله في الحياة تصاب بالخيبة والاختفاق ؟ أولم ير الدهر الحقود قد أولع بالكيد له والسخرية منه ، وأبى الا أن يحرمه كل ما تشتهي القلوب الصبية ، وعمنه كل ما تلهف عليه الأفتدة الفتية ؟ بل لقد فعل به في



حادث الترام ملهوش وأدهى ، اذ قدم له كلس النعيم ، حتى اذا صارت في يديه ، وأذناها من شفثيه ، لم يرعه الا أن خطفها منه في لمح البصر . واذا كانت الحياة كما يقول الاستاذ قد بنيت على الامل ، واذا كانت الدنيا انما هي دار الامل ، واذا لم يكن للانسان فيها من قنية غير الامل ، فاذا بقي لصاحبنا بعد أن انكسرت من أفعه كواكب الآمال ، وتكاثفت حوله دياجير اليأس منذرة بكل مييد من الصواعق ومير من الانواء ؟

ويلاه ! ليت بأسه وقف عندا تقطاع الامل من هنما الحياة الدنيا ، ولم يتمدحها الى الحياة الاخرى ! ليت له وقد تداعي ايمانه بالمعجلة ، باتسليم الايمان بالآجلة ! ولكن الامر كان على غير ذلك ، فانه لما راح يتخبط في هذه الحياة الغائية ، أمسى وكأنه لم يسمع قط نبأ عن الحياة الباقية ، وذلك حيث يقول : « وجملت ظلمات الشك تراكم حولى طبقة على طبقة ، وتراكب حجابا وراء حجاب ، حتى أقيت نفسي في غيب من الاحاد طامس الاعلام والصوى ، يكاد ظلامه يقطع بالدى » فمن كان من القراء قد فكر مليا في أسرار الحياة ، وتبين لحسن حظه أن الروح ليست لفظا مرادفا للمعدة كما يدعي فلاسفة المادة ، وأنه لن يستقيم للانسان عيش ، ولن تنصلح لمحال ، الا بفضيلة الايمان ، تلك التي بها يستطيع الشهداء أن يحملوا آلام الصلب والفضيحة والمار ، وبغيرها لا يسع ابناء الدنيا ، وهم يتقبلون في احضان الخفض ، الا أن يتيقنوا حياتهم الخبيثة بالانتحار - أقول من كان هذا شأنه من القراء فهو خليق بان يرى في انهيار العقيدة الدينية انهيار الحياة من أساسها .

وارحمنا لك أيها المسكين ! لقد كان كل ما أصاب فؤادك الكريم ، من جراح وكلوم ، خليقا بان يندمل ويبرأ ، لو لم ينضب من قلبك بنضوب

إيمانك معين الحياة ، فلا جرم أن ترفع عقيرتك صارخاً وتقول : « أفليس  
 اذن في العالم آله ؟ أو كل ما هنالك على أكثر تقدير آله غائب ، قد جلس  
 خارج الكون منذ فرغ من ابداعه ، لا يصل قط شيئاً سوى أن ينظر اليه  
 ويشاهد دوران أفلاكه على البعد ؟ أو ليس لكلمة الواجب من معنى ؟ أو ليس  
 الواجب رسولاً آلهياً ، ودليلاً سماوياً ، بلوها كاذباً مزعوماً تصوره الحواس  
 الهيمية من رغبة ورهبة ، من وجل وأمل ؟ إيه أيها المتحدث عن ضميرك  
 المطمئن : ألم يبلغك أن بولص صاحب طرسوس ، وهو الذي رفعه الناس  
 الى مراتب القديسين ، كان يشعر بأنه رأس الخاطئين ، وكبير المذنبين ،  
 أولم يبلغك أن نيرون صاحب رومه كان لا يزال مرحاً طروباً ، يقضي  
 أكثر أوقاته في استماع الألحان ، ومنازلة الحسان ؟ عبثاً ما تحاول  
 يا صاحب المنطق أن تستخرج بمعاصر منطقتك لباب الفضيلة من قشور  
 اللغة اثم ويل للانسان اذا بات يشعر بأنه من أهل الحق والفضيلة ،  
 ويل له اذا بات يشعر بأنه ليس فريسة الألم فقط ، بل أيضاً فريسة الظلم .  
 ماذا تقول ؟ أهذا الالهام النبيل الذي ندعوه الفضيلة إن هو الا شهوة  
 حيوانية ، إن هو الا قوة دموية ؟ لست أدري ، ولكن الذي أدريه أنه اذا  
 كان ما ندعوه السعادة هو الغرض الحقيقي في هذه الحياة ، فكلنا إذن متالون .  
 وانا اليوم لقي عصر ملهى أهوال الضمير فيه لا تمد شيئاً مذكوراً بجانب  
 أمراض الكبد ، ويجدير بالانسان فيما أن يتمكن بفضل البلاد وجوداً المضم  
 من مصادمة كثير من الصواب ، وتذليل كثير من العقاب . فلنبن مقلنا  
 الحصين لاهلي دعائم الاخلاق واللكارم ، بل على قدور المطابخ ، ولتتخذ من  
 المقالي مجلر محرق فيها البخور للشيطان ، ولهتنا ما يقدم لنا من شهى

### الألمعة ودمع الألوان !

وكذلك نرى هذا الهائم الحيران ماثلاً بين يدي كهف الاقدار يستنطقها عما أحسبت، ويستخبرها عما أضمرت، فلا تلتقي من الجواب الاصدى مردداً، حتى كاد يسلم لليأس قياده، ويمنح للكفر قواه. ولكن حذار أيها القارئ أن تحسب صاحبنا، على ما كان يفوه به من هذه الملاحظات الموهجة، قد عاد خبيثاً شريعراً، فلم له ما كان في فترة من فترات حياته أشد رغبة في الخير، وأصدق ولاء للحق، منه في تلك اللحظة التي شهدت شكفي كل شيء، وارتياحه حتى في خالق الكون. وحسبك دليلاً على هذا قوله: «وأعجب ما في الأمر أني، على ما كنت أعاني من برحاء الألم بسبب هذا البحث والتساؤل، لم أزل اتفاني في محبة الحق، تقانياً، ولا غرو فلقد عقدت العزم على أن أنشد الحق وأنصره، ولو صعدتني دونه صواعق السماء، وأن أطارد الباطل وأهزمه، ولو حاول استمالي بكل ما في الأرض من ونعماء»

ثم يستطرد الاستاذ فيقول في معرض وصف حاله النفسية يومذاك: «ان شر ما ينتاب المرء من أليم الاحساسات احساسه بالضعف، او كما قال ملتون شاعر الانجليز (لما رأيت كالعجز شقاء) يبداه لاسبيل الى احسان المرء بقوة الا من طريق ما يباشر من عمل وما يفلح فيه من سعي، فان بونا شاسعاً بين القدرة الكامنة الغامضة وبين العمل البين الصريح. والواقع ان في كل امرئ منا شعوراً بنفسه، ولكنه شعور مبهم أبكم، لاسبيل الى ايضاحه واظفائه الا بالاعمال. فالاعمال هي الرايا التي ينظر فيها المرء نفسه ويتعرف قدره. ومن ثم كان قول القائل (اعرف قدر نفسك) هو كلمة حمقاء ومطلب مستحيل، فالم قول معناه بما هو ممكن نوماً أعني (اعرف ما نستطيع

عمله ) . غير انى لسوء حظى كنت حتى تلك الساعة لم اصادف فى كل مباشرت من عمل ومسمى غير الخلية والقفل ، وكنت اذا تأملت نتيجة اعمالى كلها وجدتها صفرا ، فكيف كان لى ان أومن بنفسى ، وليس فى يدى مرآة ترينها . ولطالما كنت أسائل نفسى قائلا : اترك قد أوتيت من الفضل والقدرة ما لم يؤت احد سواك ، أم انت أغبي من اقلته الفقراء ، وأسخر من اضلته الخضر ؟ وبلاه ان شر ضروب الكفر كفر المرء بنفسه ، وهل كان لى من سبيل الى الايمان بنفسى ؟ ألم أشاهد أول ايمان بها - يوم تفتحت ابواب السماء بين يدى ، ونزلت آية الحب بين جنبي - ألم أشاهد هذا الايمان الاول يتصوح وينوى ، كما تجف الزهرة فى لفحة السموم ! ألم أجد نفسى محفوقاً من هذا الكون بسر لا يزداد على كراياهم الا الغناز واستعجابا ، واستخفاء واستهما ؟ هل كنت فى هذا العالم الهائل المخوف الا ذرة عاجزة لم ترزق من أسباب القوة الا أعيناً تبصر بها فاضح عجزها ، وفلاح شقاها ؟ لقد كنت أشعر بان أسواراً منيعة ، ولكنها خفية ، تفصل بينى وبين الأحياء أجمعين ، وكنت أسائل نفسى : هل فى هذه الأرض ، ذات الطول والعرض ، صدر واحد خنون أضمه الى صدرى ؟ فيصمد الى الجواب من قرارة نفسى قائلا : كلا ! وكذلك لبنت كثيراً واجماً ، واصماً على شفتى قتلاً عكماً . وأية حاجة كانت لى الى التحدث لارثك المتلونين المتذبذبين المتسمين بالاخوان ، وم لا يعرفون الصداقة الا حديث خرافة ، ولا يؤمنون بالوفاء ، الا كآمانهم بأساطير القدماء ؟ تلك أيام أذكرها الآن فأعجب السجب كله للعرلة التى كنت فيها . كنت لا أرى فيمن يطفون لى ، بل وفيمن يتحدثون لى ، من رجال ونساء ، الا مجرد صور وأشباح ، لا تجول فيها أرواح ، وانما هى

آلات متحركة أسير وسطها في الطرقات ، وأخالطها في المتديتات ، وحيداً فريداً ، قد تملكني قفور وحش كالليث في غابه ، وكالنمر في شجابه .  
« وكذلك مرت الأعوام للتطاولة وكأني احتضر احتضاراً ببطيئاً .  
لا تنزل على قلبي من السماء قطرة ندى ، بل تطلني بين جوانحي جمرات الجوى .  
وكان شئون الدمع جفت في جفوني ، فلم أعد منذ عهد صباي أجد في مدامعي من المبررات ، ما عساه يطن في بعض هذه الجمرات . وكأني أقفر فؤادي من الامال جملة ، كذلك أقفر من المخاوف المميته جملة . فلم أعد أرهب إنساناً أو شيطاناً ، بل كان يخيل إليّ أني قد أجد بعض المراء لو أن كبير الأبالسة طلع على بأهواله حتى أبته بعض ممومي ، وأفضى إليه بحديث شجوني . ولكن المدهش العجيب اني مع تخلفي من كل خوف معين ، كنت لا أزال أشعر بخوف غامض مبهم ، يملأ روعي ، ويرجف ضلوعي ، لا أدري من أي شيء بعينه . بل كان يوم الي أن كل شيء فوق في السماء ، وكل شيء تحتي في الارض ، يوشك أن يوقع بي مكروهاً ، كأن السماوات العلى والارض السفلى ، قد اقلبت كلها فكي وحش هائل يوشك أن ينشب في أنيابه المذروبة ، ويلتهمني في أحشائه الرغية .

« في ذات يوم وتلك حالتي وهذا شعوري كنت أجوب شوارع باريس في هجيرة مسجورة الرمضاء ، إذ خطر ببالى خاطر على حين غرة ، فانشأت أسألك قسى : ( ما هذا الخوف الذي يقض وسادك ، وما هذا الجبن الذي ينشب فؤادك ؟ أي شيء تخشى أيها الاحق ، وما عسى ان يكون شر ما يترقبك في هذا الوجود ؟ أليس هو الموت وآلام الجحيم ، وكل ما يستطيع انسان أو شيطان أن يزل بك من مكروه ؟ وأي شيء هذا ؟ أولم تؤث قلباً فيه صبر

وجلد ، وشجاعة وشمم ، أو ليس في استطاعتك أن تصبر على البلوى وإن عظمت ، وأن تحمل المكاره وإن فدحت ؟ أو ليس في مقدورك وأنت من أبناء الحرية أن تدوس الجحيم بقدميك ، وناره ترعى بين جنبيك ؟ ليأت القضاء بما قضى ، فما أنا ذا متأهب لتلقيه ، متحفز لتحديه ! »

« وبيناهم الخواطر تدور في خلدي شعرت كأن صيما من النار قد غمر كياني ، وإذا بي قد فقت عنى إلى الأبد مقيت الخوف ، ورحت أشعر بقوة هجيية ، بقوة مجهولة ، كأنني روح مطلق ، بل كأنني لآله قدير . ومن ذلك الحين تغير إحساسى بالشقاء عن سالف عهده ، فاستبدلت بخوف الرعديد الجبان ، وحزن الممول الآن ، غضبا مقدسا ناريا ، وإباء اشم حيا ! »

« في تلك اللحظة كان ميلادى الروحانى ، أو قل تميمى النارى ، ومنذ تلك اللحظة بدأت أشعر بأنى أصبحت رجلا ؟ »

## الفصل الثامن

### في سبيل الشفاء

لا يحسبن القارىء أن ما يدعوه الاستاذ ميلاده الروحانى أو تميمه النارى كان غامعة مطافه . وكيف ذلك وقد أصبح حليفاه التئيب والاباء ، وما هما بجلينى راحة ولا بجليسى صفاء . بيد أن اضطرابه لم يعد ، كما كان ، اضطراب اليائس الحائر المذهول ، بل أصبح وله على الأقل قطب ثابت يدور عليه ، وأضحى الفتى يلح فى الحياة معنى ظاهرا يرتاح إليه . أجل إن الروح

التي طالما لفحتها لوافح الألم وعمفت بها عواصف الشقاء قد اخذت تشمر بحريتها ، قد اقتحمت حصن مملكتها عنوة واقتداراً ، وستبقى معتصمة به لا يستطيع أحد اجلاؤها عنه . وما دام الامر كذلك فلا نزاع في أنها سوف توفق على التدرج - بالجهد العنيف طبعاً - الى انتزاع ما بقي من الاستحكامات الخارجية ، والخافر الامامية . أو قل بمباراة اخرى ان الشيطان الذي كان يسكن قلبه قد تلقى حكماً لا يقبل معارضة ولا استئنافاً ولا تقضياً باخلاء المسكن ، واثن لم يكن قد أحلاه بالفعل فقد بلغت اخلاؤه أمراً مقضياً ، ليس منه مفر معها علت صرخاته ولعناته ، ومهما اشتدت تخطاته واضطرابه .

والواقع أن صاحبنا قد شرع يفيق من غمرته ، وينصرف عن التحديق في اعماقه الباطنية الى تأمل المراتب الخارجية ، وبدأ يقلع عن التهام أجزاء نفسه وينزع من الاشياء المحيطة به طعاماً أصبح وأشهى ، وذلك حيث يقول :  
« وكان من أوقع المناظر في نفسي وأشرحها لصدرى رؤية الحواضر والمدن ، لاسيما القديمة الثالثة ، كأنها دهاليز طويلة تطلع العين من خلالها في أعماق القدم ، بل كأنها قطع ملموسة من الماضي البعيد ، تأدت سليمة موفورة الى الحاضر القريب ، فوضعت بين أيدينا تتأمل في روعتها وتغلو للميون من جلالها ! هنالك في تلك المدينة القديمة أشعلت لأول مرة منذ التي حام أو قبل ذلك نيران المطامخ ، فابرحت مشعلة متوقدة تحش بما يجلب لها من وقود حتى لترى الساعة يميني رأسك دغاتها المتصاعد . ثم وهنالك في ذلك الوقت بعينه وضعت أيضاً تلك الجرة المتوقدة المعينة : جرة الحياة ، فابرحت حتى اليوم متوهجة متأججة ، يتصاعد دغاتها ( من قاعات المحاكم ) ويتراكم رمادها ( في قبور المدافن ) وتذكى منافخها ( من الممارد

والكنائس) ، أجل ولا يزال لهيها يطالعك من كل وجه كريم ، وكل وجه كريمة ، فيدفعك صلاه ، أو يلحقك لظله !

« إن أجل الثمرات التي يمنحها الإنسان من سميه ونجاحه إن هي إلا أشياء هوائية ، روحانية معنوية ، محفوفة في التقاليد المتوارثة دون سواها . فمن ذلك أشكال حكوماته وما تركز عليه من سلطان ، ومن ذلك عاداته ومواضعه ، وشرائعه وقوانينه ، ومن ذلك مجموع ذخيرته التي استفادها من معالجة الطبيعة والتي يدعوها الحرف والصنائع . كل هذه الأشياء ، على نقاسة قيمتها وشدة ضرورتها ، هي بما لا يستطيع حفظه في الأحرار ، وصونه وراء الأغلاق والاقفال ، بل لا بد أن تسري كالطيف على أجنحة الهواء ، من الآباء للابناء . فلذا حاولت أن تنظرها بطرفك ، أو تلمسها بكفك ، لم تجد لها أثرًا في مكان . صحيح أنك واجد من شئت من زراع ومعدنين وصناع ، وكلهم يلمسون باليد لمسًا ، ويروؤن بالعين رأيًا ، ولكن أين مستودع المهارة للتراكم منذ أقدم القدم ، من زراعية ومعدنية وصناعية ؟ أنها شيء لا يمحصر في مكان ، أنها شيء مشاع ، ينتقل على متن الهواء والشماع ، بواسطة الابصار والاسماع ، أنها شيء هوائي معنوي روحاني . كذلك لا تسأل أين القانون ؟ أين الحكومة ؟ فبئس ما تذهب الى ( دونج ستريت ) <sup>(١)</sup> وإلى ( سراي بوربون ) <sup>(٢)</sup> . فإنت واجد هنالك إلا ابنية من الطوب والحجر ، والأضابير من الورق . إذن أين ما يحدوثونا عنه من تلك الحكومات الدقيقة التركيب المتقنة الوضع ؟ هي في كل مكان وهي ليست في أي مكان ،

(١) مقر الحكومة الانجليزية في لندن (٢) مقر الحكومة الفرنسية في باريس



هي لا ترى الابعمالها وآثارها - انها أيضا شيء هو أن روحاني . ألم أقل لك ان حياتنا العادية اليومية هي كلها شيء روحاني ، وان كل ما قمضه يخرج من أعماق الروح الباطنية ، وأغوار القوة الخفية ، وان هذا الواقع المشهود ان هو إلا سحابة ضئيلة تنشأ من محيط الغيب العظيم .

« على أن ما يلمس ويحس من نتائج الماضي لا يتمدى في نظري ثلاثة أضرب (أولا) للذن بقصورها ومصانها (ثانيا) الحقول المزروعة والتي هذه أو تلك أو إلى كليهما مما تنتمي الطرق والجسور ، (ثالثا) الكتب . بيد أن هذا الضرب الأخير هو أحدث الثلاثة عهداً ، يتنازع الأولين بميزة ترفعه عنهما جداً . ولعم الحق ما أبدع وما أعجب شأن الكتب القيم ، الكتاب الذى يستحق أن يسمى كتاباً ! فما هو كالمدنية الجامدة البنية من حجر وطوب لا يزال البلى يلح عليها كل عام ، ولا تزال تحتاج إلى الترميم في كل عام ، بل هو أشبه بحقل مزروع ، ولكنه حقل روحاني ، أو قل هو أشبه بشجرة روحانية ، ماثلة في جلالها علماً بعد عام ، بل جيلاً بعد جيل ، أو ليس عندنا من الكتب ما يمد عمره بالآلاف من السنين ؟ ولا تزال تؤتيك في كل حول محصولها من الوريق الجديد ( ما بين شروح وتعليقات وحواشٍ وتفسيرات ورسائل ومقالات ) وكل ورقة منها لها فضيلتها السحرية وقوتها الخفية لأنها تستطيع اقناع الانسان . ايه يا من تستطيع أن تكتب كتاباً - وذلك ما لا يتأتى إلا لبعض النوابغ كل قرن أو قرنين - لا تحسدن الذى يدعونه بأن المدين ومعلمها ، وارحم من صميم قلبك ذلك الذى يدعونه فاتح المدين أو مدمرها ، أنت أيضاً فاتح مظفر وفار متعصر ، ولكنك من الغزاة الصادقين والفاتحين الفاضلين ، لان امتصارك ما كان على أخيك الانسان

بل على عدوك للشيطان ، أنت أيضا قد بنيت ماسوف يودى بمشيدات  
المرمر والصوان ، والحديد والصرقان ، وماسوف يبق على النهر مدينة  
للعقول عامرة ، وكعبة للانحياز طاهرة ، حافلة بالمعاني والجزات ، يحج  
اليها بنو البشر من كل عشيرة وقبيل ، في كل عصر وجبل . - أيها الاحق  
علام تمانى وعناء السفر لمشاهدة اهرام الجيزة أو - مقارة ؟ ماذا أنت مستفيد  
من رؤية اطلال ماثلة في البيداء ذاهلة جامدة ، قد مضى عليها ثلاثة آلاف  
من الاعوام وهي ترنو الى الصحراء سادرة سامدة ! أو ليس في استطاعتك  
أن تفعل ما هو خير وأفضل : ان تفتح انجيلك المنزل ! »

وهاك مثالا آخر يدلك على أن تيوفلسدروخ شرع ينسئ نفسه ؛ ويذكر  
ملحوله ، وذلك حيث يقول في وصف ميدان بعض الممارك ، ولعلها ممركة  
« واجرام » التي انتصر فيها نابليون على امبراطور النمسا -

« بالاشناعة والفضاعة ! ميدان واسع الاطراف ، متباعد الأكثف ،  
مكتظ الفناء بشظايا القنابل ، وخرابيش البنادق ، وحطام العربات ، ورفات  
الانسان والحيوان . ثم ماهذه السكبان للمدمنة القاذية ؟ انها اصداق الابدان  
انزعزت منها درر الارواح ، والقيت هنالك كاتها قبض منقاض ! هل كانت  
الطبيعة يوم أمرت هذا النهر المتدفق أن يحمل من شواحق الجبال أوسنق  
الطمي ، وينشرها هنا على بساط هذا السهل السوي - هل كانت الطبيعة  
أرادت بك ايها الميدان أن تكون « قلايخروج لأبنائها من البشر الثمرات  
والثاثيرات ، أم مذبحا في ساحته يجندلون ، قمرق منهم الاماء ، وتمزق الاشلاء ؟  
وهل كانت هذه المهابيع الثلاثة التي تلتقي فيك من أطراف أوروبا قد جعلت  
لعربات الاخيرة ؟ وهل كن ما أراه مبنيا في أنحائك من القري والساكر

ماهى الا حصون لآل هابسبرج ومعامل ، يضربون منها ويضربون فيها  
بالمداخع ، اشد ملشوه وجهك أيها السهل الأنيق ! زروع مقلّمة ذلّوية ، ويوت  
عمرقة خاوية ، وخائل أصبحت قلبي الميون بعد أن كانت قرتها ، وشجوى  
النفوس بعد أن كانت بهجتها ، تملأ الخياشيم بروائح الجيف والبارود ، بعد  
أن كانت تحيي الانوف بنفحات الورد ، وحقول أصبحت مستودع الجماجم  
والأوصال ، بعد أن كانت منابت الثمار والللال - بيد ان الطبيعة لا تقتر لها  
حمة ، وما كان الانسان مهما أسرف في الشر يستطيع أن يفسد عليها خطة ،  
فكل هذه الجيف وكل هذه اللعاء لا تلبث أن تختفي وتستحيل سدا ، ولن  
يحول الحول حتى ترى هذا الميدان قد عاد كمهد بل أزهى ربي وأنضروها ذا !  
لرب أيتها الطبيعة المجتهدة ! مقتصدة ، يامن لا يلب اليك الللال ، ولا يفت في  
ساعدك الكلال ، ويامن لا ترثين تخرجين من الشر خيراً ، ومن النكر  
عرفاً - حدثيني كيف تسنخلصين حتى من جيفة الميت ، حياة للحي ؟

« دعونا نتكلم باللغة غير الرسمية : ماهي النتيجة الصافية للحرب ؟ إلى  
أعرف مثلاً أنه يسكن ويكمدح في قرية « دمبردج » الانجليزية حوالى  
خمسمائة نسمة في العادة ، يختار منهم كل عام ، ما دامت الحرب الفرنسية  
مستمرة ، نحو ثلاثين رجلاً أشدها الابدان . هؤلاء الثلاثون قد تولت  
« دمبردج » رضاعتهم وحضائهم على نفقتها ، وما برحت تتحمل الآلام  
وللشاق في سبيل تربيتهم وتغذيتهم حتى باتوا رجالاً أخصاء اقوياء ، بل لقد  
تكفلت فوق ذلك بتدريبهم على مختلف الحرف والمهن ، فأصبح هذا ناسجا  
وذلك حداداً وذلك بناء وهلم جرا . ولكن بالرغم من كل هذا يصدر الأمر  
بتعبئتهم ، فيؤخذون وسط المويل والبكاء ، ويلبسون اكسية حمراء ،

ثم يرحلون على ثقة الخزاة العامة الى جنوب اسبانيا ، وهناك يظنون  
يطعمون حتى تمس الحاجة اليهم . في أثناء ذلك يكون ثلاثون صانعا فرنسيا  
ممن اخذوا بنفس تلك الطريقة من بعض قرى فرنسا متجهين هم ايضا الى  
جنوب اسبانيا ، حتى يتلاقى الفريقان بعد العناء والمعنى والجهد الجهد ، فيقف  
الثلاثون لتقاء الثلاثين وفي يد كل منهم بندقة . هنالك يصدر الامر بضرب  
النار ، فاذا بكل فريق يهدر ارواح الفريق الآخر ، واذا بنا نجد بين ايدينا  
بدل الستين من مهرة الصنّاع ، ستين جثة هامدة يتعين علينا ان نوارىها ،  
وعلى أهلها ان تبكيها ! ليت شعري هل كان بين الفريقين عداوة أو  
شحناء ؟ يعلم الله أنه ما كان بينهما قط شيئا . لقد كان كلاهما يعيش على بعد  
شاسع من الآخر ، وكان كلاهما عن صاحبه غريبا اجنبيا ، بل من يدري  
فعله في هذا العالم الواسع المريض كانت بينهما - من حيث لا يشعران -  
شيء من المماوة المتبادلة عن طريق التجارة . اذن فعلام هذا التناحر ؟ أيها  
الآبله ألا تدري أن حكومتيهما قد تشاحتا ، فبدلا من أن تتقاتلا اختاتا  
على هؤلاء الاغبياء المساكين فتقاتلوا ضمنا . وبلاء تلك هي الحال في جميع  
البلدان ، وكذلك كانت في جميع الازمان - صحيح أن احد كتاب الانجليز  
تنبأ في بعض رواياته بزوال الحروب ، فصور لنا صاحبي الشأن المباشر في  
الشحناء ، ينزلان بنفسيهما الى ميدان اللقاء ، وقد امسك كل منهما متبقة  
مملوءة بالكبريت ، فيشعلها ويطال ينفخ في وجه خصمه حتى يستسلم  
اضمغها لقرنه . ولكن الى ان يحين هذا العصر السلمي المتنبأ به اى قرون  
حموية لا بد ان تنقضى ، وای اجيال حرية لا بد ان تمر ؟

والظاهر ان هذه الفترة من حياة الاستاذ كانت من حيث تهذيبه

أرواحي من أترك أيام عمره وأخصبها، فاما باطنا فقد كانت عملية التفكير جارية مستمرة يساعده على اجرائها ميله الى السير على قدميه، وأما ظاهرا فقد كان في تطوافه يجد الكفاية من المناظر لمينه، وان كان لا يجد الكفاية من السلاوة لقلبه، وذلك حيث يقول : -

« لقد قرأت في أكثر المكاتب العمومية، غير مستثنى مكتبتي الاستانة وممرقند . وكنت ألتقى اللغات الاجنبية من مستودعها الطبيعي - الهواء ، بواسطة حاسة السمع . كذلك كانت الاحصائيات والجغرافيات والطوبوغرافيات تأتي الى عفواً من خلال العين . فاما ليب الانسان بمختلف البلدان في تحصيل القوت والدفع والوقاية - كل هذا قد تعلمته بالمشاهدة . أما عما رأيته من المناظر الجلية فحدث ولا حرج . لقد جلست تحت نخيل تدمر، وقضيت يوما بين أطلان بابل، وشاهدت بحيني رأسى سور المغول الاعظم .

« وأما عظام الرجال فا زلت أشعر من صميم قلبي بانجذاب اليهم، واني لا أغفر بان قليلا من المعاصرين لي منهم قد فانتني محادثته أو مشاهدته . وما عظام الرجال الا المتون الملهمة لتلك السفر المقدس التي تكتب منه سورة في كل حقبة والتي يدعوه بعضهم : التاريخ . أما من عدا اولئك العظام، من غمار الناس والدعاه، فهم لتلك المتون الملهمة حواش وتعليقات، وشروح وتفسيرات . وما كنت لاجل موضع بحثي ودراستي الا المتون نفسها . أو لم أقف متكرراً في زى خادم فندق بين يدي الشاعر العظيم « شيلر » والشاعر الاعظم منه « جوتا » مستمعا من حديثهما ما لن أنساه آخر الدهر .... »

وهنا نجس القلم عن ذكر الشيء الكثير مما يدعونا الحذر الى كتمانها

فا حسن بنا أن نهتك الستار ، من أسرار الكبار . يده أننا إذا رأينا فيه  
بعد أن الظروف قد تغيرت وأن الوقت قد حان للنشر فمتى لا ننضم على  
القرءاءة هذه النظرات المختلصة في دوائر الكبراء . أما الآن فليعذرنا القاريء  
إذا نحن لم نذكر قط شيئاً عن علاقة الاستاذ باللورد يرون والبابا يوس  
والامبراطور تارا كوانج وغيرهم من مشاهير مصر . كذلك لن نذكر عن  
علاقته بنايلون إلا أنها كانت جد متقلبة . ففي أول الامر كاد الاستاذ  
المسكين يضرب بالزصاص على أنه جاسوس ، وبعدئذ أدنى مكانه وأدخل في  
حظيرة الانس ، حيث لقي شيئاً من الملازمة وان لم ينفع بشيء من المال  
وأخيراً طرد أشنع طردة على أنه خيالي متطرف . وهنا يقول الاستاذ « الله أبوه !  
وهل كان هو الآخر الاخيالياً من أدنى غلاة الخياليين ؟ هل كان يعيش ويحبش ،  
ويناصل ويقاقل ، الا في الفكرة ، الا في الخيال ؟ لقد كان هذا الرجل - من حيث  
لا يشمر - مبشراً آلهياً ، كان يعلن بحجيرة المدفع ذلك المبدأ الخطير الذي فيه  
يتلخص انجيلنا السياسي ، وعليه وحده يمكن أن يقوم صرح الحرية :  
أعني « القوس لباريها والدولة لحايتها » صحيح أنه كان يبشر بلسان غير مفصيح  
ولامبين ، وأنه كان يخلط بتبشير كثير من الهذو والهذوء ، والتخبط والهراء شأن  
جميع المتحمسين المتصيين ، والمبشرين الاولين ، يدانه كان يبشر على كل حال  
بأقصى ما يحتمله موقعه من بيان ، أو قل أنه كان كالحد امرئيين  
الاول قطاع الغابات ، يزيل عن وجه الأرض النياض والادغال ، ويطارد الالوف  
من الوحوش والذئاب ، وأتى الحين بعد الحين ماثلاً له نفسه من سكر  
وعريضة وسرفة ، ولكنه يقوم بعمل لازم نافع سوف يباركه من يأتي بعده  
من الزراع وهم يحنون حصائد الحقول الواسعة ، وثمار الحدائق الياضنة . »

ولكن أعجب من كل ما تقدم ظهور تيوفلسدروخ على حين غرة في  
بجاهل الأقاليم الشمالية ، إحدى ليالي يونية ، وذلك حيث يقول :  
« سكُونْ كسكون الموت فإن نصف الليل لا يلمس ، حتى في الأقاليم  
القطبية ، خاصيته من السكون الرهيب ، والجلال المهيب . ثم ترى الصخور  
البلاء ، وردية حمراء ، وتسمع خريرا ناعما نديا لتلك المحيط الشمالى البطيء  
الخلفان ، وتلمح الشمس في حلشية الأفق معلقة ، وغطاء مكسال مرتقة ،  
كأنها هي الأخرى في سنة الكرى مستفرقة ، ولكن على فراش وثير ،  
من الصبير ، مصبوغ بالأرجوان ، ومرصع بالعقيان ، وقد انصبت أنوارها  
على مرآة الماء ، كمبود من النازر رتتش اللالاء ، ينفذ الى قاع الهاوية ، ثم  
يختفي تحت قدى في أغوارها الداجية ! في مثل هذا اللحظات تكون للوحدة  
قيمة لا تقوم ، فمن ذا الذى يستطيع احتمال تشويش المشوشين ، بل من ذا  
الذى يستطيع احتمال نظرات الناظرين ، حينما يكون وراءه سكان نصف الكرة  
الأرضية وكلهم ، ماعدا الحراس ، قد ركبهم شديد النعاس ، وامامه اللانهاية  
الصامتة وقصر الأزلية الجليل ، حيث شمسنا الباهرة إن هي الاقنديل كليل ؟  
« يبدأنى في هذه اللحظة الرهيبية أرى رجلا بل وحشا يطلع على من  
فجوات الصخور ، اغبر اشعث ، هائل الجثمان كأنه دب الشمال ، وأقبل يحينني  
بالروسية ، فلعله بعض المحترفين بهريب البضائع في تلكم الاتحاء . فاجتبه  
في رفق وإيجاز بلنى رجل لاشأن لى بهريب السلع ، وإنى لأقصد به سوءا ،  
ولا أنوى لاحد شرا . عبثا ما أقول ، فإن الوحش لم يزل يتقدم الى ، معتدلا  
ولاشك على ضخامة جرمه ، ومصما على أن يستفيد منى مطربا أو مكسبا ،  
ولو تذرع بالقتل الى غايته . وكذلك ما يرح يدنو الى ، هاجما على باقاس تقوح

منها رائحة الشحم ، حتى صار كلانا على شفا الصخرة والبحر العميق يزخر  
تحتنا شره المباب ، نهم الجباب ! أية أدلة عقلية وبراهين منطقية تنفع مع  
هذا الممجى الجاني ، بل الوحش الضاري ؟ فلمرى لو أن خاطبته بلسان الكرام  
المطهرين ، واستعطفته بكلام الملائكة المقربين ، لذهبت مقالتي أدراج الرياح .  
ولكني كنت أعددت لمثل هذا الموقف عدتي ، واتخذت له أهبي ، فتنبهت  
قليلاً بحفة وسرعة ، وأخرجت من حقيقتي مدسماً وجهت فوهته إليه  
قائلاً « تفضل يا صاحبي بالانسحاب وتسرع ! » ففهم الوحش هذه اللغة ، ولم  
تكن الالهة الطرف حتى ولى ينحدر بين الصخور ، وكأنه يمتد إلى مهمته .  
« هذه في نظري هي الفائدة الحقيقية للبارود ! اعني أنه يسوى بين  
الناس جميعاً في العرض والطول ، بل إذا كنت أنت أوسع مني حيلة وأربط  
جأشاً ، إذا كان عقلك أرجح من عقلي ، فأنت الأطول والأعرض ، وأنت  
الأقدر على قتلي مني على قتلك ، ولو كان جسمك النهاية الصغرى في الضالة .  
أجل بواسطة البارود أصبح جاثو موهون الأمر مفسوخ القوة ، وأصبح  
داود مرهوب البطش مخوف الخطوة ، صارت الحيوانية المتوحشة لاثي ،  
والروحانية المبدعة كل شيء ! »

ولنتظر الآن بعدما أوردنا هذه التفاصيل والجزئيات إلى غرضنا الكلي  
من هذا المبحث ، نمى ماذا كان يجري في أعماق الاستاذ الباطنية تحت تلك  
التطورات الخارجية . لقد كانت كل الدلائل تبشر بالخير ، وكانت كل الاعراض  
تؤذن بالشفاء . ولا غرو فان التجارب هي الطيب الروحاني الأعظم ، وقد  
ثبت تيوفلسدورخ بين يدي هذا الطيب أمداً مديناً يتعاطى ما يتعاطى من  
المقايف المرة ، ويتلع ما يتلع من البلايع الكريهة . فان لم يكن صاحبنا



المسكين أحد أولئك النفر المديدين الذين لا ينفع فيهم دواء ، ولا يرجى لهم شفاء - وهو ملأه من المستبعد - فلا ريب في أنه سوف يتمثل ويشقى . وحسبك أن تسمع ما يقوله في هذا الصدد عن نفسه : -

«وأخيراً بعد طول الاحتراق أصبحت ، اذا صح التمثيل ، متكسلاً لم تحب في شدة الحياة ، ولكنها صفت وبقية كاملة . لست أقول ان الشقاء لم يعد شقاء ، ولكني أصبحت أستطيع النظر من خلاله وازدواؤه . أى عظيم من العظماء ، في هذا الوجود الفناء ، الا رأيت ما طارد وهموما طريده ؟ لقد رفض القضاء كل رغبة من رغباتي ، ولكن ماذا كنت صانعا لو انه بلغني أقصى مراحى ؟ أولم أر الى الغلام المقدوني يبكي ويتحب لانه لم يعط نظاما شمسيا يفتحه ، بل مالا بمخافيره يدوخه ؟ رحماك اللهم ! انى لاحق في كواكب السماء ، فكأنها ترنو الى من أحماق اجوائها الزرقاء ، بنظرات ملؤها الرحمة والرثاء ، حتى لا أخالها أهيئا تتلألأ في احداقها دموع الشفقة والحنان ، لضالة حظ الانسان ! الوف من الاجيال ، لا تقل عن جيلنا هذا صخبا ولجبا ، قد ابتلعتها لجة الايام ، ولم يبق منها حتى الحطام ، وهذه النجوم الودية لا تزال تسبح في أفلاكها مشرقة سنية ، صافية فتية ، كما رآها الراعى لأول مرة في سهل شينار ! صلة لك ! ما هذا الوجار الصغير الحقير الذي يدغوه الارض ؟ ومن أنت أيها الجالس في مسمولا باكيا ؟ انك لاثى . ! صحيح هذا ولكن من هو الاثى ؟ انك من آل آدم منبوذ ، انك عضو مبتور ! وليكن ذلك فضلا خير لي وأبقى . » وراجعت لك أيها المسكين ! لشد ما ينقض العبد ظهرك ، ولكن الا ترى أنه قد شرع بفك قيوده ، ولن يلبث حتى يطرح العبد عن كاهله ويذهب حرا طليقا بمجد الشباب .

## الفصل التاسع

### ابلاج الأمل

« المحنة في البرية ! ومن ذا الذي منا لم يتمتعن هذا الامتحان ؟ إن آدم القديم ، المستقر بالوراثة من قلوب أبنائه في الصميم ، لا يمكن ازعاجه بغير جهاد وجلاد . وحياتنا هذه محاطة بنطاق من الضرورة ، ولكنها في جوهرها نقحة من الحرية ، من القوة الاختيارية ، ومن ثم لم يكن بد من أن نعيش في صراع يكون في مبدئه عنيقا قلبيا . ذلك بأن الوصية الالهية ( افعل الخير واصنع للمروف ) مكتوبة بحروف من نار على صفحات قلوبنا لا تمنع لنا راحة ولا قرارا ، لئلا أونهارا ، حتى نوفق إلى قراءتها واطاعتها وحتى تتجلى في أفعالنا شريعة نافذة وناموسا مطاعا . وبما أن الوصية الارضية ( اطعم نفسك واملا بطنك ) لا تزال في الوقت عينه تتادينا من كل جوارحنا وتهيب بنا من جميع أعصابنا ، فلا مندوحة من احتدام النزاع حتى يتغلب النفوذ السماوى على النفوذ الارضى .

« واذا كان ذلك كذلك فأى شئ هو أليق بالانسان حينما يتف به لأول مرة صوت الناعى السماوى وتبين عليه أن يكافح الحما المسنون فلما أخضعه . واما خضع له - أى شئ - أليق حينئذ بالانسان من أن ينتبذ في البيداء مكانا قصيا ، وهناك يتعدى المضلل ويصارع أشد صراع ، حتى ينهزم ويولى الادبار ؟ سم الامر كما نشاء ، فسواء أكان الذى يصارعنا شيطانا منظورا أم لم

يكن ، وسواء أكل الصراع يجرى في الصحراء المقفرة - صحراء الصخور والرمال أم في الصحراء الآهلة - صحراء القرم والسفال ، فالواقع التي لا نزاع فيه أنه ليس منا أحد الا يدعى الى اجتياز هذه المحنة . والويل لنا ان لم ندع الى ذلك ، الويل لنا ان لم نكن الانصاف رجال لم توهج على صفحات قلوبنا تلك الوصية الالهية زاهرة زاهية ، بل ظلت تحت رماد الشواغل الدينية خاية خافية . وكذلك أوتيت - لا أقول نعمة الفوز - ولكن نعمة الشعور بالجهد والعزم على مواصلة ما بقيت في حشاشة تردد . وكذلك كتب لى بعد أن لبثت مابثت حيران هائما في الغابة المسحورة اسمع عزف الجان ، وأشاهد من المناظر ما يشيب الولدان - كتب لى أن أجد مخرجا بعد لآى وعناء الى السفح المشرق البهيج - سفح ذلك الجبل الذى يصفاع بقمته السماء .

أكان لئن ما عاناه تيوفلسدروخ من التطواف في مناكب الارض والتجوال ، كأنه الروح الحائر أو طيف الخيال ، هو ما يدعو المحنة في البرية ؟ وهل كانت تلك اللحظة الخطيرة ، التي صرت عليه بشوارع باريس في تلك المحيرة - ساعة قال له الشيطان « أعبدنى وإلا مزقتك اربا » فأجابه ببت الجنان « اليك حنى فأنا منك ولا أنت منى » أكانت هذه اللحظة هي نقطة الانقلاب في سير الحركة ؟ حبيبا لك أيها الاستاذ اما كان ضحك لو قصصت علينا قصتك القرية ، بأسلوب جلى وعبرة قرية ؟ عبثا منا حاول أن نجد في هذه الاضابير التي بين أيدينا إلا طمحات خيال علق في الفضاء وثاب ، أو صوراً مبهمه كأنها ملفعة بالضباب ، ولعله قد أحس من نفسه هذا النقص حيث يقول « كيف أصور العين الجئان ، ما يجرى في قنس الأقداس من

سريرة الانسان ؟ كيف يمكن التلميح ولو بأبعد إشارة الى ما لا يحيط به وصف ولا يبر عنه لسان ؟ » بيد أنا تؤدي الى القارىء ما نستطيع أدائه من النبذ المقتطفة من هنا وهناك ، طه يلح فيها معنى متتابعاً ، وينظم منها حديثاً مفهوماً . يقول الاستاذ « لقد سكنت سورة الماصفة ، وخفتت زماجرها القاصفة ، وأصبح في استطاعة الروح بعد طول الصمم أن تسمع ما يجري حولها ، فأمسكت عن المضي في تجولاتي الموهجاء ، وجلست في مكاني أترقب وأتروى ، لاني أحسست أن ساعة الانقلاب قد حانت . وكان يخين الى أنى قد رحلت أسلم بكل شيء ، وأتزل عن كل شيء ، وأقول « اليك عنى يا خيالات الامل الكاذبة فلن أطاردك بعد اليوم ، ولن أومن بك منذ الان . وأنت أيضاً يا أشباح الخوف المرعبة ، لن أحفل بك ولن أبالي ، أنت أيضاً خيالات كاذبة وأوهام باطلة لا تجلسن هنا فقد أمسيت نضو سفر ونضو حياة ، لا تجلسن هنا ولولا أجل أن أموت ، فقد أمسيت والحياة والموت عندي سيان ، كلاهما في الحفارة صنوان »

ويقول الاستاذ في موضع آخر « وبيننا أنا واقف كذلك ، وقد اتى على النفوذ المملوئ غاشية من الناس الشاق ، شرعت الاحلام الفليضة تنجاب عنى شيئاً فشيئاً ، حتى اذا استيقظت وجدته في أرض جديدة وسما جديدة . لقد تم بحمد الله العمل التمهيدى الاول ، أعني عنى النفس ، فأصبحت أشعر بان العصابة قد حلت عن ناظرى ، والاغلل قد فككت عن ساعدى »  
والظاهر أن الكلمة الآتية تشير الى المكان الذى التى فيه الاستاذ عصا التسيار ، وجلس تلك الجلسة يتروى ويتروى فترى عليه ذلك الناس الشاق .

« ما كان أجمل الجلوس على تلك المفضبة الباذخة ، تلقاء الجبال الشاغرة ،  
فارقا في خواطرى وتأملاتى ، أحسبني في سراقى سماوى سقفه القبة الزرقاء ،  
وجدرانها أربع ستائر لازوردية فضفاضة ، ستأثره الرياح الأربع الخفافة . هنالك  
استعرض فى الخيال ، صورة ما اكتن فى بطون الأدبية وثنيات الجبال ،  
من قصور مشرقة ، فى شمائل موققة ، تزينها كل حورية حوراء ، ومليحة  
حسناء . أو أنخيل ماعو خير من ذلك واملح : صورة الأكوام المسقفة بالقش ،  
حيث تجلس الامهات بين أولادهن يخزن الخبز . كل هذا وان توارى عن  
ناظرى بين أجزاع الوادى كائن هنالك لاشك فيه ، كائن أراه رأى العين .  
ولربما رحت أتأمل تلك القرى المنبثة حول مقعدى الجبل ، تحاطبني من  
أبراج وأقفاها بلسانها الحديدى ، وتملن حيويتها آنا بعد آن ، بما تصعد من  
سحب الدخان ، تلك السحب التى كانت لى بمثابة مزولة تعلم بها عدد الساعات  
والأوقات ، لأن هذا الدخان كان يتصاعد من المطابخ كلما عمدت الأزواج  
الكريمات فى الصبيحة أو الظهيرة أو المساء ، الى اغلاء القدور للبعولة  
والأبناء . فكلما حل وقت من هذه الأوقات القيت عموداً من الدخان الأزرق  
يتصاعد من كل قرية ، ويقول بعبارة جليلة : « الآن يجهز الطعام للوجبة  
الفلانية بمنظر لعمرا الحق انيق ! فانك لترى كل قرية بما حوت من محبات  
وعداوات ، ومعادنات ووشايات ، وخلاقات واتفاقات ، ململة هنالك تحت  
عينيك كأنها لعبة صبي لوشت لنطيتها بقيمتك - حقا لن كنت أثناء تطلواق  
قد تعلمت ان أنظر الى تفاصيل الأمور والجزئيات ، فهنا موضع تجميعها الى  
كليات ، واستنباط ملشتت من الاستنتاجات .

« كذلك كم من مرة شاهدت الزواجر الموهجاء ، مقبلة غضبي من أقصى

القضاء ، حتى اذا التقت ببعض القدم السماء ، فوجدتها مربطة بخبراء ، جعلت تدور حولها وتدوم ، وتلى وتهزّم ، ثم تنتشر في منفرج الاجواء ، كالنول ناشرة شعورها السماء ، وما هي الا برهة حتى تسكن الماصفة ، وتبدو القمة في لآلئ الشمس ضاحكة ناصعة ، لأن الزوينة قد كستها حلة من الجليد لامة . ايمانها الطيبة المحيية ! كيف تختبرين وتنظيرين تلك الخاية الهائلة التي ندعوها القضاء ! بل حدثيني ما انت ؟ لماذا لا ادعوك باسم الله ؟ الست أنت ردامه الحي ؟ الست أرى جلال الحق يسطع من خلاصك ويتكلم بلسانك ويبش فيك ويبش ، كما يبش في ويبش ؟

« جعلت تبشير هذه الحقيقة تلوح بصيرتي ، كما يلوح سنا الفجر لحابط الظلماء ، فكان وقعها في نفسي أظنى من صوت الأم في مسمع طفلها التائه الجيران ، وأعذب من نعم للعشوق في اذن الماشق الولهان . ولاغرو فقد أنشأت اتبين أن العالم ليس محزنة تمزق فيها الا بالستور قص الاشباح ، وانما هو بيت الله ورواؤه ، ومظهر الحق ورواؤه .

« وصلت أيضاً أن أنظر الى اخواني في الانسانية بعين أخرى ، بحسب لا يعرف نهايته ، ورحمة لاتحدها غاية . لهن عليك أيها الانسان البائس ، المضلل الطائش ، الاقاسى ما قلنى من الوان الشقاء ، وضروب البلاء ؟ الست سواء أتحايلت في حل الملوك ، ام تضاهلت في اطوار صملوك ، ذلك العاجز الضعيف ذا العبء الثقيل والجناح المبيض ؟ هل لك على كل حال راحة أو مستقر ، الا في جوف القبر ؟ ايه يا أخى ! لماذا لا آويك بين جوانحي ، وأمسح عن مقتلتيك دموع الامل ؟ أجل ان صنوءاء الحياة تلك التي مازلت اسمعها باذن مخيلتي وانا متكئ في عزلي لم تعد لي كما يصم الآذان ويشوش الادهان ،

بل صعباً شجياً ، وهتافاً ندياً ، كأنه أنين مبهم ورحيم ، يصدر من مخلوق اعجم بهم ، ويصمد الى مسامع السماوات ، فلذا هو دعوات وصلوات . واضمحبت أرى أن هذه الأرض الفقيرة ، وما حوت من المطايب الزهيدة للضرورة ، هي ابي اللدقة المسكين ، لامرأة ابى القاسية الضنينة . وصار الانسان على حقارة ما ربه وخرق مساعيه ، احب الى منزلة واعز في قلبي مكانة . بل لقد أصبحت من اجل آلامه وآلامه ادعوه أخى وشقيقى . وكذلك التفت قسى ما تلا بين يدي هيكمل الاحزان ، لأدري من أى طريق وعرو مسلح موحش ارشدتني اليه خطلى ، فاهى الالهية حتى تنفتح لى اعماق الحزن الالهية ، واسراره المصونة الربانية ،

وهنا يقول الأستاذ انه ابصر لأول مرة تلك العقدة التى كانت قابضة على عقله ، آخنة بكفله ، فبادر الى فكها عن عقله ، وراح فى الحال خراً طليقاً . وذلك حيث يقول « لا يزال ينشأ فى كل نفس منذ بدء الخليقة الى اليوم جدال عقيم لا طائل تحته ولا نهاية له فيما يدعونه « اصل الشقاء . ولا بد لكل نفس تريد الانتقال من حال التألم الماطل الى حال الجهاد العادل من حل هذه العقدة . بيد ان اكثر الناس فى عصرنا هذا يكتفون بحسبها حسماً غير مبنى على الايمان ، وقليل هم الذين لا يهدؤون او يهدنون الى حل يرضيهم . وما زال هذا الحل يختلف باختلاف الاجيال والمصور . فكلماء جاء عصر جديد اصبح الحل المقبول فى سائعه عتيقاً باليا لا يصلح للاستعمال ، ولا يطابق مقتضيات الحال ، لان الانسان مدفوع بطبعه الى تسيير لهجته واسلوبه من عصر الى آخر ، لا مندوحة له عن ذلك مهما اراد وحاول . ولقد عاجلت هذه المسئلة فاهتديت الى الحل التالى : ان شقاء الإنسان نتيجة عظمتة .

الإنسان يشقى لان الطبيعة اودعته مطالع غير محدودة، لا يستطيع معها احتال  
وتصرف اشباعها بما يملك من الوسائل المحدودة . أفلو تالفت شركته تضامنة  
تضم جميع من في العالم من المالكين والمجدين والحلوانين افتراهم يستطيعون  
أن يحملوا شخصا واحدا ، ولومن مساحى الأحذية ، سعيدا سعادة حقة ؟  
كلا أنهم لن يستطيعوا ذلك الا مدي ساعة أو ساعتين ، لان مساح الاحذية  
قد أوتى فضلا عن معدته قسا نهمة لاسبيل الى اشباعها وارضائها الا اذا  
استولت على ملكوت الله باجمعه ، لأقل ولا أكثر ، تمرح فيه كما تشاء ،  
وتستمتع به كيفما تشاء . افتحصبه لو اعطى نصف الكون بلا شرك ولا  
منازع يبيت قائما بقسمته ، كلا اقله لن يلبث حتى ينزع مالك النصف الآخر  
نصيبه ، وبجواهره أنه أشقى خلق الله واسوؤم حظا . ان ضياء الشمس الذي  
نسير فيه لا يزال مشوبا ببقعة سوداء ، تلك البقعة هي ظل أنفسنا ، وهل  
ينجو المرء من ظله ؟

« بيد ان هذا الوم المتسلط علينا من حيث السعادة انما ينشأ كما يأتي :  
فتفرض من تلقاء أنفسنا افتراضات ، وتقدر تقديرات ، نستخلص منها  
متوسطا مملوما لما يجب في حسابنا أن يكون حظنا في الحياة ، ثم نتوم ان  
هذا الحظ المتوسط هو من حقنا بحكم الطبيعة ومقتضى العدالة ، وأنه لا يمدو  
أن يكون الاجر الذى نستحقه باستعدادنا ونسأله بمواهبنا ، اذا استوفيناها  
كاملا فلا عمل لشكر ولا موضع لشكوى ، أما إذا اختلف حظنا عن ذلك  
للتوسط فالتزادة نمدوها سعادة والنقص نمتبره شقاء . فاذا لاحظت أننا نحن  
الذين تقدر استحقاقنا لأنفسنا بأنفسنا ، واذا ذكرت أى مقدار وفير ، من  
الزهر والفرور ، قد أودع كل ابن أم منا هل يكون من العجب أن نذهب



بمبدأ في اللئالة بأقدارنا ، فيختل التوازن أيما اختلال بين مانديه لنا حقاً  
و بين ما توثاه من الحظ فعلا ، حتى ترى كل غبي أحق يصيح متعللاً :  
« أنظروا أى أجر بخس أعطى ، تأله ما عومل انسان هذا للعاملة السوأى ! »  
أيها الاحق ما هذا كله إلا من غرورك ، إلا بما يقوم في وهمك عن جدارتك  
واستحقاقك . توم أنك تستحق الشنق ( وهو الاصح في الغالب ) تجنمن  
السعادة أن تضرب بالرصاص ، توم أنك تستحق الشنق بحبل في دقة الشجرة  
تجد من السعادة أن تشنق بمرس من الكتان .

« حقاً ان كسر الحياة ليزداد بخفض مقامه أكثر مما يزداد برفع بسطه .  
بل ألم يجدك علم الجبر أن الواحد الصحيح مقسوما على صفر ينتج لاهية ؟  
إذن فلتجعل مانديه لنفسك من الاجر صفراً ، تجد أن الدنيا بخلافها  
تحت قدميك . لقد أصاب أحكم حكماء هذا المصر حيث قل « انما تبدأ الحياة  
حيث يتم انكار الذات »

« في ذات يوم سألت نفسى قائلاً : اخبرنى أيها الانسان لأمر ما أراك  
من عهد بعيد تائراً غضباناً ، أسفاً أسياناً ؟ قل وأوجز ! أليس لانك غير  
سعيد ؟ أليس لان نفسك ( أيها السيد اللطيف الظريف ) لا تلقى ما يكفيها  
من الحفاوة والتعظيم ، واللذوة والنعيم ، والمعلم الشعى ، والمهاد الوطنى ؟ منة لك  
من أحق مغرور ! أى قانون من القوانين ضمن لك صفاء العيش وغورك  
حق الهناء ؟ منذ قليل من الزمن لم يكن لك حق حتى في الوجود ، ومن  
يدريك فلما ولدت وقد كتب عليك أن لا تكون سعيداً ، بل أن  
تكون شقياً تيبساً ؟ ما أراك إذا الا عقاباً شرها منهوما ، تخلق في هذا  
الوجود بلحناً عن طعمة تلتهمها ، وصارخاً بأعلى صوتك ، لانك لا تجد من

ارم ما ميلاً فراغ بطنك . اغلق يا صاحبي ديوان يرن <sup>(١)</sup> وافتح ديوان جوتي <sup>(٢)</sup> .

ثم يصبح الأستاذ في موضع آخر هافد لآح لي وميض الحق افاثي لأرى في الانسان شيئاً أرق وجوهر أعلی من شغفه بالسعادة . في قدرة الانسان أن يستغنى عن السعادة ، وتكفيه مكاتها البركة والقناعة . أليس من أجل التنويه بذلك الشيء الارق ، والتنبيه الى ذلك الجوهر الاعلى ، أن الحكماء والشهداء ، والائمة والشعراء ، في كل زمان ومكان مازالوا يرفعون عقائرهم بالدعاء ، ويكابدون ألوان المذاب والبلاء ، مقيمين الدليل بحياتهم ومعاتهم على أن الانسان لا يخلو من نقعة الهية ، وعلى انه بغير هذه لا يكون له حول ولا حرة ؟ وهذه العقيدة المنزلّة من رب السماء قد تشرفت أنت الآخر بتعلمها ، وابتليت بصنوف العذاب الشاق ، وأنواع البلاء التي يملأها رحمة ونعمة ، حتى تصير نفسك الى الخشوع والانكسار ، وحتى تدرك الحكمة الدنية حتى الادراك . فاحذر بك على ما أصابك ، وتحمل ما بقي لك بقلب صابر ، ولسان شاكراً ، لانك بحاجة اليه ، ولأن النفس التي بين جنبيك يجب أن تعمق وتسحق . وكذلك لن تلبث في قلب وتعلل بينما عناصر الحياة تستأصل من قرارة نفسك شأفة المرض المسكين ، وتنزع من أحمق صدرك أصل الداء البغيث ، حتى تفوز على الموت فوزها المبين . هنالك

(١) الشاعر الانجليزي المعروف وكان لا يزال متبرعاً بالحياة ساخلاً عليها نادياً حظ

الانسان فيها داعياً الى اليأس منها

(٢) كبير شعراء الانان وهو ينظر الى الحياة نظرة هادئة ودية يقبلها على حلالها

مستمتعاً بما فيها من خير .

روح وقد أمتك الناية من الزمن ، لا يطويك تياره العالى ، ولا يضرك غماره الطاغى ، بل تظل محمولا على مناكب لجبهه ، مرفوعا على ذرى ثبجه ، حتى يؤدبك الى صفاء الابدية وملكوت الخلود . ايه يا نفس لا رغبى فى اللهو وارغبى فى الله ! هضمى الحكمة السرمدية بفضلها تنحل المشكلات ، وتتسق المتناقضات . فأخلق بمن سار عليها وسعى ، أن لا يزل فى خير وهدى ، ثم يقول الأستاذ فى موضع آخر « احقر بهذا الذي تفخر به من أنك تستطيع أن تدوس الارض ومظالمها بالاقدام كما علك زينو حكيم اليونان . إن فى وسعك أن تصنع ما هو خير وأبقى - فى وسعك أن تحب الارض بالرغم مما تسومك من الظلم ، بل من أجل ما تسومك من الظلم - لأن بث هذه الروح السامية السمحاء كان يحتاج الى من هو أعظم من زينو ولقد بث الينا فى دوره . هل أتاك حديث « عبادة الحزن » ؟ ان معبدها فلك الذى أسس منذ ثمانية عشر قرنا خلت ، قد أصبح اليوم ألقاضا واطلالا تملوها الاعشاب الوحشية ، وتسكنها الحشرات المزعجة ، ولكن لا تجفل بل أقدم ، فهناك فى قبوت تحت الاقراض المتناحية لا يزال المنبح قائما سليما ، والمصباح المقدس متوقدا وهابا . »

وهنا يطلق الأستاذ لقله المنان فى مباحث الدين والوحى والنبوة والكرامة بكلام غامض مبهم يؤثر أن تضرب عنه صفحا ، ونكتفى بإيراد البتة المفهومة التالية :

« فى هذه الحياة الدنيا ، حيث لا تزال مع الوقت فى حرب مبهكة ضروس يترامى لى أن كل حرب أخرى لا موجب لها ولا مبرر . أيها الانسان هل بينك وبين أخيك الانسان خلاف أو نزاع ؟ إذن فنصيحى اليك أن تفكر

في الامر مليا اليس معنى هذا الخلاف اذا أنت سبرت غوره ، انما هو ما يأتى «صاحبي تأمل ! انك تأخذ من السعادة أكثر من نصيبك - انك تأخذ جزءا من نصيبى أنا ، وذلك لمرالحق ما لن اسلم به ، بل أولى بي أن أحاربك دونه مويلاه ! كل هذا والغنيمة التى عليها يتكالبون ، ومن أجلها يتحاربون ، هى شئ حقير سفساف ، هى مجموعة من القشور والاصناف ، لالب فيها ولاشعة ، ولا تكاد تشفى من ملايين النعمات نهمة . أفأ كان أجدر بنا وأجبى أن نقول فى مثل هذه الاحوال «خذ أيها المنهوم الشره ! خذ هذا الجزء الاضافى الحقيقى الذى اعتده من نصيبى ولكنك تريد لنفسك . خذ بارك الله لك فيه ، لئنى كنت أملك ما يكفىك ويشفيك » لا أقول ان هذا هو كل واجب الانسان ، وانا هو نصف واجبه ، هو الشطر السلبى منه ، لو استطاع الى أدائه سبيلا .

«على أن العقيدة ، معها صحت وقويت ، فهى شئ عديم القيمة ان لم تصبح جزءا من السلوك والخلق ، بل هى فى الواقع لا وجود لها قبل ذلك ، لأن الآراء والنظريات لا تزال بطبيعتها شيئا عديم النهاية عديم الصورة ، كالدوامية بين الدوامات ، حتى يهيم لها من اليقين للتؤسس على التجربة الحسية محوّر تدور حوله ، عندئذ تصير الى نظام معين . ولقد صدق من قال (لا يزول الشك معها كان إلا بالعمل ) لذلك انصح لمن يقاسى التخييط فى الظلام البهيم ، أو يساقى التعميت فى الضياء الكليل ، ولا يزال يتضرع الى ربه ، ويرجو من مريم قلبه ، أن يسفر الفجر للبتس عن صبح معين - أن يضع فى سويداء فؤاده هذه الحكمة التالية : «ابدأ قبل كل شئ بالواجب الذى بين يديك ، بالعمل الذى تعرف أنه واجب ، فانك ان فعلت اتضع لك الواجب التالى »

« بل ألا يصح القول بأن ساحة امتلاك الروح إنما تكون حينما يقين  
 عليك الدهوشة أن هذا العالم الذى مازلت تجاهد فيه جهاد المغم الحيران ،  
 وتتحسر تحسر المالجز اللفان ، هو بذاته عالم الكمال المطلق الذى تصبو اليه  
 وتتلطف عليه - حينما يتضح لك بين التجب والاستغراب ان ذنباك  
 الجديدة هى فى هذا المكان ، والا فستحيلة الامكان ؟ والحق انك لن تجد  
 فى مقامات الحياة مقاما الا وله واجبه الاسمى ، ومثله الاعلى ، فهنا فى هذه  
 الحالة القائمة والظروف الراحنة ، على يؤسها ومهايتها ، ونكدتها وحقاتها ،  
 نعم هنا فى الموقف الذى أنت فيه ، يوجد المثل الاعلى الذى أنت به هائم كلف ،  
 فأكدر لتحصيله ، واحمل لتحقيقه ، وكن حيا مؤمنا ، حرا مطلقا ! أجل  
 أيها الاحمق ! إن المثل الأعلى هو فى ذات نفسك ، والعقبة أيضا فى ذات  
 نفسك ، وما حالك فى الدنيا إلا الماددة الأولى ، التى يصور منها ذلك المثل  
 الاعلى ، وما عليك أن تكون للماددة من هذا النوع أو ذلك مادامت الصورة  
 التى أنت ملبسها ليها ، ومفرغها فيها ، كريمة جميلة ، ورائحة جليلة . فيا من  
 تنوح فى سجن حياتك الراحنة ، وتجأر بالنهائ الى الآلهة ، طالباً اليهم أن  
 يمنحك علماً تفرد فيه بالحكم والانشاء ، تعلم هذه الحقيقة وهى ان ذاتك  
 المشودة هى فى حوزتك ، ودرهن قبضتك ، هى فى هذا المكان ، وإلا  
 فستحيلة الامكان ، لو كان لك عينان تبصران !

« والواقع أن مثل الروح كمثل الطبيعة ، مبدأ الخلق فى كليهما النور .  
 فحتى تصبح العين بصيرة لا بد لسائر الاعضاء أن تظل مقيدة مناوله . فيا لها  
 تلك من لحظة مقدسة اذ يقال للروح الجائشة المضطربة ، كما قيل مرة للسديم

المصطفى « ليكن نوراً ». هنالك تنقطع زمجر الخلاف الداوية ، وتألف العناصر المصطرة المتبادية ، فإذا أجواء منفتحة ، وأفلاك منفتحة ، وإذا جبال تبني في الحضيض كالأوتاد الراسيات ، وإذا قمم يرفع في السماء مزينا بالكواكب الثاقبات ، حتى تجد بين يديك مكان السديم المظلم الجوانب ، المائج الغياهب ، دنيا تشرح الصدور بهجة وبهاء ، ونضرة ورواء !

« وكذلك أصبحت وفي استطاعتي أن أقول لنفسي « لا تكن بدم اليوم سديماً ، بل كن عالماً نظيماً ! اتج ، اتج ما في قدرتك انتاجه ، بالتمام بلغ من الزهادة والضالة ! إنه قصارى مجهودك فلتخرجه . هيا بك لا تقعد عاجزاً طاملاً ! بل مهما تناولت يدك من عمل فاعمله بأقصى قوتك وأبعد همتك ! اعمل مادام الوقت نهراً ، قبل أن يدركك الليل فلا تستطيع الى العمل سبيلاً »

## الفصل العاشر

### الختام

لقد تتبعنا تيوفلسدورخ في مختلف أطوار حياته حتى بلغ رشده الروحاني . وسنراه منذ اليوم « سامياً في عمل الخير » رامياً الى الناية الجديرة بالانسان . نم لقد استكشف أن المصنع الخيالي الكامل ، ذلك الذي ما في . يتشوف اليه ويتلف عليه ، هو بيمينه هذا المصنع الفعلي الناقص المدعة والاستعداد ، حيث ما برح يسميت ويشتر . وأما الآلات فقد وجد منها كفايته ، وذلك حيث يقول : « الآلات ! اليس ذلك عندك منها ما يكفيك ! كيف ذلك واني يكون وما من انسان ، بل ملن شيء ، يعيش في هذا الوجود الا وقد أوتي

ما يعوزه من الآلات ؟ ان احقر المخلوقات - ذلك المنكبوت الذى تقتحمه  
 العين - قد اوتى منزلا ومنسجا ومنولا ، كلها مركب في رأسه الصغير ، وان  
 ابلد الحارات قد اوتيت آلة هاضمة يصونها بيت من الحجر والجير ، وكذلك  
 ما من شئ حتى الاوفى قدرته أن يعمل عملا . آلات اليس لك ذهن متار ،  
 أو قابل للأفارة ، بوميض من العلم ؟ اليس لك ثلاث انامل تمسك بها القلم ؟  
 فله در القلم أى عصا سحر هو وأى خاتم ملك ا من عهد موسى وعصاه ، أو  
 من قبل ذلك ، لم ير الناس أعجوبة هي أربع وأبدع من القلم . والواقع ان  
 هذه الاداة الدقيقة قد أظهرت من الآيات البينات ، والمعجزات الباهرات ،  
 ما هو أعظم وأفضل من كل خارفة مذكورة ، ومعجزة مشهورة . وانه لمن  
 عجائب هذه الدنيا ، التى ظاهر شأنها الصلاة والجلود والنبات وان تكن  
 على الدوام فى قلق ومرج واضطراب ، ان الصوت ، وهو فى الظاهر أهون  
 الاشياء خطرا وأوشكها فناء ، يكون فى الباطن أدومها أثرا وأطولها بقاء .  
 ولقد صدق من قال ان الكلمة هي صاحبة الصولة والسلطان فى هذه الدنيا ،  
 وانه بقوة الكلمة يصبح الإنسان الهيا يقول للشيء كن فيكون . فانهض  
 أيها الإنسان من رقدتك ، واتبه من غفلتك ، وانفت ما يبعث فى قلبك ،  
 وبلغ ما أوحاه اليك ربك - فاقدر لابن آدم عمل هو أشرف وأسمى من  
 الدعوة الى الحق . ولئن أعطيت ولو أدنى مرتبة فى ديوان هذه الدعوة  
 فلحسبك من الشرف النبيل ، والمجد الاثيل ، ان تنفق عمرك وتقى قواك  
 فى هذه السبيل ا »

« وكذلك اتبع لى أن احترف هذا الفن الرفيع الذى كثيراً ما مرأه مع  
 الأسف ينسقط فى بعض الأيدي الى حرفة وضيفة . فكم من كتاباتلى ،

وان لم تكن منسوبة الى (ومن هو أنا حتى أحفل بل ينسب شيء الى؟) فقد  
القيتها في ذلك الحقل العظيم الخصب : حقل الآراء، وكما رأيت مع الارتياح  
ثمّرات غراسي طالعتني من هنا وهناك ! فالحمد لله الذي هداني الى مهنتي ،  
لتسفر مجهوداتي فيها عن نتيجة أو عن غير نتيجة ، لقد صممت على المضي  
فيها بكل قواي .

وهنا يقف الناشر أخيراً ، غير واجد بدا من الأعراب عن شبهة الهمية ،  
ما رحت تجول في خاطره خلال الفصول الأخيرة من هذه الترجمة وتمنض  
مما في قلبه من بقية حساسة كانت لا تزال تجمل واجبه الشائك عملاً محبوا .  
تلك الشبهة هي أن عتريات هذه الوثائق جلها أو كلها ان هي الا تسمية . وهل  
بيد أن يكون كثير من الأمور الموصوفة هنا بأنها وقائع ان هي في الحقيقة  
الا خيالات ؟ هل بيد أن يكون كل ما تضمنته هذه الأناشير ليس صورة  
شمسية لحياة الفيلسوف ، بل مجرد صورة رمزية تشير الى الحقيقة لتليحها  
لاتصريحها ، وتورية لاتوضيحها ؟ ان الذي نرجحه أن المهر هفريات اذ حسب  
الصورة الرمزية صورة حقيقية كان خدوما هي أمره ، كما كان مسلطاً على خدع  
غيره . والا ناشد تلك الله كيف يعقل أن رجلاً مروعاً بفرط الاجتهاد وشدة  
التكتم كصاحبنا الاستاذ يتطوع دفعة واحدة وبكل صراحة فيفتح اغلاق  
قلعه الحصينة لناشر انجليزي ولهفريات الملقى ؟ اليس الاقرب الى المعقول  
أن يكون غرضه استمراجهما حتى اذا حبسهما في دهايزها اللتوية وسرايها  
لظلمة أنشأ يتأمل كيف يكون . نطر الاغرار المنفلين ؟

ولكن فليعلم الاستاذ أنه مهما خدع فتمة واحد على الأقل لن ينخدع  
نوميه . لقد قرأنا أخيراً على إحدى القصصات ، التي كنا قد القيناها جانباً



أول الامر بسبب عدم وضوح الخط ، العبارة الآتية : « ماهذه التي تسميها وقائع تاريخية ؟ اتحسب في مقدورك أن تكتنه انسانا ، بله نوما بشريا ، بمجرد نقلك عقداً من هذه الخرزات التي تسميها وقائع ؟ انما الانسان بما نوى ، بالروح التي تحلوه ، لا بالعمل الذي يؤديه . وما الواقع الازموز منقوشة ، لا يهتدى الى سرها الا بالقلوب ، أما غيبائك فلا يفهمون أسرارها ولا يفحصون ممانها ، بل همهم أن ينظروا الى حسن نقشها أو رداءة ، الى موافقتها أو مخالفتها للآداب . وشر من ذلك أجلافك فلقد رأيت بعضهم يقرأ « روسو » مدحيا فيه متكلفا تفسيره فاذا هو يخطيء . افسى الأبدية حسبها اياها زاحفة عادية . » أكان الأستاذ اذن يوجس خيفة لئلا يخطيء ، فهم أقامه ناشر كالناشر الراهن يد نفسه من صفوة الناشرين ، فسد من أجل ذلك الى تغيير شكلها وابرازها في صورة رمز أوضح وأبسط ؟ أم هل هذه أيضاً إحدى انصاف حقا تفهموا أنصاف أضاليله ، تلك التي لا يفك يرسلها كالسهام الشاردة لا يمينه أن وقتتولا ماذا اصاب ؟ لستنا ندري على التحقيق ، ومن الحال ، وهذا شأن الاستاذ في غريب أطواره ، أن ندوى . فاذا كان اشتباهنا قلما على غير أساس فيليرجع باللائمة على أساليب المربية ، لاعلى احترامنا الواجب .

يبد أنه كيفما كان الامر فقد عول الناشر ، وقد بلغ منه الاين والضجر ، على أن يلقي من يده مؤقتا هذه الاضايير . وحسبنا أننا عرفنا من الاستاذ حتى الآن « الروح التي تملكه وحدها ، وان لم نعرف العمل الذي أداه » لاسيما وان كيانه الروحاني ، قد أفرغ الآن في قلبه النهائي ، فلم يدمن المتأمل استكشاف شيء جديد ذي خطر . لقد صارت الشرقة المحبوسة فراشة عنجبة ، وسوف تظل كذلك حيثما كان مطاوها . فلنن تبيننا الاستاذ في

حركاته وتقلباته خلال أحوال الحياة الظاهرية حتى يصل أخيراً الى كرمى  
الآخرة ، لما أسفر عملاً عن نتيجة جديدة بهذا المجهود . لقد رأينا تيار حياته  
الخارجية يتحول عند « مصرع النرام » الى رشاش بخار ، فلتتركه سلفاً في  
الجو كما رأيت ، وحسبنا اننا قد وقفنا على اتجاه مجراه العلم ؛ مما تبيننا هنا  
وهناك من برك وجمام . بل ألم نعرف فوق ذلك ان هذا الرشاش البخار قد  
تكاثف من عهد بعيد فزل مطراً وسال قليلاً وانه الآن في مدينتي سونتشتو  
يجري حقيقاً هادئاً بحيث تراه عيون الناظرين ؟ انى فلتكثف مؤقتاً عن  
التفتيش في هذه الامتياز - عن الحفر في هذه المناجم ، وان كان هذا لا يمننا  
من المودة اليها القينة بعد القينة والقاء نظرة على ما احتوته من مادة تقبسة  
مبشرة هناك كالجوهر بين الاغبات .

والآن وقد اعترطنا أن نمود الى كتاب الملابس فقد يحق لنا أن  
نتساءل عن مبلغ التقدم الذي تقدمناه خلال هذه الفصول الاشر من ترجمة  
الاستاذ نحو ادراك فلسفة الملابس على حقها . وما نحسب أن الجواب على  
هذا السؤال يكون كله سلباً . فلقد وقفنا - على حد التشبيه الآف يانه :  
تشبيه الجسر الممتد من بلب الجحيم الى حافة الارض - الى اضافة بضع صنابل  
خائفة ، وان لم تكن قد ثبتت بمدى مواضعها ، بل لاثزال مضطربة على متن  
الفيضان . أما الى أين ينتهي هذا الجسر متى شئت بالسلاسل اومائه ورجلتي  
جزاؤه فذلك مسألة لاثزال حتى الآن في حيز التخمين .

والحق اننا قد استعلمنا أن ننظر في سريرة الفيلسوف من خلال خصائص  
سيرة حياة حتى أصبحت معالم تلك الصور الغريبة التي تصورها عن الوجود  
الكيفية التي ارتسمت بها في ذهنه ، غير خافية علينا ، فأرؤه المحيية عن

الوقت - تلك الآراء التي هي جذيرة بكل اعتبار والتي لا يجتمعن فيهما على التأمل - حقيقة أن تتكشف عن معانٍ جلية - وأخلق منها بذلك ربه في الطبيعة وانها وحدة مينة - ألا يلج القارىء في قوله عن الطبيعة ومن الحياة انها رداء - رداء حتى نسج ولا يزال ينسج على نول الوقت - ألا يلج القارىء في هذا الخطر الهيكلي الخارجى لفلسفة الملابس بمخاضها ؟ انصف الى ذلك أن اخلاق الرجل لم تمد سرا ملتزا ، ألا ترى أن نوحا من الإباد الحى مقترنا بنوع من الخشوع القياض يبرزان من وسط الكثيف من النמוש ويزدان خلال المظلم من الابهام كأنهما السماتان الخليقتان بأن يؤسس فوقهما ويشاد عليهما كل ماعدهما ؟

بل ألا يصح القول بأن ترجمة نيوفلسدورخ - وإن لم تكن فيما ترجع الا صورة رمزية - تعرض علينا مع ذلك صورة رجل كأنما أعدته المقادير لفلسفة الملابس ، لقد كان في جميع أطواره مسوقا ومفروحا دفا للنظر خلال مظاهر الاشياء الى ذات الاشياء ، وكان كل ما جرى له من تقلبات الخط وتصرفات الايام من شأنه أنه يقوى في نفسه تلك النزعة السلبية التي انطبعت فيه - مذ نومة اضفاره ، وكان مثله في المجتمع كالزيت في الماء محرما عليه أن يمتزج بفراذه في عمل أو في اجتماع ، فلا غرو أن يكون نصيبه العزلة والاستغراق في التأمل . والواقع أن جميع قواه ظلت طوال سنين عند منعصرة في حمل واحد : تحمل الألم ان لم يجد الى شفائه سيلا . وكذلك ظلت مظاهر الاشياء أيضا راح وحيثما اقتضى تضغطه وتكربه وتهدهه بالطب التبريع والمهلك القطيع ، فلم يكن يبعد الى السلام والراحة سيلا الا باقاذ نظره خلال مظاهر الاشياء الى الاشياء ذاتها . ولكن اليس مجرد النظر خلال

للظاهر- وهى بمثابة الملابس- الى الأعياء ذاتها هو المقدمة والتمهيد لفلسفة  
الملابس؟ ألا تلمح فى كل هذا بواذر الفرض الحقيقى الاسمى من هذه الفلسفة  
والشكل الذى يجب أن تتخذه فى يد رجل كهذا وفى عهد كمهدنا هذا ؟  
وما نحسب القارىء الكريم ، وهو على أبواب الكتاب الثالث يجهل  
الآن كل الجمل أين يساق. وما نظن أنه سيموزنا ، مع كل ما لا بد أن نخوضه  
من متاهات ومضال ، أن تلمح الحين بعد الحين وميض نجم قطبي ثابت .

---

## الكتاب الثالث

### الفصل الاول

أعظم حادثة في التاريخ الحديث

لقد رأينا تيوفلسدروخ منذ الفصول الأولى من كتاب الملابس يتكشف شيئاً فشيئاً عن رجل يحب للمحب ، منقب عن المحب . وكان من دواعي النهش أن نراه ، بالرغم من غموضه واستغراقه ، يخلص الى لباس الكائنات بعصر نافذ وبصيرة ثاقبة ، فلا يجد في الظواهر الحسية معها كانت رفيعة عالية ، الأردية قشبية أو بالية ، ولكنه من ناحية أخرى يري تحت هذا الظاهر جوهر روحانيا ابرز للبيان ، بفضل هذا الأردية والخلق . وينتهي بطأً بتقديمه خرق للمادة بما حوت من زخرف وزبرج إذا به يرفع الروح الى أعلى المراتب ، ويضعها فوق هام الكواكب ، ويهيئها بمخشوع واجلال ، وان تراحت له في أحقر الاشكال . أما ما يري اليه المؤلف من القباء ناره الاغريقية بهذه الكيفية في خزانة ملابس الوجود ، أما ما سوف يؤدي اليه هذا الاحراق والتزويق لكل ما شتمت عليه الحياة من مظاهر وظواهر فذلك ما سوف يستكشفه القراء الآن ، ذلك في الواقع هو الترضي الأسمى والمرى الأقصى لفلسفة الملابس :

ولكن لا يتوهم القارئ أنه سيقع على هذا الترضي مكشوفاً مستنبطاً ، بل كل ما يري أن ترشده الى مكان وجوه لكي يستنبط بنفسه . نعم ان مهمتنا تنحصر في ارشاد القارئ الى هذا الأقليم القبيح الجديد ، وفي دلائلهم

على مواقع المتلجم ، ولكن ليس علينا أن نقب فيها باقتسا ونستخرج منها  
ملحوت من سبائك ، بل هذا واجب القراء ، فليهم ان ينقبوا بانفسهم ،  
ويحملوا من التبر ملوحت حقايبهم .

ولا يحسن القارىء مع ذلك أن مهتنا الآن قد أصبحت أيسر مشقة  
وأهون عناء ، وأما خرون بأن نسير الى غرضنا بخطو واسع حيث في  
طريق مبد طول . كلا ! قليلة لا تزال كما عهدنا عناء وشدة ، والطريق  
لا تنفك غمضة وعرة ، وكل أملنا أن نلتقط الخطوات المتقاطعة وثبة ،  
وان نختار لمواظبة أقدامنا المواقع المناسبة ، علنا يربط هذه المواقع بعضها  
الى بعض نستطيع أن نهي القارىء (على حد التشبيه القديم) وسط هذا  
الخطم المضطرب جرسا صالحا للعبور . ولنبدا الآن بالتقاط التبعات لا يتقاطعا  
جديرة بالاختيار :-

« ريتا كانت أعظم حادثة في التاريخ الحديث لاجتماع ورمس<sup>(١)</sup> ولاواقمة  
« أوسترلند » ولامركة « فورتولو » ولاملحة « يترلو »<sup>(٢)</sup> ولا اية واقمة أو معركة  
سواها ، وإنما هي حادثة أجمل ذكرها أكثر للتورخين ، وللع اليها بعضهم مع  
الاستخفاف والتحقير . وأعني بها خصف « جورج فوكس » ثوبا من الجلد  
ليتشبه نفسه زهاء !

وكان هذا الفنى اسكتلا ، وكان أحد الذين يصطفيهم الله فيميط عن  
بصائرهم حجب الجباله ، ويهتك عن اقتضيتهم غشاوة الغرور ، فيصرون

(١) جمع غنيمه فيا في سنة ١٥٢١ ودعا اليه بلوك أوديا وإبراهيم . انظر في أمر

« فورت » متبع المثيب الروتيستانى

(٢) كل هذه أسماء سارك حرة لتالبيون الا كبر

الحقيقة وجه الوجه، ورونها ساطعة رائعة في بهجة الجلال، ونهاه الجلال،  
قد صوم تارة أنبياء القوم عايط وحيه، وزفهم تارة الى مراتب الآلهة.

« وكان هذا الإسكاف يحل في حاوية الحفير، مكبا على رقعة الاديم  
يقدها ويغريها بين وكلم مركوم من الخارز والاشافي، والخيوط والنراء وما  
اليها من مختلف الادوات والآلات. ولكن كان بين جنبه نفس جيلشة  
كبيرة، وكان تحت عينه كتاب منزل قديم، تطلع روجه من خلال آفاقه،  
كما تطلع العيز من خلال النافذة، وتلمح اعلام وطنها البعيد، وتشم يشر  
سماها المقدسة. وكانت هذه النفس الشريفة أكبر مطبعا من ان يقتنها  
صنع ازواج الأجنحة وحقق صناعة النعال وحرار مسك الخوايا بل وناوات  
تسمع من خلال الطرق على الاديم والقرع بالشرك اصواتا وافعة من ذلك  
الوطن البعيد، وتلمح دوايق وروائع تلوح في هاتيك البهاء المقدسة. ولا  
غرو فان هذا الإسكاف كان - كما قدمنا - انبانا، وكان يرى هيكل الوجود -  
ذلك الذي ارسل اليه ليكون من سد تم قد اقيم بمقدي الاسرار ويظهر اليها.  
« فزلى القى وجهه شعل قساوسة الى النواطين بشرح هذه الاسرار  
وللماني، ولكن القساوسة كانوا كلما جاء يلمس منهم الزيد يصرون اليه  
وعلى وجوههم مالى ظلمر وضجر مرون ثم يصيحونه آخر الامر بان ينفى عن  
قفيه هذه الوسوسة، ويترد من ساحة صفرة ظلمر الخوايا، عايرة بنت  
الحان، والرقص مع الحسان. فلهذا لم من ممي يتجودون، مما الا بر بالذ  
يجمع المشور لم ونحي، وتخلط لهم تلك اللباس والقلائد والوسوي،  
وتشبه للمايد والكنائس وتبي، ان كان الانسان عرودا كلة عايدة وكانت  
العلم ومليقاتها هي الحقيقة الخلقى؟ ظلمر من فيه في كس فزير اعترف

ودموع هائلة ، واقبل على نعاله وتمسك بأخميه . وليئت هذه النفس مقبورة تحت هضاب وجبال ، من الموم والامثال ، ولكنها نفس أية قوية لن تمكث دهرها في ذلك السجن المطبق ، والرمس المرق . فكم من نهار أفنت نياضه ، وكم من ليل امضت سواده ، وهي تجاهد في طلب الحرية جهادا صامتا ، وتكافح في سبيل الخلاص كفلا عتيفا . والله كيف كان ذلك السجن المائل يرمج بنيانه ، وتميد أركانه ، وهو في يدي تلك النفس الجبارة تهز مخات المئين وذات اليسار حتى تفسخ وتباهي ، فإذا هي قد خرجت من دجى الظلماء الى نور السماء ! ولو كشف الله عن بصار الناس لوجدوا ذلك الخانوت الحقير حيث كان يجلس ذلك الاسكاف المسكين اشرف من «فانكلن البابا»<sup>(١)</sup> وأقدس من معبد «لوروتو»<sup>(٢)</sup> . وقد كان مما يحدث به نفسه «اننى اذا لبثت هكذا مشدود العينين ، مغلول اليدين ، مقيد الرجلين ، بانواع التكالييف والمبايلات ، وضروب الموم والحاجات ، فلن استطيع حرا كالون أن أبلغ مراما ، بل أعيش مأعش أسيرا مظللا ، واموت اذ أموت جلعلا مظللا ، على حين أن الأجل طائر عجلان ، والجنة عالية ، والنار هالوة ! ايها الانسان أجل في مالك الفكرة ، ان كان في رأسك من العقل ذرة أى مانع يمنعك من الخلاص ، أى حائل يحول بينك وبين النجاة ؟ الحاجة ! الحاجة الى ماذا ؟ اتحسب كل ماقى الارض من اثمان الاحذية مستطيا اجازتك الى دار البقاء ؟ كلا فلن يستطيع ذلك الا التامل والاعتبار ، والخلوص لوجه الله والادكار ! على النابلات الى النابلات ! حيث تأوي طوق الاشجار ، وتنزى القواكه البرية والثمار ، وتكفى

(١) قصر البابا في روما ويعد من مفاخر العالم

(٢) «لوروتو» مدينة في إيطاليا مشهورة بكنيسة التي يزورها سنويا كثير من الحجاج



من الثياب أن أعصف لنفسي ثوبا أبدأ من الجلد يرافقي مدى العمر ويكون لي نعم الكفن متى حم القضاء ،

ثم يستمر الأستاذ قائلا « ما كان فن التصوير بالزيت من الفنون التي مارستها قط ، لذلك لأدري إن كان ذلك الموقف الذي وقفه جورج فوكس يوم أمسك قطعة الأديم وجعل يخفض منها ذلك الثوب الجيب هو من المواقف التي يسهل على المصور تصويرها . بيد أني ما زلت أحسب أن ابتساق بحر الحرية والهمة في قلب الإنسان ، واستغاضته في شباب نفسه شيئا فشيئا وانتشاره في أنحائه كيانه رويداً رويداً ، حتى يرد ظلمة الضلال التي كانت تبتمله في جوفها الرغيب ، وتلتقي عليه بهولها الرهيب ، ضياء لاسما ، ونهارا ساطعا - ما زلت أحسب أن هذا الانقلاب هو أحق شيء في تاريخ الإنسان بالتمجيد والتعظيم ، لأنه مظهر الرقة الصادقة وبرهان المجد الصميم . إذن فلينهض أروع المصورين وليرسم لنا بنظر نافذ وفهم ثاقب صورة جورج فوكس وقد بسط بين يديه رقعة الأديم لآخر مرة ، وشرع يفرها على مثال لم يسبق له نظير ثم جعل يخفضها ويهيئ منها رداء شاملا هو شائعة مصنوماته الجلدية ، وآخر مجهوداته الدنيوية . الا بوركنت أيها الرجل النبيل اصمدا في عمك صمدا ! ان كل وخزة من وخزات غصنك الصغير لتشك قواد القل والعبودية ، وتصبي كبد المطامع الدنيوية ، وتصيب مقتل الفتنة القهية ، وان ساعديك إذ يتحركان ، لأشبه بساعدين مقتولين يسبحان ، وإن كل حركة لهما لتعصك عبر خندق السجن حيث النلة والنور والفواتية ، وتدنو بك خطوة الى ملكوت الحرية والنور والهداية ! أما والله لو تم ملك هذا لكان في أوربا كلها رجل واحد جر ، ولكته أمت !

«وكذلك لا يزال الانسان واجداً من الخفيض الاسفل، مرتقى الى  
الملك الاعزل، ولا يزال الفقراء ولجدين كتاباً منزلاً فيعلماني هذا بقوارشاد.  
ولئن كان معنى الشهيد دياجونيوز<sup>(١)</sup> هو أعظم الاقدمين، على ما كان يتقمه  
من رقة ولين، فأحرى يخرج فوكس أن يكون أعظم الأولين والآخرين.  
لقد كان يشائر سلفه دياجونيوز فضل الوقوف على صخرة الحقيقة، مستقلاً  
عن كل عون وساعد، مستغنياً عن كل رافع وساند، ثم يتارعه بأنه لا يستقيم  
الارض بنظرة الكبرياء، ولا يلاحظها لحظة شزواء، بل يقتدر ما تسدى اليه  
في المأكل والمشرب والملبس من نعمة، ويرفع بصره الى السماء وقلبه يقبض  
عقلاً ورحمة. قد ذكرك الزباء الجليلي اظنان كان برميل دياجونيوز متبراً  
شرفاً تلقى عليه خطبة تنهيد الانسال بلهجة التهم والازدراء، فلقد كان  
ذلك الزباء متبراً أشرف وأعلى الاكابر تسبح منه تلك الخطبة ولكن  
في غير تهم والازدراء وقسوة، بل في حنان وحنانة ورقة»

لقد متقى الآن نيف وقرنان ذلك الزباء الابتي كما يدعوه الاستاذ  
قد لم يواندثر، ولم يبق له في الوجود أثر، طليت شعري ماذا تراه يعني اليوم  
من استشارة ذكره بهذه العبارة الرثانة، وما بعد التهنيد لها بطائفة المقدمة الطائفة؟  
أيزيد الاستاذ أن يحمل الناس على الاقتداء بمجورج فوكس، وهل يرى من  
الاستطاع في هذا العصر، عصر التأني والراعية، أن جانباً كبيراً من الناس  
يقتضون على التجلبب برداء شامل من الجلد، وذلك كما يقول «إصابة لقتل  
الفتنة القهيية، وفراوان من سجن القتل والعبودية؟ إنها وإيم الله لفكرة مضحكة.

(١) الحكيم الاغريقي الشهير، صاحب القصة للفروقة مع الاسكندر، وهو  
لللقب صاحب البرميل، لأنه كان يمشي فيه احتجازاً منه قناراً وزهادة في الدنيا.

هل يرضى صاحب الجلالة بأن يخلع رداء الملك وحلته ، وهل ترضى ربة الجلال بأن تنبذ وثى الحسن وحلته ، لكي يتخذ لنفسينها لها باثانيا من الاديم الدبورغ فوق إهابها الطيبى ؟ وهل تحسب هذا التبديل إذا تم يكون له من أثر سوى بوار المنازل ومعلم النسيج ورواج الدايغ ومصانع الجلود ؟ لقد يتوهم الأستاذ أن هذا الانقلاب جدير بأن يؤدى إلى التسوية بين مختلف الطبقات ، وإزالة ما بينها من الفوارق والميزات ، وبذلك تنجي الإنسانية فوائد منعب « التجرد » السياسية دون ترضى لآفته الصحية وغير الصحية . ولكن غلب عنه أن الداء أشد تنظلا من أن ينصح فيه هذا العلاج السطحي ؛ وإن الفوارق التي يَحْشَلُها لن تلبث بالرغم من ذلك العلاج أن تنجم واضحة جليلة ، إذ يرى السراة والاعتناء ، يحتالون في أطنس الجلود والقراء يوربوت الحسن والجمال يتعترف في المصنعات الزاهيات من الجلد المراكشي البديع ، مبطنة بالشموال آخر الصنيع ولا يبقى لفعلوا الاجراء ، غير بطول بقدر السوداء . أم هل ترى فيلسوفنا يرمى إلى غرض أبعد وأهمق ، فهو يَحْشَلُها في سره من هذه التملقات والاتقادات ؟

## الفصل الثاني

### الملابس الدينية

يمتاز هذا الفصل الذى عقده الأستاذ عن الملابس الدينية بأنه أقصر فصول الكتاب فمن نقله هنا برمتة : —  
« لست أعنى بالملابس الدينية بزائن القمص ومنسوج الزهبان ، كلا

ولا أقصد بها التياب القشبية التي يرتديها القوم في أيام الآحاد ، وإنما أريد بها تلك النصور والأوضاع التي مازل الناس في كل عصر ومصر يلبسونها للفكرة الدينية فيظهرونها بها - أي أنهم يمدون إلى البر المصون المحرك لهذا الوجود فيلبسونه جسما عجسوسا ملموسا ، يظهر بفضلهم بينهم ، فيكون هو الكلمة العليا : مصدر الحياة ومثار الهدى .

« هذه ولا شك أم أردية الحياة البشرية . وأول من ينزل هذا النوع من الملابس وينسجها هي أم العجائب : الهيئة الاجتماعية . فان الدين ، وإن كان مركبا في أصل التعلقة متصلا ببحور النفس بحيث لا يمكن انفادانه البتة ، إلا أنه يظل كمناء خفيا لا يظهر ولا يتجلى إلا بالجماع اثنين فأكثر من أبناء آدم . عند ذلك يظهر الشعور الديني عجيما في الحفلات المقدسة . عجيب والله ، بل معجز وأكثر من المعجز ، أمر هذه المفاوضة بين الروح والزوج وكلاهما يتطلمان إلى السماء ! هذا حقا مقام تاجي النفوس ، قلبس الألفي النظر نحو السماء ( على أي وجه أو لت هذا القول ) لافي النظر إلى الأرض ، يستطيع الناس أن يحققوا معنى الاتحاد والتآلف ، والاجتماع والتعاطف . وما أصدق نوافل حيث يقول : « في اللحظة التي استطيع فيها اقتناع غيري بما اعتقد يزاد تمسكي باعتقائي زديدا لا حمله » بل انظر أنت إلى الوجه أخيك وتأمل في عينيه المتلاثلتين بأنوار الحب للشرقة ، أو الملهيتين بيران الفضب المحركة ، واعتبر كيف تسرع إليك عدواه ، فإذا بنفسك الهادئة قد انتقل إليها على غير اختيارك قبس مما تراه ، فلا يزال كلاكما متمدان ، ويمكس كل منكبا على أخيه ناره أو نوره ، حتى يصير ما بينكما شعلة مشتركة من الحنان والود ، أو من الكرامة والبض الألد ! قل لي إذن أي تأثير خفي عجيب هذا الذي ينفذ

من العين الى العين ، ويسري من النفس الى النفس ؟ ولذا كان الامر كذلك من خلال الاغلفة الكثيفة المحيطة بهذه الحياة الارضية ، فابلك اذا كان موضوع الحديث بين النفس والنفس هو الحياة الدنية والاسرار الالهية وقد تصافح القلبان ، وتلامس الروحان !

« وكذاك ترى ان اول من غزل الملابس الدينية وحاكها هو المجتمع . فالبيعة الظاهرة نشأت بفضل المجتمع ، وبفضلها صار من الممكن وجود المجتمع ، بل ما من مجتمع يستطيع تصويره في غابر أو حاضر الا ويمكن اعتباره من جميع الوجوه كنيسة حقيقية تتحقق بأحد الأقسام الآتية : - أولاً كنيسة مطلقة اللسان بالدعوة والنبوة وهي افضلين ، ثانياً كنيسة مجاهد كي يطلق لسانها بالدعوة والنبوة ولكنها لا تستطيع ذلك بعد حتى يحل عيد موقعها (١) ، ثالثاً كنيسة اصبحت من فرط الهرم خرساء أو هي تهذي وتخرف بما هو نذير الانحلال . فمن توم أتى في هذا المقام أقصد بالكنيسة مجرد الصوامع والكنائس والنبوة مجرد الكلام والترتيل فتمه يقرأ فارغ القلب خلى البال .

« أما عن البيعة الصحيحة والملابس الدينية فأقول ولا أخشى في الحق لومة لائم انه بغير هذه الملابس والنسائج المقدسة ما وجد المجتمع ولن يوجد . فلو كانت الحكومة للمجتمع بمثابة جلله الظاهر الذي يضم اجزائه وبقية ، ولئن كانت طوائف العمال وقبائل الصناع سواء أ كانوا يعملون بأيديهم

---

(١) عيد للوقوف هو عند اليهود العيد التذكاري لتناول الشريعة على موسى ، وهو عند النصارى العيد التذكاري للهبطة الكبرى وهي اللحظة التي تبين فيها رسل المسيح ان سيدهم حي لم يموت وأنه في قبضته اقرب اليهم منه في مشواره .

أم بدمتهم هي بمثابة النسيج العضلية والعظمية (الكائنة تحت ظاهر البشرة) والتي بفضلها يستطيع المجتمع أن يقف على قدميه ويعمل يديه، فإن الحياة التي بمثابة النسيج العضلي العصبي والجلد والعضلات والاعضاء، ويبحث العلم جاريًا في كل الاجزائه. فبغير هذا النسيج العضلي والجهاز الدموي تمير النظام والعضلات (واضي متنوع الصناعات) الى الجود والشلل، فان تحركت قائما يكون ذلك بفضل تيار كهربائي لا بدافع روح حقيقي، ويصبح الجلد قشرة ثابتة تاوية أو اها باعفاً حيث الراحة ويعود المجتمع جثة هائلة أحق شئ بها الففن - حيث يكون اجتماع الناس لا بداعي الشائكة والتآسي ولكن كما تجمع الهائم، وهذه الحال لا يمكن مع ذلك أن تكون، بل لا بد أن تنصت تدريجاً الى تباعض فتقاطع تفرق، وبذلك يبقى الماء حتى على رمة المجتمع. ذلك بعض ما للانس الدينية على المجتمع من فضل، ففي لما تأملت ملاك حياة. وقولم تظلمه.

ولكن من الحزن ان هذه اللابس الدينية قد أصبحت في عصرنا الرامن اسماً بالية، بل أصبحت شرًا من ذلك، فإن كثيراً منها قد صار مجرد اشكال جوفاء، ونحو منستارة، لا تجول فيها حياة ولا تسكنها روح، بل ينص جوفها يحييوش من المتأكب البشعة والخناس القفرة، بينما الوجه للستار يحدق اليك باعينة الزجاجية، محاولا بشكل سرع أن يحكي الحياة بمد ان انسجبت منه الروح الدينية، واشتكفت في زاوية منزلة، تنسج لنفسها أروية جديدة سوف تظهر فيها مرة أخرى، فتباركنا نحن أو أولادنا أو أحفادنا. وكما ان الاملم الصالح هو افضل الرجال واعلام، فان الاملم الكاذب أحط الرجال وأذنام، ومهارا كم على جسده من طيالس وبرانس وقلائس

فلسوف تنزع عنه يومئذ من الاليم ، لكي تتخذ منها ضلالت لجرأحت.  
الإنسانية ، أو لكي تحرق وتنزى رملاً للأغراض العلمية أو الطبيعية .»

## الفصل الثالث

في الرموز

قد يكون في بيان نظرية الاستاذ عن الرموز ايضاح لمقرى ما تقدم  
من اقوال غامضة ، يد انا لا نطمع في ايراد نظريته هذه كاملة جلية ، فانك  
لن تراه اشد استقلالاً واستبهاً منه عند الكلام على الوهم ، وأثره في حياة  
الإنسان ، وكيف « ان الإنسان وان كان في الظاهر يقوم في انطلاق المتطور  
الحدود يضرب بمروقة ، بفضل الوهم ، في احماق غير المتطور ذلك الذي لا  
قرار له ولا غاية ، والذي ما الحياة قسمها الارزله واسارة » فلنتبع اخذ هذه  
التأملات المالية على منائنا ، ولنقصر عملنا على ان نلتقط ( سواء من الاضايير  
المخطوطة أو من الكتاب المطبوع ) ما قد نشر عليه من عبارات منطقية ،  
علاولين بكل جهتنا ان ننظم منها كلاماً منسقاً مفهوماً : —

« من ذا الذي يتحدث عن مزايا الاختفاء ، أو يتغنى بفضائل الضمت  
والكتمان ! لا جرم ان تبني الهياكل لتسيدها ، لو كانت هذا عصر بناء  
الهياكل . الصبوت هو المنصر الذي تنشأ فيه جلائل الامور ، حتى اذا استكلت  
صورتها ، واستتمت روعتها ، برزت الى ميلان الحياة تصرف زمامه ، وتدير  
احكامه . وليس ولم » الضامت بالرجل الوحيد الذي كان محتجن فضل منطقته ،  
(١) ملك هولانده الذي حررها من النفوذ الاسباني ، كان مشهوراً بصمته

ويربأ بنفسه عن التحدث بما يصنع والتشوق بما يفعل ، بل كل من اعرف من عظماء الرجال ، حتى الذين لم ابعدهم عن فنون السياسة واجهلهم بأبواب المكر والخداع ، كانوا كذلك اكثر دهرهم صامتين .

« بل انظر الى نفسك ، وانت تنخبط في مشاكلك التافهة ، واخزن لسانك ولو يوماً واحداً ، تعلم في التدكيف استنارت اغراضك ولستبات واجباتك وكما اكتسح اعوان نفسك الصامتون من القفورات والنفايات ، حينما انقطعت عنهم متطفلات الاصوات والهوشات .

« ليس الكلام كما يزعم الفرنسيون صناعة اخفاء الفكر وستره ، وانما هو صناعة اخفاه وبيره ، حتى لا يمود هناك فكر يستوجب الاخفاء : الكلام جليل عظيم ، ولكنه ليس الاجل الاعظم . وكذلك يقول اللث اللث الالمانى : الكلام من فضة والصمت من ذهب ، أو كما اتول انا : الكلام وقى فلن ، والصمت أبدي باق .

« لا يعمل العمل الا في الظلام ، ولا يشر الفكر الا في السكون ، كذلك الفضيلة لا تنحيا الا في الخفاء . وقد جاء في التنزيل : لا تظلمن يسراك على ما تصنع بملك ، ولا تبج لقلبك الذي بين جنبيك بتلك الاسرار التي يعلمها كل انسان . أليس الحياء تربة كل فضيلة ، وأصل كل مكرومة وخلة حميدة ؟ الفضيلة كالنبات لا تنمو ولا تزكو الا اذا اختفى اصلها تحت الثرى ، واحتجب عن عين الضحى ، لا يكاد الضوء يعطل عليه ، بل لا تكاد انت تنظر خفية له ، الأجب وذوى ، فلا بهجة ولا زهرة ، ولا روق ولا نضرة اياه يا اخواني ذا نظرتم الى روضة الزواجر مزدانة بمقود الازهار واكاليل الزمخمان ، تحيط لحياة بهالة من الوان السماء وعبق الجنان ، ثم رأيتم من جاء يقتلها من اصولها



ويريكم ، وهو ضاحك السن سخرية وهزوا ، اللعنة التي منها نشأت ، وفوقها ربت واعتزت ، أياكم يأتي لئذ ان يضرب على يدي ذلك الفاتك الخليث ؟؟ فبال التلس - لا أبلهم - يكثرون التحدث بمنافع الصحف والاطابع ، فأين هذه من فوائد الملابس وابرة الخياط ؟

« وثم شيء آخر اجتمعت له مزايا الاختفاء البكثيرة مع مرافق اسمي وفضائل اسني : الا وهو الرمز . فالرمز هو جمع الاعلان والكتمان ، وملتقى الضمت والبيان ، يحل فيه بالافتراق شأنا ، ويتضاعف بالاتفاق خطرهما ، واذا كان البيان سديداً عاليا ، والصمت شريفاً مناسبا ، فقل في اجتماعهما معاً ! ذلك بأنه في الرمز ترى الخيال بملكوته السجيب متجليا في نطاق المحسوس الضيق الحقير ، بحيث يترج به امتزاجاً ، ويندمج فيه اندماجاً ، والواقع ان كل رمز صحيح ، يتضمن على درجات مختلفة من الغموض والوضوح ، شيئاً من تجلي الابدية وتجسم اللانهاية - فالطلق يترج فيه بالملود حتى تراه املك منظوراً ، بل يكاد يكون ملموساً . وفضل الرموز يهتدي الانسان وينعوى ، ويسعد ويشقى . وهو اينما اجل بصره التي نفسه عاظا برموز بعضها معروف وبعضها مجهول : وما العالم اجمع إلا رمز واسع كبير يشير الى بارئه ، بل ما الانسان نفسه ، إلا رمز يدل على خالقه . وما كل مسعى يبنه ، وكل عمل يسله ، إلا رمز يبرز فيه للمشاعر الظاهرة ، فضل مواهبه الباطنة . وما كل كوخ يبنه ، فضلاً على كل قصر يلميه ، إلا وهو جسم ملموس لفكرة مضمونة ، وعلان مناع لإسرار خفية ، أو كما يقول الربانيون : دلالة رمزية كما انها حقيقية »

ثم يقول الاستاذ في موضع آخر بلهجة متأنية كل المناظرة لهذه الالهجة

العالية المحلقة في عنان السماء :والانسان يطعمه يشبه البوم من بعض نواحيه ،  
ولعل اقرب ما فيه من وجود الشبه الى اليوم تلك الفكرة التي تبلملك اليوم :  
فكرة للمادة وارجاع كل شيء الى اصلين اوباعين من لم والله . اطلال لب  
الانسان الاعيب حجة وحيلة غريبة في كل زمان ومكان ، فلقد تورم نفسه كل  
شيء حتى لقد تورم نفسه في وقتها كثة حية من الزجاج ، ولكن ان تورم  
نفسه ميزانا ميتا من الحديد لوزن الآلام واللذات : هذه وأيم الله هي البذعة  
التي كان اقتدر يخترها لهذا الزمن الاخير . هنالك يقف الانسان وهو لا يرى  
في العالم بخلافه الا مفودا هائلا قد شحن علفا وشوكا يوازن بينهما ، وانه  
يلسخر في الأذنين بلوطهما ا وارحلتك أيها السكين ! لقد كتب عليك  
ان لا تنفك ابدا مطية الاشباح والاورهام ، ففي ذلك المصير تركبك المجازر  
والساحرات ، وفي ذلك المصير تركبك القسوس والرهبان ، وفي جميع المصور  
لا يزال تركبك الشيطان . والآن هاهو وارد المادة قد جثم على صدرك اشد  
وطأة من الكايوس الكارب ، حتى لقد اوشكت روحك ان ترحق ولم يبق  
خباك من الحياة الا قوة هائلة آتية . فاصبحت لا ترى في الارض وفي السماء  
الا آلة كبرى لا تمنحني سوانعا ولا ترجو سوانعا .

وآه لحي على رقية افك بها عن الانسان عقدة السحر فهاهو الآن أقول  
له افتح عينيك وانظر حتى يعود بصيرا ! بلغة حدثني في ابي عصر وفي ابي  
مصر رأيت الانسان يهش بمجود هذه البواعث من الم وطأة ! أين افسد  
صور القبايل ، والقروسيات والاصلاحت <sup>(١)</sup> ، والاشيد المارسيات ،

ويعزود الإزهايات <sup>(١)</sup> ؟ بل انظر الى هذا للبشر اللحي نفسه لو لم يزر قلبه طائف الحب ؟ دعه يا صاحبي للوقت انه قليل بشافته .

ويقول الاستاذ مكن آخر : « نم يا خولاني ! انما الانسان خاضع للمكنة الخفية ، وليس للمكنة المنطقية الحاسبية . وانما الخيال في الانسان نبي صادق يسمو به الى جنة النعيم ، أو ساحر دجال يهوى به الى قرارة الجحيم . وما اللادة - حتى عند أبله الماديين - الا آلة يستخدمها الخيال وكأس يشرب فيها . ولا يزال في حياة الانسان ، هما بلغت من الخول ، لمة الالهام أو من الجنون (وانك تخير بينهما الى حد محدود) تنفذ اليها من محيط الابدية ، وتمتص الواتها على جزيرة الوقت الصغيرة . واذا كان الفهم هو نافذتك - ولا يمكن ان يكون زجاجها شفافا اتم الشفوف - فان الخيال هو عينك التي تصطبغ بنورها الاشياء ، والتي قد تكون صحيحة أو رمداء . لو لم اشاهد بسبي رأسى خمسمائة جندي يزقون اربا ، وقطعون للفرسان لقا ، من اجل قطعة من القماش يسمونها « العلم » لو عرضت في السوق لما زاد ثمنها على درهماين ثلاثة ؟ ألم تنهض الامة المحيرة بأسرها ، كما تزخر امواج البحر تحت المظلل القمري ، لأن القيصريوسف <sup>(٢)</sup> وضع في جيبه تاجهم المديني ، وهو على رأى أهل النظر لا يروى على نعل الفرس حيا وقيمة . وكذلك دأبنا الانسان يعيش بقتل الرموز وحبها ، ويصل ويسسى ، شمر بفتك أهله يشير . وان اشرف البصير تلك التي تدرش غنيل الرموز ، وتجعلها من القيمة اسماءها ،

(١) اشارة الى حكم الارباب في عهد القنوة القرنية .

(٢) هو القيصريوسف حيا جوزيف ابن بطور المدعي الجورقي . نعمت الجورم الخليل في الخوازم .

ومن المبكاة استناها. فان الميز البصيرة لتجد في كل رمز قبساً من الانوار الدلالية اما سلطما باهراً ، واما كليلاً قاتراً.

« بيد انه قد يكون للرموز فضيلتان : عرضية وجوهرية ، وان كان الغالب أن لا يكون لها الا فضيلة عرضية ، مثال ذلك الاعلام الحربية والملابس المتجكبة وما ينضم اليها من صنوف الشعارات والدلالات التي تتخذها الشعوب والطوائف . فجميع هذه وما شا كماها ليس لها فضيلة ذاتية بل احرزت فضيلة مكتسبة بأنها صارت لواء يجتمع في ظله الجماهير لأغراض شتى ، تتفاوت نزاهة وطهارة . على أن في هذا الاجتماع بذاته معنى من الفضل السماوى . والواقع ان جميع الرموز ذات القيمة العرضية ، لا تزال منطوية على وميض من الفكرة الآلهية ، كما هو الشأن في الاعلام الحربية ، فانها تدل على فكرة الواجب المقدس والافتدالم الشريف وتشير في بعض الأحيان الى الحق والى الحرية . ولكن الأمر يكون بخلاف ذلك اذا كان للرمز فضيلة جوهرية ، وكان هو في ذاته جديراً بأن يجتمع الناس حوله . دع النور اللدنى يتجلى للحواس البشرية ، دع الابدية تعال في وضوح او غموض من خلال الصورة الوقتية ، فخلق بالناس ان يجتمعوا حول ذلك المظهر ، ويصبوا الله امام ذلك الرمز ، وضيئوا اليه على كثر الايام وحر الليالى ثمراً جديداً وفضلاً طريفاً .

« في ذلك هذا النوع الأخير من الرموز تنحصر بدايات الفنون والصناعة ، فن خلال هذه يلوح الانسان ( ان كان ممن غير الخشب من الخشب ) والتكلف من المطبوع ) بهاء الأبدية مطلاً من الزمن ، ويرى نور الحقيقة مكشوفاً الباهر . وربما انضاف الى هذا الصنف من الرموز أيضاً عمدة عرضية كالأزياء »

كثيرا من الالياذات <sup>(١)</sup> وما ماتلها يستعيد خطرا على خطر في مدى ثلاثة آلاف من الاحوام . واشرف ما في هذا النوع من الرموز حياة الأبطال للمهمين : ولا غرو فاية بديعة من البهائم هي أشرف من حياتهم واقنس ؟ وكذلك موتهم القى هو تاج حياتهم ولا كليل مجدم ، ألا تلحظ فيه معنى عميقا ورمزا جليلا ؟ ألا إن في ذلك السكون الرائع - سكون الفوز المبين - السائد على الخيا المحبوب - يتبين الانسان ( ان امكنته من ذلك سوابق السموع ) التقاء الوقت بالابدية .

« وارق انواع الرموز تلك التي يرتفع بها صاحبها وصانها الى عليا مراتب النبوة ، فيخرج للناس هدى ونورا ، يخرون له سجدا وركوعا : أهني الرموز الدينية . وكثير ما هي هذه الرموز التي نسميها الاديان ، وهي تختلف باختلاف درجات الانسان في الرقي وبحسب مقدرته على تفهم الاسرار اللدنية ، وتصور المعاني الربانية . فبعض هذا الصنف من الرموز يكون له فضيلة جوهرية ولكنها سرية الزوال ، وبعضها لا تكون له الا فضيلة عرضية . « واطل ان الرموز ان كانت ترد على مضي الوقت شرفا وتقديسا ، فهي اذا تهادى بها تقدم عرضة لللى والقضاء . لانها كسائر الظواهر الارضية غير مصونة من الهرم ، ولا معصومة من المنم . فالباقة هو ميروس مثلا ، وان كانت لا تزال صادقة ، قد صارت نائية عن قلوبنا ، غريبة عن شؤوننا ، وامست منا على مسافة قصوى ، كأنها نجم غابر يزاد شعاعه كلاله ، وان كان يتضاعف صفاء ، حتى ليمتد على المرء ان يتبين انها كانت ذات يوم

(١) جه اليافعة ، وهي القصيدة الشهيرة للنسوية لاشاعر البصرة في هوميروس ، واطلقها المؤلف هنا علما على كل قصيدة قديمة لها شأن كبير ولها اسع جمعها .

شمساً عظيمة باهرة ، مالم يستن على ذلك بمجهر على يقرب معانيها البعيدة ويوضح اسرارها الغامضة . وكذلك ترى انه ما من رمز من الرموز إلا وله اجله المحدود ، ويومه الموعود ، حين يدرج في طلي الكمان ، ويهمل في زاوية النسيان . ولا عجب فجميع الاشياء حتى الكواكب السماوية ، ومن باب أولى النيارك الجوية ، لها شروق ومتوع وافول »

ثم يقول الاستاذ بعد ذلك « وخلاصة القول انك اذا أردت الابد والازال فابحث عنها في ملكات الانسان العيقة المطلقة : في القلب والوهم . واذا أردت الاليم والاهوام فابحث عنها في ملكاته السطحية المحدودة : في العقل والفهم . لهذا كان من حق الملهمين من الشعراء والفنانين ان ندعوم سلاحين هذا العالم وامراه ، لانهم يصورون للناس رموزاً جديدهم يقتبسون لهم من السماء نوراً يهتدون بهديه . ولن تخلو الدنيا من أمثال هؤلاء في عصر من العصور ، ولعل عصرنا هذا لم يخل منهم . بيد اننا جديرون بأن نمنع لقب المشرع أو الحكيم لمن يستطيع أن يثبت للناس أن هذا الرمز أو ذلك صار بالياً فأصبح غير صالح للاعتداده ، والاعتماد عليه ، ثم يزيله من امامهم في لطف ورفق . »

## الفصل الرابع

### عبد المل

« انان لا ثالث لهما جديران هندي بالاكرام ، حقيقان بالاغظام : أولهما ذلك العامل المكشود ، يكسح بما أوتي من قواه الجسدية وآلاته الارضية في فتح مناطق الارض واخضاعها لحكم الانسان ، فأنشرف عندي تلك

اليد المحلة ، المعوجة الخشنة ، فان فيها من صادق الرفعتو بارع الفضل ما يليق  
 بصولجان هذا الكوكب السيار ، وكذلك ما أشرف وما أنبل ذلك الوجه  
 الاشمت الأغبر ، قد دبغت أديمه الاجراء ، واشرفت من خلال شحوبه  
 لمحات ساذج الذكاء ، فاهو الا وجه الرجل يعيش عيشة الرجل ، بل مأجلك  
 وما أشرفك من اجل خشونتك وسذاجتك وعلالا تزال تقتضينا الرحمة  
 كما تقتضينا المحبة ! أيها الأخ المعرض لبأساء الحياة ! لأجلنا ما قوست  
 فئاتك المعتدلة ، ولأجلنا ما شوهت اعضاءك المنتظمة ، انت الذي وقعت  
 عليه القرعة ، فراح يحارب دوننا قائم الدهر ، ويمطى عنا حقوق الكريمة ،  
 فتابك من الكدح ما تابك ، وأصابك من الجروح ما أصابك . ان  
 فيك لبذرة الهية لو استطاعت الى السماء سبيلا ، وأصابك الى التفتح مسافا !  
 ولكن قضى عليها ان تبقى دفينه تحت مترام أطباق العمل واثقال الهموم ،  
 وكتب على روحك ، كما كتب على جسدك ، ان لا تفوق طعم الحرية .  
 ومع ذلك صبرا يا اخي صبرا ! وصددا الى غرضك صددا ! انما انت قائم  
 بواجبك المفروض ، ليمدك عنه من يمدك ، انما تكدح لما لا منه بد ، ولا عنه  
 بعيد : لاحراز قوت اليوم .

« أما ثاني الرجلين ، وهو عندي أشرف منزلة وأرفع مقاماً ، فقلني يكدح  
 لتحصيل ما لا غناء للروح عنه : لاحراز قوت المر ، لا قوت اليوم . اليس  
 هو أيضاً قائماً بواجبه ، عاملاً في سبيل الوقت الباطني ، ساعياً بما أوتي من  
 قوة روحانية وعدة سماوية في فتح مغالق السماء واخضاعها لحكم الانسان ؟  
 أثنا وجب على الفقير الوضع أن يكدح لكي نحصل على حاجتنا من القوت ،  
 أفلا يجب على السرى ارفع أن يكدح أيضاً لكي يحصل الفقير على حاجته

من نور وهديتو حرية وخلود؟ - هذا على اختلاف المراتب والدرجات أجلاها  
من صميم قلبي، أما من عدلها ختلة وهباء، دم الريح تنفوه أينما نشاء .  
« يد أن الروحة كل الروحة، والرغبة كل الرغبة، في أن يلتقي المجدان،  
ويجتمع السؤددان، فترى الله يكدرح ليكني الانسان من حاجته أدناها،  
يكدرح أيضاً ليكنيه من مطالبه أسماها . وهل في الدنيا شيء هو أرفع وأسمى  
من قدس فلاح؟ إنه يرجع بنا إلى جهود الوحي والالهام، فتري جمال السماء  
ينبتق من أحماق الأرض، كالنور الضاحك في الظلام الحالكة. »

ثم يقول الاستاذ في موضوع آخر . « لامن أجل كده ونصبه أرتي  
للفقير وأحزن له، فكنا قد كتب علينا، أما أن نكد وننصب، وأما أن  
نسرق وننصب، وذلك شر وأدهى . وما كان المخلص من الماملين ليجد  
معلمه ملهى وملعباً . وإذا كان الفقير عسى جائعاً عطشاً نافله قد أعد له طعاماً وشراباً،  
وإذا كان يبيت متعباً حسيماً فله يرسل عليه من النوم سباتاً، فإذا هو في  
كوحه الحفير قد حوته سماء من الراحة ندية صافية، تلوح فيها بوارق  
الاحلام بديعة زاهية . وإنما الله من أجله أجزن وأرتي أن يطفأ في الفقير  
سراج روحه وأن يبش ما يبش في ظلمة داجية لا يأنس فيها شعاعاً من  
العلم السماوي كلا ولا الأرضي، يقضى حياته وقد اكتشف من الخوف والحنق  
شبحان مرعبان، لا يفارقانه لحظة من الزمان . وآسفاً! أينما ينو الجسم  
هذا الضو العظيم، فيروح مجدولاً للرائر والعصب، وفي الألواح والنصب،  
تبقى الروح قشة مثبلة مضبوطة مكروبة، تكاد من الضيق ترهق؟  
أهذه أيضاً نقعة من روح الله أطلقت من السماء ولكن كتب عليها  
أن تظل في الأرض حبيسة لا تطلق، ومطورة لا تنتشر؟ أما إلى لآعد موت



كل إنسان يموت على الجهل مع استطاعته استيعاب العلم بأساة كبرى وفاجعة.  
عظمى ولو تكرروا وتوسعوا في الحقيقة الواحدة عشرين مرة كما تؤكد بعض  
الاحصاءات».

## الفصل الخامس

( النقاء )

لقد يظهر بما تقدم في هذه الفصول الاربعة العجبة وفي كثير سواها  
من التلميحات والتصرحات المثورة ثراً في تضاعيف هذا التيه الواسع من  
الكتاب أن الاستاذ هو أحد الذين يرون للمجتمع قد أصبح جثة هامدة أو  
يكاد ، وأنه لولا ما ركب في طباعنا من غرائز التماثر ، وملورثنا من أسلافنا  
من مادات المخالطة ، لقضى على هذه الهيئة الاجتماعية بالانحلال فثروال ،  
وذلك حيث يقول :

« أتدعو ذلك مجتمعاً حيث لا يوجد للروح الاجتماعية أدنى أثر وحيث  
الفكرة السائدة ليست فكرة الاقلمة في بيت واحد مشترك ، بل فكرة  
الميت في خان مزدحم ، حيث ترى كل إنسان في عزلة أيما عزلة ، معرضاً عن  
صاحبه معادياً لأخيه ، يختلف كل ماثاته يده ثم يصيح (متاعى وملكي)  
ويدعي أنه مائس في سلام وأمان ، لأن المكابية والمهاشنة التي فيها نشق  
الأكياس وتمزق الاعناق لا تقع بواسطة الخناجر والمدى ، بل بأسلحة هي  
أذرع فتك ، حيث للمؤانعة والصدقة قد سارت أسننت أحلام وحديث  
خرافة ، حيث أقنص عشاء رباني ، هو أكلة في مطعم شهي ، يكون فيه

الطباخ هو البشر الأنجلى ، حيث الواظ لم يخلق له لسان ، إلا لكي يلحق الصحن ، حيث مرشدك وحكمك لا يستطيعون إرشادك بل يصيرون من جميع الأرجاء ملء أشداقهم (دع الناس وشأنهم) ؟ ناشدتكم الله أيها القوم أن ترحبونا من هدايتكم وتعاونونا من إرشادكم ، فتل هذا النور أشد ظلمة من حالك الظلام ، في الليل الطامس الاعلام . وأما أنتم فكلوا أجوركم وخطوا في سبائكم»

ثم يستمر قائلا : « وكذلك تلاحظ العين البصيرة في كل مكان هذا المنظر المبهج للاشجان : فقراء كالأنعام المهلة يهلكون جوعا وهزا لاوتما ، وأغنياء أسوأ حالا وأشد بؤسا يهلكون كسلا وكظة وبثما ، يعضى أرفع الناس مرتبة لا يتال من أوضاعهم أقل احترام ولا أدنى تكرمه ، اللهم إلا كلمات من التزلف ولللق تصدر عن الاسنة دون الافئدة ، كذلك التي يهود بها خادم النزل على ثقة بأنه سيضيف قيمتها الى قائمة الحساب » .

ولقد يحق لنا ان نتساءل هنا : ايروجد بيننا ممشر الانجلىز أو بين غيرنا من الاقوام كثير من هذه « العيون البصيرة » التي تتجلى لها تلك الظواهر الاسيفة ؟ أم تلك مناظر لا يتاح لاحد أن يراها الا من ذلك المرقب الالمانى الرفيع ؟ إن الاستاذ يزعم انه يرى في كل مكان ، أعراض انحلال المجتمع بادية للعيان ، ويقول فيما يقول : « انظر مثلا أليست فضيلة الفضائل الآن ، وعمل المفارقة وللباهاة في هذا الزمان ، ذلك الشيء الذى يدعو الاستقلال ؟ ألا ترى الى احقر حقير كيف يرفع عقيرته بالتبرؤ من كل شبهة للخصوم الكبراء ، والاجلال للرؤساء ؟ ويحكم أيها الحق المنفلين ! أما والله لو كان كبارؤكم أهلا لأن يحكموا ، ولو أنكم كنتم أهلا لان تطيعوا ،

كان في اجلالكم لهم واحترامكم ايام سيلكم الوحيد الي الحرية .  
ثم يقول الاستاذ في موضع آخر « اما وقد فارت الروح جسم المجتمع فهل بقي الا أن يلقى بحرق الجنة صوتا لها من التحفن ؟ اني لا أنظر لطوائف الاحرار والاقتصاديين والتفيعين يحملون نمشها وهم يرتلون الادعية والانشيد ميممين كومة الخطب حيث يوقد على الجنة الموقرة بين عويل القليلين وهتاف الاكثرين . أو قل بعبارة أخرى انه لم يبق اليوم شك في أن أولئك القوم الذي يتسمون بالاحرار والتفيعين وما الى ذلك سوف يلغون صراهم من تفكيك أوصال المجتمع وتدمير معظم انظمتهم وهنم أكثر مؤسستهم .

« الاترى الى جمهور المال والصناع تلك الطوائف المنتشرة في كل مكان ، المثلثة من همه وتعاون ونشاط ، كيف تنفضي بينها هذه المبادئ المادية والمذاهب النفعية كأنها نوع من الكلب ذريع لا يزال تنتشر عنواه ، وتم بلواه ، حتى يعود وجار الدنيا وقد شمله الوباء ؟ فالويل اذن للصيادين ! لقد كان واجبا عليهم أن يسفخوا هذه المعبوات بللاء - ماء العلم والحياة - قبل أن تضع الفرصة وتنشب الفصة .

« والواقع ان الدنيا تكابد الآن عملية اتلاف وتدمير . وسواء أصرت هذه العملية بأدوار التآكل الصامت الملح البطيء ، أم بالدوار الاحتراق الصاخب المفاجيء السريع ، فلا بد أن تنتهي بإبادة أوضاع المجتمع القديمة واعاضته منها أوضاعا جديدة . هذا حكم القضاء ومن يستطيع أن يمارسه ؟ من ذا الذي يستطيع أن يقبض بيده على عجلة القدر ، فيقول لروح الزمن « ارجعي القهقري ! » خير لنا وأولى أن نستسلم لما لا منه بد ، ولا عنه عيش ، بل خير لنا وأولى أن نرى الخيرة كلها فيه . »

والظاهر أن تيوفلسدروخ قد آثر لنفسه هذا الاستسلام عن طيب خاطر . فلقد رأيناه يقول ان العالم كله قد أصبح « سوقاً هائلة للاعمال البالية » وان « خرق الرموز القديمة » كانت تهاافت في كل مكان ، كالطرهتان ، حتى لكادت تغمره وتحنقه . فلا عجب أن ينظر بعين الرضى الى عملية كئساحها واتلافها ملذات تحصل في رفق ولطف . نعم لقد كان يسره أن يشاهد ، وهو آمن في مركبه ، وحش المادية والنفعية يتطلق - وانما بعد أن يزيم ويخطم ، ويقيد ويلجم - لكى يطا بسنا بكة المريضة الثقيلة ما هناك من قصور متخربة وهياكل متهدمة حتى يسويها بالتراب ، تمهيداً لتشديد غيرها بما هو خير وابق . وبهذه المناسبة يقول الاستاذ :-

« ليس المجتمع ميت ، فان هذه الجثة الهامدة التي تسميها المجتمع الميت ان هي إلا رداؤه البالى ، نزعته عن نفسه ليرتدى ما هو اشرف وأسمى . أما المجتمع ذاته فلن يزال في تطور مستمر وارتقاء مستديم ، من حسن الى أحسن ، ومن رفيع الى أرفع ، حتى ينفس الوقت في الابدية . فأينما اجتمع اثنان فأكثر من بنى آدم فهناك يكون المجتمع ، أو هناك سيكون ، بمعطاته الدقيقة ومنشأته الجلية ، منتشراً على أديم هذا الكوكب الصغير ، ومتصلاً بأعلى السماء وقرارة السعير . فانك ان تراه يد الدهر خالياً من ظاهرتين خطيرتين : احدهما تشير الى الله والاخرى الى الشيطان : المنبر والمشنقة . »

ألم يحددنا الاستاذ في غير هذا الموضوع عن « الروح الدينية منعكفة في بعض الروايات المنزلة ودائبة في نسج اودية جديلة لنفسها ؟ . لعل تيوفلسدروخ نفسه كان أحد أوالمها .

وهنا يشير الاستاذ الى تلك الحكمة المأثورة عن القديس سيمون ، حيث

قال « ان العصر الذهبي ، ذلك الذي وضعت الاساطير العمياء في الزمن الماضي ، هو في الحقيقة أملنا في الزمن الآتي ! »

ولكن دعنا واستمع الى ما يقوله في موضع آخر حيث يشبه المجتمع بمنقاء الاساطير ، تلك التي كانت تقدم نفسها قربانا للنار في كل حقبة ، ثم لا تكاد تحترق حتى تنهض من الرماد مجددة الشباب : —

« وهل عجب أن يتطاول الشر حينما ترفرف المنقاء بأجنحتها على الحطب الملتهب ؟ وبلاد لقد رأيت بضمة ملايين من الرجال ، وفيهم امثال نابليون ، يحترقون كالفراش المتهاافت في ذلك اللهب المندلع . واني ما زلت اخشى ان يلفح شواطئ تلك النار بعض الذقون غير المحترسة .

« أما متى ينتهي هذا الاحتراق والتجديد فملمه عند ربى . لان الانسان يكره التغيير ببطرته ، ومن أرسخ الترائيفه التثبيت بالقديم ، فهو قلما ينادر بينه المتيق حتى يتداهى فوق رأسه . ولقد رأيت من الجلالات ما يتلوم كرميلت ، ومن الرموز المقنسة ما يتلوم كظاھر فارغة ، الى مدى نيف وثلثائة من الاعوام بعد ان تلاشى منها كل أثر للقداسة والحياة . فليت شمري أفطوعرنت علينا للقادر ان تنجز لنا هذا الاحتراق والتجديد في ظرف قرنين مثلا ، بحيث نجد انفسنا بعد انقضاء هذه اللعة مائشرين في مجتمع حى وقد فرغنا من الحرب والنضال وأقبلنا على العمل والانتاج ، أفلا يحسن بنا أن نقبل هذا العرض ونغضى الصفقة ؟ »

## الفصل السادس

### الملابس القديمة

لقد ذكرنا آتفا ان الاستاذ تيو فلسدروخ ، على ما في ظاهره من خشونة وعجفية ، هو في الحقيقة من أرق الناس حاشية واوفرهم أدبا ، فيض صدره بمواطف الاحترام ، وينوب قلبه لينا ودمائة . والواقع أنه قد أوتى من حسن الأدب المطبوع ما يمد حلية لغير اطواره وشواذ خصاله ، كما يتحل بسنا الفجر ملهم السحاب ، فيصير أبهى روتقا من وثى الريع وآتق بهجة من وشاح السماء ، وكما يصطبغ بأشعة الشمس دخان لندن ، فيعود من فرط اللألاء ، كالذهب الوضاء . وحسبك على هذا دليلا ما يقوله عن فضيلة التأدب والاحترام : -

« ترى هل سيقى واجب الاحترام أخرى الدهور لا يؤديه الا الاغنياء ولا يؤدى لغير الاغنياء ؟ لست أرى اى تلازم بين الحسب والنسب ، وبين الترية الصحيحة وحسن الأدب ، بل عندى ان الترية الصحيحة والآداب الفاضلة هى شىء كامن فى الفطرة ، وان واجب الاحترام مفروض على جميع الناس لجميع الناس ، لا فرق في ذلك بين فقيرهم وغنيهم ، بدويهم وحضرهم . والواقع أنه لو كان القائلون بأمر تهديتنا يؤدون واجهم بنصح واخلاص ، لو كانوا هم اهلا لتأدية هذا الواجب الشريف ، لاصح هذا الفساد مع كثير سواه من المفاسد والاغلاط . نعم ولصار كل انسان لأخيه معلما ناصحا ، ومثالا صالحا ، حتى لا يبق فى العالم قروى جاني الآداب غليظ الطباع ولا قروى جاهل بأسرار علم النبات أو بأن الارض التى يفلحها كان بدو خلقها فى السماء .

«أولست يا صاحبي سواء أ كنت تقبض على صولجان الملك ، أم على  
محراث الأرض ، انسانا حيا ، ومخلوقا آلهيا ، يقول نوقاليز « ليس في الدنيا  
الا هيكل مقدس واحد ، هو جسم الانسان ، لا شيء في الأرض اطهر منه  
طهرا وأقدس قلما . وعندى أن من ينحن بين يدى هذا الهيكل الرفيع  
فاتما ينحن بين يدى الروح الالهية ، متجلية في هذه البنية الآدمية . وأنتك  
إذ تضع يديك على جسم انسان فاتما تلمس بها عنان السماء . »

«لهذه الاعتبارات كان يودى أن افعل ما لم يفعل احد سواى ، فلا اقتصر  
على الانحناء للرؤساء الروحانيين ، ومن يلبس قلانس اصحاب الدين ، كما كان  
يفعل الدكتور جونسون الانجليزى ، ولكنى اتعدي أولئك الى كل  
انسان يلبس اية فلسوة ، أو لا يلبس فلسوة ما . ولا غروا فلانزال - وإن  
لم ينتسب الى زمرة الروحانيين - هيكلامقدسا ، تتجلى فيه القدرة الالهية ،  
وتسطع الآية السماوية ؟ ولكنى وآسفا اجد هذا الانحناء لجميع الناس بلا  
تمييز ليس يجرى قضا . لأن فى قلب الانسان شيطانا كما ان فيه ملاكا ،  
والشيطان وحده هو الذى يفوز بالانحناء فى أكثر الاحيان ، اذ يضرب  
الفرور بها فى جيبه ، والفرور اجلى مظاهر الشيطان ، فى هذه الازمان . لهذا  
السبب وجب علينا أن نحتفظ بانحنائنا وأن لا نجود به البتة .

« بيد أنى اذا كنت امسك غن اداء واجب الاحترام للانسان ، فلشد  
ما اغتبط بان أودى هذا الواجب لتلك القشور والاصداف التى تنزع عن  
جسم الانسان ، فتمرض على المين هيئتمالصة قتيه ، غير مشوبة بشئ من  
شهوات الشيطانية : تلك القشور هى الملابس المتيقة أو الثياب المطروحة .  
بل ألا ترى فى الواقع ان أكثر الناس انما يؤدون واجب الاحترام للملابس

بمعناها ، وليس للحيوان فى القاعنين الذى يحتال فى أخيلها ، من ذا الذى رأى منكم أحداً من اللوردات يحبب الناس بتبعته وهو فى اسمال رثة وإطمار بالية ؟ غير أن عبادة الثياب وهى على اجسام لا بسياها لا تكون بخالصة لوجه الثياب ، بل مملوكة بشئ من التفانى والتقديم ، لأن الجسم يمدى فى كثير من الاحوال على حقوق الثياب فيستعصبها ما كان موجها اليها . فمن اراد ان يحتنب الكذب - وهو ام الخبائث - فليمدل بمبادته الى سبيل آخر ، ويعلم انه سيجد فى الثياب المنزوعة وجهها صحيحاً لتلك العبادة التى تظل ملتوية معكوسة ، مادامت موجهة الى الثياب الملبوسة . وكما ان العابد الهندى يعتقد ان بيت الآله لا يقل عن الآله شرفاً وجلالاً ، فكذلك انا اعطى الثياب وهى منزوعة من خالص الأعظام وصانق الأجلال ، مثلما ابذل لها وهى على ابدان لا بسياها - بل ازيد لها واربي ، لاني فى هذه الحالة لا أخشى على نفسى غروراً ، ولا على غيرى خداعاً .

«فقد در الملابس المتينة ! أية عظمة فيها وأى جلال ، وأية مهابة وأى وقار ! تتواضع فى شرفها ، وتنجبل فى مجدها ، بحيث لا تظفر شرز ، ولا همز ولا لمز . تقابل الدنيا برزاة وسكينة ، وترقب الحوادث فى هدوء طامأنينة ، لا تقتضى الناس شعراً الأعظام ، ولا رهب ان قوتها منهم مراسم الاحترام . تحفظ التهمة صورة الرأس وهيتها ، ولكن التروير والنباه ، وما ينم ضمناً من هذر وهذاء ، فلفظت وتولى . ويمتد كم الثوب ، ولكن لا للاذى والضرب . وتتلق السروال ، فى ارتياح وانسدال ، غير مشدود ، ولا مجهود ، ولكنه يتعلق تعلقاً رخياً ، ويتلجج تدريجاً ندياً . وينسط الصندل ، فى سكون ووقار ، غير خلق بالشهوات الجامحة ، والاطماع الجامحة ، لا يائس للجوم سحاراً ، ولا



للعطش اوارا . وهكذا تجدد الثياب تقية مطهرة ، لا تعلق بها ادران الشهوات ،  
ولا تشوشها خواجج النزفلات ، فكأنها لوهي راكبة على مشجبها ملاك روحاني ،  
أو خيال قى ، هبط الى الأرض على صهوة براق مملوئ !

« ولقد كان من عاذق - وأنا مقيم في مركز الحياة المتحضرة - عاصمة  
بلاد الانجليز - أتأمل في أحوال البشر ، وأسائل القضاء والقدر ، تحت  
سماء ذلك الضباب القامح ، والنخان السكثيف المتراكم ، كأنه بحر حالك من  
المداد ، - اقول كان من عاذق يومئذ أن أيمم سوق الملابس القديمة ولا قصد  
لى الا التذكر والعبادة . فأطوف بالحوانيت المملوءة بالثياب الليسة ، وكأنني  
لقرط المشوع أطوف بما كلف الارواح الطاهرة . وأظن أتأمل تلك الملابس  
في سكوتها القصيع واتذكر كم شاهدت وكم باشرت من افراح وازراح ،  
وشهوات وترعات ، وفضائل ورفائل ، وكل ما ينطوى عليه سجن الحياة  
من خير وشر ، وحسنات وسيئات . ايه يا خولاني اياكم وذلك الانسان التي  
لا ينوب قلبه خشوعاً في حضرة الملابس البالية . وانظروا بعين الاجلال  
الى ذلك الاملم الاكبر <sup>(١)</sup> الذي يدعوها اليه بصوته المبحوح ، من كل فج  
طموح ، كأنه اسرافيل ينفخ في الصور ، ليثبت من في القبور . انظروا اليه  
وعلى رأسه ثلاث قبعات كأنه « البابا » ، وعلى ذراعيه الممدوتين أمثال الاجنحة  
الخفاقة ، ينشرها فتجهم عليها الملابس المدسرة ، وكلما رفع ذراعه في الهواء  
ارتفع صوته المبيق الرهيب كأنه ينبعث من جوف بوق ويصيح : « هللى  
الى يا عيالات الحياة قد حانت الساعة وجاء يوم الحساب » تعالى اليه أيها  
الخيالات الرفرفة ، واعطى أنه سيفسك في مطهره ، ونزيل عنك الادناس

(١) معنى دلال لللباس القديمة .

والادران، بليلاء والنيران، وابشرى يوم تخرجين فيه الى الحياة مرة أخرى  
تقية الجيب طاهرة ! وأنت أيها الانسان الذي يوشك لهيب الورع  
أن ينطفىء بين جنبيك والذي لم تشعرق قط في حياتك بصباية التمدد ورقة  
الخشوع، اذهب يوما الى سوق الملابس القديمة، وطف في أنحائه، وجل  
في أرجائه، وتأمل واعتبر، وتبصر وادكر، ثم خبرني ألا يزال قلبك خليا  
وعينك جامدتين؟»

لارب في أن أكثر القراء، ونحن معهم، سيرون في هذا الكلام ضربا  
من المبالغة، فكثيراً ما تجولنا نحن أيضاً في سوق الملابس القديمة هذه، فا  
كنا نشعر بشيء من صباية التمدد ولا رقة الخشوع، ولعل بمض السبب في  
ذلك يرجع الى أن عملية التفكير والادكار كانت لا تزال تمطل عندنا بفعل  
أولئك الدالين والسلمرة الذين يقطنون في تلك الكنيسة<sup>(١)</sup> ولا يرحون  
يتطفلون على التمدد بافتراحت كلها دنيوية. أما تيوفلسدروخ فالظاهر أنه  
كانت تستولى عليه حالة من تلك الحالات التي لاتدع لدلال أملا في بيع أو  
شراء، فكان يترك هناك يتلوم ما شاء، لا يعطل تفكيره معطل، ولا يتطفل  
عليه متطفل. لشد والله ما كنا نشتهي أن نرى ذلك الشخص الفلسفي الضئيل  
بقبته المسنمة وه بتطلونه، القضاض، وقد اشتمل لهيب الصباية في عينيه  
ووراح يحوب تلك السوق الموهجاء، ذهابا وإيابا، منغمسا في أعماق التأملات،  
شارد اللب في رائج الاحلام والتصورات لك الله أيها الفيلسوف لقد كنت  
تنصت بينما غيرك يصخب ويلغو، وكنت تسمع بأذناك للرهفة حق  
غوا المشب وهو يغو !

## الفصل السابع

### النسائج المضوية

لقد يظهر لنا نحن الذين كان من نصيبنا أن نميش في الدنيا وعقائد المجتمع تحترق، وتحترق في بطن شديد، حتى ليكون من نعم الله علينا لو تم هذا الاحتراق في ظرف قرنين كما يزعم تيوفلسدروخ - قول لقد يظهر لنا وهذا شأننا أنه ليس لملنا الا مستقبل رمادي، وانه لن يتاح لنا أن نشاهد في مدى حياتنا غير مظاهر التخریب والتدمير. ولكن هوّن عليك فالاستاذ يرى غير هذا الرأي، وذلك حيث يقول:

«ما كان التفسير ليم مادة في أي شيء حتى الاعلى التدرج، فالأسمى مثلاً لا تكاد تسلم رداها القديم حتى يكون قد حيك تحته رداؤها الجديد. ولشدها تحطى، اذا كنت تحسب أن سبيل عقائد المجتمع في التبدل هي أن تحترق أولاً حتى تصير ركاباً من الرماد الخامد، وعندئذ تنب العقائد الجديدة وثوباً كأنها خلقت بأعجوبة فتطير علققة في الفضاء. كلاماً هذه بسبيلها إن عمليتي الانشاء والافناء يجريان سوياً في تلك الزويزة النارية، فينما يندوى في الهواء رماد القديم تكون النسائج المضوية للجديد في سبيل التكوين، ومن خلال عصف الرياح وثوران الزلازل توافي اذنيك نسمات أنشودة المائة الرخيمة منتهية بنسمات أنشودة الميلاذ التي هي ارحم وأعذب، بل انظر بينك في الزويزة تجمد ما أنا واصفه»

اذن فلم أيها القارئ. ننظر بأعيننا في الزويزة. أنه لا أمل لنا معشر الضماف المساكين أن نمر قرنين حتى يتاح لنا أن نستمتع برؤية العقائد

الجديد تمكينة الخلقه . اذن فلا أمل من أن تنظر اليها وهي في طور التكوين ،  
ولنبدا بهذه الملاحظات التي يوردها الأستاذ عن النوع البشرى بوجه عام . -  
« عينا ما تحاول انكار الحقيقة : انت اخي برضاك او رغبتك . ان  
ما تستشمره لي من حقد أو حسد ، وإن ما تهتري علي في ساعات غضبك من  
اكاذيب سخيصة ما هو الا عطف معكوس . افلو كنت آلة بخارية ،  
أكنت تكترث باقتراء الاكاذيب علي ؟ كلا وربك ! بل كنت ادور وأطحن ،  
غير محتفل بي ولا ملتفت الي سواء أسأت الطمن أو أجدته  
« عيب والله امر تلك العلائق التي تربطنا بعضا ببعض اما بعمى  
المودة الناعمة ، أو بسلاسل الضرورة الآزمة او كبرا ما قلت في نفسى وقد  
صادفت شعبا من تلك الاشباح المتبخترة الغريبة ، التي تبث في ذهن  
رائيها كل ما شاكلها من الخواطر الغريبة ، « أيه يا أخي افلو كهتوا عليك  
بقية أناء من الزجاج كأعظم ما يتصوره المتصور - أى حادث يكون  
ذلك لا بالنسبة اليك خاصة بل بالنسبة الى العالم كله عامة ؟ اذن لرائينا  
خطابك البريد ترد اليك بقلة أو كثرة ، من كل صوب وحذب ،  
فتصطلم بحيطان الزجاج ولكنها تسقط ولم يقرأ منها حرف . اذن  
لا تقطعت رسالتك عن الناس اجمعين لا يصل اليهم منك سؤال ولا جواب .  
اذن لا نجبست افكارك في خاطرك لا يتلقاها سمع عجب ولا قلب ودود .  
اذن لحرم الناس ثمرات عملك وتحتاج يديك . اذن لا تقطعت عن أن  
تكون قلبا حيا ذا أوردة وشرابين يأخذ ويعطى ، ويمت سياله جاريا في  
انحاء المكان ، وأثناء الزمان . نعم اذن لقد حدثت فحق في رداء الوجود العظيم  
العميم ، فصار واجبا وفروه !

« إن دورة المروق والشرابين ، وأغنى تلك الخطايات والاشارات  
والرسائل الشفوية والطرود البريدية التي ترد اليه وتصدر منه ، إن هي الا  
كدورة دموية ظاهرة للعيان . أما الدورة المصبية ، ذات المسارب الخفية ،  
تلك التي بفضائها لا يلعب شيء من فضاله مهادق ، الا ويترك في جميع الناس  
أثره الأذق ، والتي بفضائها يُدخل بما يرسم على سحته ، للسرة أو الكآبة  
على كل من لمح بظفره ، بحيث لا يزال يولد كل جديد من السررات  
والكآبات - هذه الدورة المصبية هي مما لا يرى بالعين ، بل يدرك بالوهم .  
أولم يبلغك أنه ما من هندي من متوحش أمريكي وصائدئى كلابها البحرية  
يتشاحن مع امرأته الا أصاب العالم من مشاحته بعض الاذى ، فأقل ما في  
الامر ان ترتفع أسعار الفرو ؟ أليس من الحقائق العلمية ان هذه الحصة اذا  
انقيتها من يدئى تنير لها مركز ثقل الكون ؟

« واذا كان الجيل الواحد يتواشج افراده بعضا ببعض هذا التواشج  
العجيب ، فان ارتباط الاجيال المتعاقبة أحدها بالآخر لا يقل عن ذلك وثاقه  
ومتانة . ألم تفكر ملياً في تلك الكلمة العميقة المغزى : الوارثة ؟ ألم تر أننا لا  
نرث من أسلافنا مجرد الحياة ، بل نرث معها آتاعها وحطامها ، نوالها  
واشكالها ، وأنا نعمل ونسكلم ، بل تفكر ونشعر ، كما علمنا آباؤنا  
الاولون ؟ من الذي طبع لك مثلاً هذا الكتاب المتواضع في فلسفة اللابس ؟  
لا تلك الشركة التي تجدد اسمهم امرقوماً دلي خلافة ، بل كاديس صاحب طيبة<sup>(١)</sup>  
ثم فوسست صاحب منتز ، وآخرون لا يحصى لهم عدد ولا يعرفهم غير .  
وكذلك لو لم يوجد بولفيل النوطى ملوجد شا كسمير الانجليزى . أيها الإله !

(١) أول من قل للحروف المهاجرة الى بلاد اليونان واخترع فن الكتابة .

إن التي صنع ابرة خياطك ، وخطاك رداك ، ليس ذلك الصانع التي تعرفه ، ولا الخياط التي تمده ، بل هو توبل كان ، أول من استخدم الحديد في مرافق الانسان !

« حقائق كانت الطبيعة شيئا واحداً ومجموعاً حياً لا يقبل التجزئة ، فالنوع البشري ، وهو الصورة التي تمثل الطبيعة وتنشئها والتي لولاه ما كانت الطبيعة ، هو كذلك من باب أولى . وفي جسم هذا المجموع الآدمي العجيب يجري ، بين الكثير من التيارات الخفية ، ذلك التيار الملموس المرئي : تيار الآراء ، متمثلاً في المعاهد العلمية والمنشآت الدينية وعلى الاخص في الكتب . بديع والله ان تعلم ان الموت لا يعرف الى الفكرة سيلاً ، وان صاحب الفكرة كما يحنيها وينشئها من الماضي برمته ، يورثها ويهديها للمستقبل برمته . وكذلك ترى ان القواد الديني والعين الجلية اللذين كانا في القرون الاولى لم ينحيا ولم ينمعا ، بل هما باقيات فينا نحن أصحاب القرون الاخيرة ، فنحن بفلك القلب نشمر ، وبفلك العين نبصر .

ومما هو جدير بالاعتبار ومفيد لتقسم هذا المجموع البشري تقسيمه أجيالاً . فالجيل هو للبشرية المتبعة بمثابة الايام ، والوقت والميلاد هما نافوسا المساء والصباح اللذان يدعوانها الى النوم ثم الى الانتباه لاستئناف التقدم متمشة الجوارح بمجددة النشاط . والتي يستطيعه الآباء يستطيعه ويستمتع به الابناء ، ولكن لهم فضلاً عنه عملاً خاصاً بهم وواجباً مفروضاً عليهم . وكذلك ترى كل شيء في تقدم مستمر وارتقاء ، فالفنون والمذاهب والعلم والآراء ، كل ذلك لم يبلغ كماله ولكنه لا يزال يتدرج اليه . لقد تعلم نيوتن ما استكشفه من قبله كبلر ، ولكن نيوتن قد أوتى قوة مساوية جديدة ،

فلا بد له من الصعود الى درجة أرق في سلم المرفان . وهكذا أيضاً جاء الرسول المسيح مكملًا للمشرع الاسرائيلى . وانك لتجد مثل هذا الترتيب والثوب في اعمال القضا والمعلم ، التى هى من آن لآخر فرض واجب وضربة لازب . فلوتر وجد من الغفء كفايته في احراق تذاكر النفران التى أصدرها البابا ولكن فولتير لم يجد في ذلك الرماد الخائى صلا كافيًا ، فاحتاج الى وقود جديد . ذلك شأن الانسانية اينما وجدت فيها الفيتا في حياة وحركة ، في تقدم بطلء أو سريخ ، كالمنقاء لما علقه في كبد السماء ، ترفرف بأجنحه ، مبسوطه وتغلا الآفاق بالفناء ، واما - كما فعل الآن - مسفة الى الثرى ، ملفعة بالهيب واللفظى ، كى تعود فتعلق الى أفق اعلى ، وتتردد بصوت اصنى . »  
وهنا يصرح الناشر بأنه لا يلاقى في مبحث من مباحث هذا الفيلسوف من الدهش والحيرة ، بل من العنت والعناء ، مثل ما يلاقى كلما تعرض به لموضوع السياسة . لذلك نضرب صفحاً عن الكثير من اقواله في هذا الصدد ونكتفى بإيراد العبارة التالية عن عبادة الابطال ، ولعلها احدى النتائج العنوية التى خرجنا للمبحث عنها في هذا الفصل : -

« صحيح ان الانسان في هذا الزمان أصبح قادراً على كل شيء تقريباً  
الاطاعة ، وصحيح ان العاجز عن الطاعة عاجز لاجالة من الحرية ، وعاجز  
من باب أولى من الحكم ، وان الذى ليس هو أنتى من شيء لن يكون أعلى  
من شيء ، كلا ولا نظير امساويا لشيء . ولكن اياك ان تحسب الانسان قد  
فقد مع هذا ملكة الخشوع والاجلال ، وانما هى في رقدة لاتبث ان تستفيق  
منها ، والحق انه ليس أبغض الى ابن آدم من هذا الاستقلال التائر حينما  
يصبح ضرورة متعنتة . فلك بأنه ليس الا في معاشره اخوانه على الصفاء

والهبة يستطيع المرء ان يشعر بالعلانية، وليس الا بالانحناء في خشوع الملم  
الذى هو أعلى منه يستطيع المرء ان يشعر بالرقة .

« ومن ذا الذى يدرى فلفل الوصف الحقيقى لمصرنا هذا التأثير للشرود  
ان الانسان قد تحلى بتأنا عن رذيلة الخوف ، وهى الاخس الادنى ، ولكنه  
لم يتحل بعد بفضيلة الخشوع وهو الارفع الاسمى ؟

« ولانه لمن عجائب صنع الله أنحيثما وجد شيء جدير بالطاعة ، لم يكن  
فى وسع الانسان إلا أن يطيعه . وانه حيثما تجلى السر الالهى ولو فى أضنف  
لحمة ، كان من الحال على الانسان أن يقف أمامه جامداً غير خاشع ، لاسيما  
إذا كان هذا التجلى يترأى له فى صورة أخيه الانسان . وكذلك لا يزال  
يوجد فى القلب الأدنى طاعة دينية صادقة ، كلمنة مستسرة ، بل ظاهرة  
جلية - حتى فى عصرنا هذا - بمظهر « عبادة البطولة » . عجيبة والله هذه  
الحقيقة القائقة وهى أن عبادة البطولة مازالت ولا تزال ولن تزال موجودة  
فى كل زمان ومكان إلا يرى القارىء فى هذه الحقيقة حجر الزاوية الذى  
يمكن أن تتوطد عليه دساتير الشعوب وأوضاع الحكومات على مدى الحقب ؟ »  
وهنا يقول الاستاذ « أم هل نسبت باريس وفولير ، وكيف كان ذلك  
الشيخ المتهم القاتل ، مع أنه لم يكن إلا فيلسوفاً ساخراً مثشككاً وشاعراً  
متلقفاً مستجدياً ، قد أصبح معبود أهل زمانه ، لالسبب سوى أنهم كانوا  
يروونه أعقلهم وأفضلهم ، فكانوا جميعاً ينتشرون بالاندماج فى حاشيته ،  
ويتساقون إلى المني فى ركاية ، حتى لكان الامراء منهم يرون الفخر كله  
فى الفوز بابتسامته من ابتساماته ، كما كان الحسان منهم يودون لو يفرشون



شعورهن مداساً لخطواته ؟ نعم لقد كانت باريس كلها يومئذ هيكلًا لعبادة البطولة ، وإن كان المعبود أشبه بالقرود منه بالإنسان !

ثم يستطرد الأستاذ قائلا : فإذا كانت هذه الثمرة قد جنت من الشجرة القلوية فلي الثمرات تنجي من الشجرة الناضرة ؟ إذا كانت أمثال هذه الفضائل تجعل في أعمل فترة من تاريخ الإنسانية ، وفي أفضل بقع من القارة الأوروبية ، يوم كانت الحياة الباريسية لا تبدو أن تكون مجموعة من الأعشاب المجففة والأزهار الصناعية ، فأى الفضائل يرجى ظهورها متى عادت الحياة راية مورقة ، مهتزقة ، وأصبح البطل المعبود آدميا بحثا ليس فيمن القرود أدنى شبه ؟ ألا فلتعلم أن في الإنسان نزعاً لاستئصال الخشوع أمام كل شيء يستمد القوة من السماء ، بل أمام كل شيء يوم بأنه يستمد هذه القوة . وإن كنت في شك مما أقول فما طيك إلا أن تقنع أى مغفل من أشد الناس غفلة وغباء ، أو أى مغرور من أشدم تها وكبرياء ، بأنه في حضرة نفس أكبر من نفسه وأنا الزعيم لك بأنه لا محالة جاث على ركبتيه خشوعاً ، وإن تكن مفاصله من فرط التصلب تحكى الحديد الصلب .

وهلا يلح القارئ فيما يلي نسائج عضوية من نوع آخر (أقرب إلى الحقيقة) تفزل وتحاك ؟

« أقول انه لا توجد الآن كنيسة ؟ أقول إن صوت النبوة قد خرس ؟ إنى أنازعك حتى في هذا . ولكن كيف كان الامر ألا ترى أنه لا نزال لدينا من التبشير ملفيه كفاية وغناء ؟ إنك لتجد في كل قرية راهباً مبشراً ، ابني نفسه متبراً ، يسميه في عرفه جريئة ، ويلقى من ذوابته على الناس عقيدته التي بها يدين ، داعياً إياهم إلى الصراط المستقيم . ألسنت تلقى إليه سما صاغياً

وقلباً واحياً ؟ تأمل ملياً تجد في كل مكان طائفة جديدة من القساوسة والنساك يهتثون لا تقسم نظاماً ، ونهمكون في الارشاد والتبشير بحماسة وحرارة ، اما في نظير الصدقة ولما لوجه الله . انهم دائبون في تحطيم الاصنام القديمة ، ولئن كانوا هم أنفسهم في الغالب من الآثمين ، شأن عظمى الاصنام في المادة ، فانهم ليخططون بمواقع الكنائس الجديدة لمن يأتي بعدهم من الابرار الصالحين ، حتى يحدد هؤلاء السبيل مبعداً ، وللمكان لاستمعيهم مبعداً . أو لم أقل إنه قبل أن يسلم الرداء القديم يكون قد حيك تحت الرداء الجديد ؟

« أقول انه لا يوجد الآن دين ؟ صلة لك من أحق المني أقرر أن الدين موجود . ألم تذكر ملياً في هذا السيل الزاخر للزيد الذي نسميه الادب ؟ انه ليعوي قطعاً رائحة من صادق الادعية والاوراد سوف ينسحقها الزمن . وهلا تدرى أن في هذا المصّر نبيا يلبس للمصر لبوسه ويتحدث بلهجة ؟ ألا تدرى انه يوجد في هذا المصّر انسان تجلى له السر الالهى ، في كل رفيع وكل وضع من مظاهر المألوف المألوف ، فراح بدوره يجلوه على الناس في اغنان ملهمة تميد للحياة حتى في هذا المصّر - عصر الخرق والاهدام - ما كان لها من روضة وقناسة ؟ ألا تعرف إنساناً هذصفته ؟ إلى أعرفه وأسميه - جوتاه »

---

## الفصل الثامن

### الحقيقة الباطنية

في هذا القسم للدهش الخطير من الكتاب يصيح الاستاذ لأول مرة طارفاً رانياً يرفع عنه الحجاب ، ويصير الحقيقة والباب ، ويتكهن أخيراً بمد

طول الرياضة والجهاد ، من تذليل فلسفة الملابس العvisية القياد ، فيقبض على ناصيتها عافرا موقفا . لقد كان عليه قبل أن يصل الى غرضه أن يكافح ما يمترض دون الحقيقة من مختلف الاشباح ، وكان شر ما يلاقه منها شبحان هائلان ، بالوجود كله عيطان ، اعنى شبحى الزمان والمكان . يدا أنه قد أخذ يتلايهما وما زال بهما حتى زرقما تمزيقا . وصفوة القول أنه ما برح يمدق في الوجود حتى ذاب وتلاشى كل ما ينطيه من الاغشية الارضية ، والظواهر المرضية ، فاصبح وقد انكشف لعينه المبهورة المر للصور من قدس الاقداس .

نم هنا تصل بنا فلسفة الملابس الى الحقيقة الباطنية ، فلو استطنأ أن تنب الوتبة الاخيرة الباقية علينا لافينا انفسنا في أرض الميماد . إذن فالتشجاعة الشجاعة أيها القارئ ! لقد أطلنا التأمل في هذا الفصل من الكتاب فلم نجد غير مفهوم ، كلا ! بل رأينا كليا زده تأملا زادنا إلماما وإيضاحا .

قم أنت بواجبك مصوبا اليه كل ما أوتيت من روية وتفكير ، كما نحن نحاولون أن نقوم بواجبنا بحسن الاختيار والترتيب .

والآن اسمع كيف يبدأ الاسمةُ قوله بكل هدوء : « ما أمضى منزى المعجزات ، إنه لا يمد غورا من كل ما تتصورا يد أن سؤال الاسمة إنما هو : ما هي المعجزة ؟ لقد كان ملك صيام يرى في قطعة التلج معجزة ، فكل من تقدم اليه بمضخة هوائية وزجاجة من الاثير كان في استطاعته أن يقوم لديه بمعجزة . كذلك جواى الذى امتطيه والذى هو أقل معرفة من الملك الآف الذكر أليس يرى أنى أقوم بمعجزة كما شئت أن أبذل درهين فلتفتح له حاجز المكس ؟ ولكنى اسمع الكثيرين ينسألون « البست المعجزة الحقيقة إنما هي خرق للنواميس الطبيعية ؟ » وجواى عليهم هو هذا

السؤال «وما هي وحكم هذه النواميس؟» لقد يلوح لي أن قيام الميت من بين الاموات ما كان ليكون خرقا لها بل تأييدا لو اننا عرفنا منها بعض ما نحن هنا .

«وكأن يعض المتنورين يصيح قائلا .» ولكن هل غلب هناك أن المعروف يقينا عن هذه النواميس أنها ثابتة لا تتغير ، وأن آلة الكون مقيمة في سيرها بقواعد لا تقبل التحوير والتبديل ؟» لعل الامر كما تصفون يا أسعدي ! بل أنا أيضا لا يسعني غير الاعتقاد بأن الله - الذي يؤكد الملمهون الاقدمون انه لا يتقاب ولا يتحول - هو في الواقع لا يتغير البتة ، وأن الطبيعة ، التي لك أن تسميها آلة الكون ، إنما تتحرك طبقا لقواعد لا تقبل تبديلا أو تحويرا . ولكني ، مع التسليم بكل هذا ، أعود فأوجه اليكم هذا السؤال القديم . « ترى ماذا عسي أن تكون هذه القواعد التي لا تقبل التبديل والتحوير ؟ »

وأراكم سحيبون « أنها مدونة في كتب المعلوم ، ومقيمة فيما جمع الانسان من التجارب » أو كان الانسان وتجاريه إذن شاهدين يوم الخلق حتى أحاطوا خبرا بكل ما جرى يومئذ ؟ أم هل استطاع علماءكم أن ينصوا في أزمان الوجود حتى وصلوا إلى قراره ، وسبروا كل شيء في أغواره ؟ أم هل كان الخلق جل شأنه قد أطلعهم على سره ، واستشارهم في أمره ، فوقفوا على خطة تدبير الكون ، وصار في طاعتهم أن يؤكدوا القول بأن هذا الشيء مدون فيها وهذا غير مدون ؟ هيئات لاشيء من ذلك البتة . ان هؤلاء العلماء لم ينهبوا إلا حيث ذهبنا ، ولم يلبثوا إلا حيث بلغنا ، وكل ما

يحتارون به هنا أنهم يستشفون بضعة أشبار من أعماق ذلك الخضم الذي لا قرار له ولا ساحل ، ولا أول ولا آخر .

« إن كتاب لابلاس عن النجوم - الذي يشرح لنا كيف تدور بضع سيارات وتوابها حول شمسا اللوارة بسرعة معينة وفي مجرى مخصوص - هذا الكتاب له في نظري من القيمة ماله في نظر أي إنسان سوى ، ولكن أهذا هو الذي تدعونه نظام الكون ؟

« نظام الكون وما ادر الكما نظام الكون : ان اتقب الناس نظرا واكبرهم عقلا ، مهما اتسع نطاق بصره وامتد قلب فكره ، لا يزال يرى ان الطبيعة ذات حق لا قرار له واتساح لا غلى له ، وان كل ما حصله البشر من التجارب والعلوم ينحصر في دائرة قرون معدودة وقراسخ معدودة . لقد وقفنا بمض الشيء على مجرى تصرفات الطبيعة في هذا الكوكب السيار ، ولكن من يدري على اى عجار حقيقة اخرى يترتب هذا المجرى ، ولى تروس ودواليب ( من الأسباب ) بما هو اجل واكبر ، يدبر هذا الترس الأثق الأصفر ؟ ان السمكة الصغيرة قد تعرف وتألف جميع ما احتواه جونها الصغير من تقب وزاوية ، وحصة وقوقمة ، وظاهرة وحلدة ، ولكن هل تدرك السمكة سر مد المحيط وجزره ، وهل تحيط علما بجاري التيارات ومهاب العواصف ، وهل لها المام بأحوال الرياح الموسمية وشؤون الرياح التجارية وكسوف القمر وخسوفه ، هل تعرف السمكة جميع هذه الامور التي تتوقف عليها الحال في جونها الصغير ، والتي يحوز لها من أن لا آخر أن قلب نظامه وتنكر أحواله من غير أن يكون في ذلك خرق للنواميس الثابتة ، ولا اتيان لمعجزة خارقة ؟ كذلك مثل ابن آدم في هذا الوجود . فالسمكة الصغيرة هي

الانسان ، والجون الضيق هو هذا الكوكب السيار ، والمحيط الفسيح هو ذلك العالم الذى لانهاية لانساعه ، والرياح الموسمية والتيارات الدورية هى النواميس الخفية التى تجرى عليها للمقادير فى متعاقب الابد .

« لانزال نتحدث عن كتاب الطبيعة . لى انه لكتاب لاريب فيه خطه الله بقلمه . أترك تحاول أن تقرأه ؟ هل فى طافتك ، هل فى طاقه أى انسان أن يتفهى حروفه ، ولا أقول أن يقرأ مفرداته وجملة وأن يتلو صفحه الواسعة المنشورة فى عرض السموات والارض وعلى مدى الدهور والاجيال ، بما حوت من بدائع ثروشر ، وروائع فلسفة وحكمة ؟ لى انه لكتاب مقدس مصون ، مسطور بحروف هيروغليفية سحرية ، فطوبى للانبياء أنفسهم اذا استطاعوا أن يفهموا منه سطرانا وسطرانا هناك ؛ أما مجملع الفلاسفة ومحافل العلماء فؤلك يماهدون جهاداً صادقاً حتى يوقفوا لى التقاط بعض حروفه المكتوبة بخلط العادى ، لا الهيروغلىفى ، يتصيدونها من بين سطوره المعقدة وجملة المتعاطلة فيؤلفون منها ما استطاعوا من الوصفات الاقتصادية ذات الفوائد الجزيلة فى الاغراض العملية . ولكن قليل م الذين يتصورون أن الطبيعة شىء أجل وأعلى من مجلد ضخم يحتوى ما لا يحصى من أمثال هذه الوصفات ، وقليل م الذين يدركون أنها شىء أعظم وأسمى من كتاب هائل عن تدير المنزل وصناعة العلمى سوف يتوصل الانسان يوماً ما الى استظهار محتوياته واكتناه أسرارها .»

ثم يستمر الاستاذ قائلاً : ان المادة لتجلبنا جميعاً باها مغرفين . تأمل ملياً تجد أن المادة هى أعظم النساجين ، وأنها تنسج لكل ما يعمر الكون من أرواح وجنيات غلال من الهواء ، ترتديها فتظهر بها لاهيتنا وقيم يتناقى

المصانع والبيوت خدمة امناه ، ومهنة نشاطه . ولكن طبيعتها الروحانية تختفى يد النهر من جمهور الناس . ولعلنا نشكت فلسفة من ان المادة قد عصبت ابصارنا من اول الامر ، ومن اننا نفعل كل شيء بالمادة : حتى لنؤمن بالمادة ، ومن ان سواثر أمثالنا وبديياتنا ان هي الا عقائد تلقيناها بالمادة ولم نكافأ أنفسنا الارتياب في محتها . بل حدثني : ما حقيقة الفلاسفة ان لم تكن كفاحا مستمرا مع المادق ومجودا متجددا للخروج من دائرتها الممياء ، وصدم قيودها المسمرا ؟

« إن ما تأتيه المادة من فنون الاضاليل وخدع الشعوة شيء لا يحصى ، ولكن ربما كان امهر حيلها اقتناعنا بأن الامر للعجز يصير بفضل التكرار غير معجز . صحيح اننا بهذه الوسيلة نستطيع البقاء في قيد الحياة ، لا نه لا بد للانسان من ان يعمل كما لا بد له من أن يجب . فالى هذا الحد تكون المادة للانسان مرضعة شفيقة ، تهديه الى مراشده الصحيحة . ولكنها تنقلب مرضعة خرقاء أو بالحري نصبح نحن رضعا مغفلين اذا تعادينا في تصديق هذه الخدمة اثناء ساعات الفراغ وأوقلت التأمل والاعتبار . هل حتم على ان انظر الى الظاهرة المعجزة يحمود وبلادة لاني شاهدها مرتين أو متى مرة او مليون مرة ؟ لا أرى سببا يحملني على ذلك ، اللهم الا اننا كنتم مجرد آلة صماء . ليست عندها موهبة الفكر السلوية الا كوهبة البخار الارضية بالنسبة للآلة البخارية : أعنى قوة بفضلها ينسج القطن ، وبفضلها يحرز اللؤلؤ وما يقوم بلال . »  
« بيد ان اخدم للظواهر المادمة وابلنها في اغفاء العجب مماذا نك لاظهوره الرئيسيان ، المحيطان بالحياة من جميع الازكان ، أعنى الزمف والمكان . انهما وهما ان ينزلان لنا قبل الميلاد وينسجان ، فلا تكاد النفس ، تلك النضعة

الآلية اتبطل الى هذا الوجود حتى يحيط بها ، ويضامها ويضمها ،  
فيكونا لها كارقمة الشاملة يتراى عليها كل ماعداهما من التهاويل ، أو قل  
كاللص والسردي يحاك بهما كل ماسواهما من الاشباح . وهبنا محاول ، ونحن  
في هذه الحياة الدنيا ، أن نخلصهما من أنفسنا ، بل كل مانستطيعه أن نشقهما  
شقاً لا يلبث إلا ربنا نسترق من خلاله لحة ثم يعود ملتماً في أسرع من  
خطف البرق .

« لقد زعموا أنه كان «فور تينانس» طقية تدعي طقية الاماني ، إذا  
لبسها وتقي أن يكون في أي مكان لم تكن إلا لحة الطرف حتى يجد نفسه  
فيه . بهذه الوسيلة تغلب فور تينانس على السكان وأخضعه ، بل أفناه وأعدمه .  
فلم يعد لديه شيء يدعى « هناك » بل أصبح كل شيء لديه « هنا » . فلو أن  
تاجر قبعلت اتخذ لنفسه حانوتاً في مدينتنا ، وأنشأ يبيع للناس قبعلت  
كهنه على جميع الاشكال ، أي دنيا صبايب ومميزات يصبح يومئذ هذا  
الوجود الذي نحن فيه اثم تصور أن تاجر آخر اتخذ لنفسه في الصف  
المقابل من الشارع دكاناً أخرى ، وجعل يبيع فيها قبعلت لأفناء الزمان ، كما  
جعل زميله يبيع في حانوته قبعلت لأفناء السكان ، أي غرائب يدائع تصبح  
يومئذ في مثالنا ! الله لو تحقق ذلك ما ترددت لحظة في شراء قبعتين من  
كلا النوعين ولو بأخردهم مئ . يا لله أضع فوق رأسي إحدى القبعتين  
ثم اتصور مجرد التصور أنني في أي مكان شئت من ملكوت الله ، فإني  
إلا لحة الطرف حتى أجدني هناك اثم أضع على رأسي قبعتي الاخرى واتصور  
كذلك أنني في أي زمان شئت ، فإني إلا لحة الطرف حتى أجد نفسي  
قد انتقلت الى ذلك الزمان ! هذا امر الحق هو العجب الاغمر : هذا



التقل من مبدأ الخليفة الى متنها - في هذه اللحظة أكون حاضرا في القرن الاول من العهد للماضى أحدث وجهها لوجه الى سنيكا ويولس ، وفي اللحظة التالية أكون حاضرا في القرن الواحد والثلاثين من الزمن الآتى أحدث أيضا وجهها لوجه الى سنيكا ذلك الزمان ويولس من لا يزالون محتبثين في ضمير الغيب ، وسوف تدخض عنهم الاليم بلا رب !

« أم هل تحسب هذا أمرا عالا لا سبيل الى تصوره ؟ أفى ظنك أن الماضى قد تلاشى ولم يمد الا ماضيا ، وأن المستقبل لا ينفك معدوما وليس إلا مستقبلا ؟ إن الجواب على ذلك ليخلص اليك مقدا من هاتين للمكتبتين المسييتين المركبتين في خلقتك : الله كرى والامل . فن خلال هذين المسارين الخفيين تستطيع أنت أيها الراسف في القيود الارضية أن تستحضر الماضى والمستقبل ، وأن تاجيهما وان لم يكن الا بالمبارات المبهمة والاشارات الصامتة . صحيح أن أستار الامس لا تنفك تنسدل ، وأن أستار الند لا تنفك ترتفع ، ولكن هذا لا ينفى أن الامس والند كلاهما كائن موجود . أفنذبصرك خلال هذا الغشاء الزماني وأنظر في الابدية ، نعم وصدق ما تراه مكتوبا في قدس الاقداس من سريرة الانسان وما لم يزل المفكرون يقرؤونه في تأمل وخشوع على مدى الازمان : أعنى أن الزمان والمكان ليسا هما الله ، وإنما هما من صنعه ، وأن عند الله كل مكان قائم هنا ، وكل زمان راهن الآن .

« وبعد أفلا تدرك في هذا لحظة من سر الخلود ؟ يا الله ! أهذا القبر الذى أودعته شخص المحبوب بصد أن فاضت روحه بين يدي ، والذى يرفع لى على البمد كأنه علم شاحب حزين من أعلام الطريق ، يلهى كى قطعت في وحدتى من القراسخ الموحشة المتعبة - أهذا القبر

ليس الا طيفا شاحبا ، وخيالا كاذبا ؟ أوليس في الحق ان الفقيد العزيز على  
لا يزال قائما مع الله هنا ، كما نحن قائمون ويايه هنا ؟ ألا نعلم أنه لا يفنى ولا  
يمكن ان يفنى غير الاشباح الزمنية ، اما الروح الحقيقية لاى شئ . كان او  
يكون اوسوف يكون قفاعة هنا ، الآن والى ابد الأبدن .

« لسنا ننكر ان من الامور المناسبة العادة التي لا مناص منها ولا محيد  
ان تكون تصوراتنا وتخيلاتنا وافكارنا في جميع شئوننا العملية مكيفة  
معدة بتأثير الزمان والمكان ، وهما القالبان الذهنيان اللذان افرغنا فيهما لكي  
نطبق المعيشة في هذا الكوكب السيار . ولكن الذي لا ندرك وجه الحكمة  
فيه ان يكون لهما مثل هذا التأثير والسلطان على تأملاتنا الروحية . لجرده ،  
بحيث يعميان ابصارنا عن رؤية العجائب المدهدة بنا من كل صوب وحذب .  
تأمل مليا في فعل الزمان والمكان ، وانظر كيف يحجبان عنا بنشائهما الرقيق  
ما يخطف الابصار من نور الرحمن . ألا يكون من المعجزات مثلا أن امد  
يدى فامسك بها قرص الشمس في كبد السماء ، ومع ذلك الا ترائي وميا امد  
يدى وامسك بها كثيرا من الاشياء ، ثم ارى بها ذات اليمين وذات اليسار ؟ أفأنت  
لاذن طفل مسن حتى تنوم ان سر المعجزة انما ينحصر في كثرة الاميال ، او في  
عظم الاقلال ، وينيب عنك ان المعجزة الحقيقية الالهة انما تنحصر في استطاعتى  
مد يدى ، وفي أن لى قوة امسك بها أى شئ . هذا مثل واحد من الامثلة  
التي لا تخص على ما يفعله بنا المكان من صنوف الخدع وضروب التمويه .  
« وأما من جهة الزمان فالامر أسوأ حالا وأضل سبيلا . فاذا سئلت  
عن الساحر الأ كبر وعنى العجب الاعظم ، فقل هو الزمان الخادع ، ولو كانت  
لهيئة طقية لاخفاء الزمان تلبسها ولو مرة في العمر ، لرأينا أنفسنا في عالم من

المسجلات لا يقوم أمله كل ماورد في أساطير الاولين من عجائب السحر  
وبدائع المخلوقات . ولسكنا لسوء الحظ لا نملك مثل هذه الطقية ، والأ نسان  
مخلوق عاجز لا يستطيع رؤية شئ . بدونها .

« ألبس من السجب العجيب مثلاً أن يشيد ارفيوس جدران طيبة  
لابشئ . سوى نemat القيثارة ؟ إذن خذني عن شيد هذا المدينة التي أسكنها ،  
فوطد اساسها ، ورفع سمكها ، ودعم عمداتها ، وهندس بيوتها ، ونظم طرقها  
وأسواقها ؟ البس هو ارفيوسا آخر ، أعلى من الاول كله وأرفع صوتاً ، أقام  
بين الناس في سالف الدهور ، فهدام إلى الحضارة والنور ، بنمات مواعظه  
البالغة ، وموسيقى حكته المنزلة ؟ إن ارفيوسنا الاسمى كان يطوف في البقعة  
المقدسة منذ ثمانية عشر قرناً ، وكانت الحانة المذبة السابوية تقرر آذان الناس  
فتأخذ بجامع قلوبهم وألبابهم ، ولا تزال حتى اليوم ، بما فيها من الاخلاص  
والصدق ، ترن في مسامعنا ، وتفيض في قلوبنا ، فتهدينا إلى الخير والحق .  
أ يكون الامر عجباً إذا تم في ساعتين ، ثم لا يكون عجباً إذا تم في دهرين ؟  
ليست طيبة بالمدينة الوحيدة التي رفعت بنيانها موسيقى ارفيوس ، بل مامن  
مدينة تبني ، ولا من محل جليل يؤدى ، إلا ويكون السر فيه ، والموحى به  
موسيقى ارفيوس ملهم .

« امط من بصرك غشاء الزمان ، وتعقب بنظرك إن كنت ذا عينين  
للسبب القريب الأدنى ، إلى سببه البعيد الأقصى . هل الدفعة التي يسري أثرها  
مستقلا في سلسلة طويلة من مرن السكرات ، تختلف في جوهرها عن قس  
هذه الدفعة لو أنها وجهت مباشرة إلى آخر كرة فارسلتها طائفة في الفضاء ؟  
لحني على طقية لاخفاء الزمان انقلك بها من البدايات إلى النهايات إذ ذاك

لا تكشف النطاء من بصيرتك ، ولتفرق غواظك في بحر من النور والسحب ، ولا تضع لك أن هذا العالم البديع هو ، حتى في أحقر مظهره ، مدينة الله ذات القبة المزودة بالكواكب والدراري . إذ لا رأيت مجدالملي القدير يسطع في باهر ضيائه ، وبارع لألآئه ، من كل نجم في الخضراء ، وكل نجم في النبراء . ولكن ما الحيلة ، والطبيعة التي هي رداء الله الزماني لا تزال تخفيه عن أعين الجهلاء ، وإن كانت تجلوه لبصائر الحكماء ؟

« ثم هل في الوجود شيء هو أدخل في باب العجب المعجز ، من طيف حقيق يرى بالمعين ، ويلبس باليدن ؟ لقد ظل الدكتور جونسون طول عمره يتوق إلى مشاهدة طيف كهذا ، فاستطاع إلى بنيته سبيلا ، مع أنه طالما اختلف إلى ظلمات القبور ، وقرع توابيت الموتى . ضلة له من فبي احق ! هلا خطر بباله أن يحيل طرف القلب ، كما يحيل طرف العين ، في تيار الحياة الزاخر الادماء ، الذي ما زال يحبه من صميم الفؤاد ؟ هلا خطر بباله أن ينظر مرة ، ولو إلى ذات نفسه ؟ أنت بسينك أيها الدكتور التقى ، طيف حقيق ترى بالمعين وتلمس باليد كما يشتهي قلبك ، وبالتقرب منك ملايين من الاطيف تعبر الطريق على جانبيك . ها أنا ذا أعيدها مرة أخرى ، أمط عنه البصر غشه الزمان ، واختصر عمر الانسان إلى ثلاث ثوان : ثم قل لي ماذا كنت أنت ، وماذا تكون نحن ؟ ألسنا أرواحا ، أو أطيافا سر بلت هياكل الابدان ، فبرزت للميان ، وما هي الأطراف المين حتى تتلائم كالهيا ، وتدرج في طي الخفاء ؟ حقيقة علمية ليست باستمارة ولا مجاز : أننا ننشأ من الدم ، ونظهر في صورة البدن ، ونحن بعد أطياف تحيط بها الابدية ، والعقائق عند الابدية أجيال وآزال . أفلا تهبط الينا أغاني الحب والإيمان كأنها تنثر من

أوتار عيدان سماوية ، أو كأنها نشيد المقرين في عليين ؟ ثم أفلا نسمع لثاء في لثط اللصومة والجدال ، صريراً وعزفاً كاصوات الجان ، وهلا ترانا طوراً تنساب في الخفاء ، ضلعاً مشؤمين مخيفين ، وطوراً ننور في مراقصنا الهوجاء ، صخاين متوثبين مربردين - حتى يتفحنا الصباح بنسيمه يدعونا الى دار القرار ، ويستيقظ الليل المحاجس مسفراً عن وجه النهار ؟ أين الاسكندر المقدوني ؟ أين القوارس تهتف حوله في حمس الوغى ؟ أين الكتائب تلمع أستنها في رونق الضحى ؟ هل أقامت بدمه ، أم اقتفت أثره ، فتلاشت كلها واختفت ، كما تختفي المفاريت اذا أزعجت ؟ أين نابليون وجحافلہ ؟ أين الوقائع والملاحم ، أين الانتصارات والمهزائم ؟ هل كان كل ذلك الاقتصا للأطياف وطرادا ، أو حش الليل بضحيجه للربح ثم املس املاساً - أطياف ! ان منها في هذه اللحظة نيف وألف مليون يدبون على أجيم النبراء ، وللشمس في كبد السماء ، يختنى منها بضع خمسين ، ويظهر منها بضع خمسين ، قبل أن تدق ساعة جييك دقة واحدة .

« يا لله ! ما أعجب هذا الامر وما أهوله ! أكلنا سيكون طيفاً في المستقبل ، بل كلنا في الواقع ذلك الطيف المستوهل ؟ انى لنا بهذه الجوارح والاعضاء ، ملعنة القوة العاصفة ، والدماء الحامية ، والشهوات الملتبئة ، كل هذا غبار ، بل هباء : جهاز من الظل يحيط بالنفس ، ويكون من حين الى حين مهبطاً لاوحي . أنظر الى ذلك الفارس المستلثم ، ممتطياً جواده العتيق ونار الحية تلتهب في عينيه ، والبأس والقوة يمحشان في قلبه وساعديه : ولكن الفارس والجواد ليسا الاخيالا يترامى ، وقدرة تتجلى . يطآن الارض في رزاة وثبات ، كأن الارض مهاد وثيق : صلة له ان هي الاغشاء رفيق ،

ينشق في لمح البصر ، فلذا الفارس وجواده في قمر هاوية لا ينالها مسبار .  
مسبار ؟ كلا ان الوم نفسه ليكل دون تمقيهما . فيا للسجب منقليل من الزمن  
لم يكن لهما وجود ، وبعد قليل من الزمن لم يصر لهما وجود ، عني عليهما  
الفناء ، ولم يترك منهما حتى الغاء .

« وكذلك سنة الله في خلقه من البداية الى النهاية . جيل بعد جيل  
يكتسي رداء الجسم ، ويخرج الى عالم الشهادة من ضمير النيب ، حاملا رسالة  
الله بين يديه . ينفك كل ما رزق من حول ومن أيد ، فواحد في طاحون  
الصناعة ناسب ، وآخر على جبال العلم البواذخ صاعد ، وثالث على صخرة  
الشحناء يتعلم وأخاه في كفاح ناسب - وما هي الا كرة الطرف حتى  
يدعى الرسول الى وطنه السماوي ، فيسقط عنه الرداء الدينيوي ، وعلس  
من الميون املاص الطيف الخفي . كذلك يمر موكب البشر برهودم وبروقهم  
في قطر تباع ، وصفوف سراع ، يخترقون أحماق الابدية كأنهم فيلقى علوى  
يحمل صواعق السماء ويراتها ا كذلك نطلع مشر البشر من ظلام النيوب ،  
فنبر الارض ، وهي مأخوذة ذاهلة ، مسرعين في جلبة وقصيف ، ثم نطلس  
مرة أخرى في ظلام النيوب . فاذا جبال الارض من عبورنا قد نسفت ،  
واذا بحار الارض قد ردمت : ومن للارض بدفنا ، وهي مادة فانية ، ونحن  
أرواح من الحق باقية . لنا أثر في كل بقعة مجهل ، وطبع قدم في كل صخرة  
جلد ، تقرأ ساقتنا المستأخرة ، ما خلف الطلائع المستقيمة . ولكن ناشدتك  
الله ! من أين والى أين ؟ الشاعر لا تدرك ، القلب لا يعرف ، انما ننقل من  
النيب الى النيب ، من الرب الى الرب :

المبش نوم والمنية يقظة والراء بينهما خيال سارى .

## الفصل التاسع

### نظرة استعراض

هنا يمرض هذا السؤال الخطير : ترى هل أتيح لكثير من القراء أن يلعنوا معنا أرض اليعاد ، وهل شرعت فلسفة اللابس تنكشف أخيراً عن غوامضها ، وتفسح عن بواطنها ؟ لقد كانت الرحلة طويلة شاقة ، حيث ابتدأت من تلك الاغلفة الموسومة للبتلة من قطنة وصوفية يضمها الانسان على ظاهر جسده ، ثم انتقلت الى أرديته اللحية الحبيبة وأجهزته الاجتماعية اللدنة ، حتى أوغلت الى أردية قسه وغلائل روحه : الى الزمان والمكان ذاتهما . والآن وقد زعت عن جوهر الانسان الابدى الروحاني تلك اللغائف والاعطية ، أراه قد شرع يتكشف عن حقيقته ؟ هل في استطاعة كثير من القراء أن يلعنوا ، كما من خلال زجاجة كدوة ، عناصر الطبيعة الآدمية ، وأن يميزوا منها ما هو ثابت دائم ، وما هو قلب حوّل ؟

ان ناشر هذه الصحف ما كان يتوقع توقفاً جلياً ؛ بل كان يتخفى مجرد التمني ، ان يتمكن كثير من القراء من اجتياز ذلك الجسر المضطرب الذي لم يسمع بمثله في الاولين ولا الآخرين ، والذي قد يوفق الناشر بمونة المولى الى انتهائه ، ان لم يكن الى اتمامه . نعم ما كان في استطاعتنا ان ننشئ فوق ذلك الخضم المعجاج ، عقداً راسخ الدعائم معبد النهاج ، بل كان كل ما في طاقتنا ان نلقي على صدره الرجراج سلسلة متمعة من الارمات المائلة ، متجسدين في ذلك من المشاق ما تجسمنا ، ومكابدين من المخاطر ما كابدنا .

ولكن هل من المستبعد ان يوجد هنا وهناك في الاف واحد من ذوى البصائر الثاقبة قد تمكن هو وأمثاله القليلون من اجتياز هذا الجسر بالرغم من كل صعوبة ؟ ايه يا معشر الاخوان اللوقين ! أهلا بكم وسهلا ! وصداً في عملكم صيدا ! ان المين بالرغم من هذا الظلام الحالك لن تلبث حتى تألف ما يحيط بها ، وان اليد لن تلبث حتى تهتدى الى أغراضها ، ولن يمضى إلا القليل حتى يلحق بكم سواكم ، وحتى يبنى غير هذا الجسر جسور أخرى ، بل من يدري فلعل جسراً هذا الواهن المضطرب قد يصلح ويرم انهاء اجتيازكم اليه جيئةً وذهاباً ، فيصبح متيناً غاية المتانة ، وصالحاً للمبور حتى للمرج ؟

يبد أنه لا يسعنا إلا ان تسأل : أين ذهبت تلك البقية التي لا تخصى ممن بدأوا معنا هذه الرحلة : لم يبق من جذلاً وأملوا ولكننا لآرام الساعة يجانبنا ؟ ان أكثرهم قد نكس على عقبيه ، ثم وقف يحقق اليأس عن بعد ، مندهشاً من أقدامنا على هذا المسير المجهول . وكثيرون غيرهم كانوا أوفر من هؤلاء شجاعة فأخذوا يتقدمون ولكن عثرت بهم أقدامهم ، فسقطوا في غمار اليم تتقاذفهم أمواجه ، بعضهم نحو هذا الشاطئ ، وبعضهم نحو ذلك . وهؤلاء حقيقون بأن نغاليهم يد المساعدة ، أو بأن توجه اليهم على الأقل كلمة التشجيع . أو دعنا نقول في غير استمارة ولا مجاز - والحق ان الاستاذ قد عدنا بهذا الاسلوب - هل يمكن ان يخفى علينا ان كثيرين من القراء يقرؤون الآن هذا الكتاب مصدعي الرؤوس يتسالمون في حيرة : ما الغرض الذي اليه يري ، وما الفائدة التي منه ترجى ؟

اما ان كان القصد نمون كبسك أو مساعدة أدائك الهاضمة من أى



طريق آخر فاعلم أيها القارئ، ان هذا الكتاب لا يؤدي الى غرض ما، ولا ترجى منه فائدة ما . بل هو على العكس من ذلك ، لانه يكلفك بمض الشئ . ولكن اذا كانت الاستاذ ، ونحن عن طريقه ، قد سرنا بك الى وادي الاحلام ، فاستطعت أن تنظر ولو خلسة من خلال سجوف الملابس الى مملكة المعائب ، وان تشاهد وتحس ان حياتك اليومية محاطة بالمعجب ، ومبنية على المعجب ، وان كل ما يخلق بك ، حتى هذه اللحظة والسرويل ، هي معجزات وخوارق - اذن لكنت قد افدت فائدة لا تقوم بحال ولا تقدر بشئ .

وفوق هذا أو لم يتبين لك الآن أن كل الرموز ان هي إلا ملابس ، وان كل المظاهر التي يترامى فيها الروح للبصر أو للبصيرة ان هي إلا ملابس . ومن ثم كانت فلسفة الملابس هذه فلسفة عالية ، خليفة اذا انت درستنا أعمق الدرس بان توثق ثماراً شبيهة ، وجديرة بان توضع في صف واحد مع العلوم القانونية والاقتصادية ، بل بان تشرف عليها من عل باعتبارها مصدر روحها ومبعث روحها ؟

واذا نحن تركنا جانباً هذه الناحية العالية من فلسفة الملابس فاننا لنجد أية ناحية أخرى بها انضمت الآولها شأنها وخطرها ، الا وهي خليفة بان تؤدي لدى البحث الى نتائج عملية جمة . فلنصرف النظر عن تلك الخواطر الخصبية من خلقية وسياسية ورمزية التي تزدحم على ذهن فيلسوف الملابس وهو لما يتجاوز حبة مباحثه ، ولننفض الطرف عن تلك الفكر الفنية التي تنطوي تحت كل ذي وطراز والتي سوف تمتدح حتى أحسن ابرازها عن تطورات خطيرة - لنضرب صفحاً عن كل هذا ولنجل الطرف لحظة

فما يمكن ان يدعى القسم اللباسى من ابناء آدم - فى تلك الطائفة التى يصح ان تسمى حيوانات الملابس ، تلك المخلوقات التى تمبش وتجبش فى الملابس وتستمد مادة حياتها وغذاء روحها من الملابس : أعنى المتأقين والتلياطين .

والحق ان هذه الطائفة لانزال تلقى من رأى العام ، الذى لما هتد بنور الفلسفة ، ظله اوعتكا . ذلك بانه لا ينفك يسئ فهمها ، بل لا يرح يتهاك حرمة الانسانية فى حقها ، كما سوف يتضح لك من كلام الاستاذ فى الفصلين التاليين .

## الفصل العاشر

### عشرة المتأقين

يحسن بنا بادىء بدء أن نأتى على تعريف المتأق تعريفا علميا دقيقا . فالتأق هو إنسان يلبس الملابس ، إنسان لام له ولا شاغل ، ولا غرض له ولا مأرب إلا لبس الملابس ، فكل ملكة من ملكات عقله وروحه وكل موهبة من مواهب كبسه وجسمه قد وقفت وكرست بشجاعة وبطولة على هذا المطلب الأوحى والناية القمّة : لبس الملابس بحكمة ولباقة . فهو يمتش ليلبس اذا كان سواء يلبس ليمبش ، قد أدرك بالفطرة وعضو البدنية من خطير شأن الملابس ما تجرد لشرحه فى مجلد ضخيم فيلسوف من فلاسفة الألمان متقطع التغير فى سمة اطلاعه وتوقد قريحته ، حتى لتحبب ذلك الانسان قد نزل عليه من الملابس وحى والهام ، فهو شامرها للقلق وصاحب

فكرته المبدع، وهو شأن كل صاحب فكرة لا يقر له قرار أو ينفت مليحيش في صدره من خلجاتها.

غير صحيح إذن أن يعمد التأنيق وهو ذلك المتحصر المبدع الى ابراز فكرته من حيز القوة الى حيز الفعل، وان يخرج للملا في زى معين وأن يمشى بين الناس شاهداً وشهيداً للملابس من زيا خالصة ونضل مبين. لقد دعونا شاعرا وهل في ذلك من بدع؟ أولا تراه يتخذ من جسده قرطاساً منشوراً يرفع عليه بداد من بارع الادب يغ بصيدة غزلية لشيقه، بل ملحعة حماسية للناس أحمدين! بل اذ سلطنا بنا هو جائز وقتنا لأن التأنيق لا يمس نصيبه من موهبة التفكير وأنه لم يمس بعض الشيء بحقيقة الزمان والمكان ألا ترى حينئذ أن في انحصاره للتناهي للملابس وفي أضواءه لتضحية الابدى في سبيل الوقتى والباقي في سبيل القانى - تقول ألا ترى في ذلك نوعاً (وان كان معكوساً) من ذلك المزج والتوحيد بين الوقت والابدية، ذلك للزج الذى رأيناه سر النبوة وجوهرها.

نم انظر ماذا تراه بطالب من الجزاء على هذا الاستمهاد وعلى ما يقدم للناس من آثار شعر وآيت نبوة. انه لا يبتنى على ذلك أجراً غير الاعتراف بوجوده والتسليم بأنه كائن حى، شئ منظور، أو جسم يحكى أشعة النور. هو لا يبتنى منك فضة ولا ذهباً، ولا جاهاً ولا حساباً، وانما يتنس نظرة من نظراتك، ويستريح لفته من لفتاتك. أنظر اليه وسواء عليه أهتم أم لم أهتم، ممانيه الباطنية، ونظمت أم لم تنظم الى منازيه الزمنية، بل حسبته منك أن تنظر اليه وكفى. ألا بعداً لهذا العالم الجحود وبؤساً! ييمثر قواه البصرية ذات اليقين وذات اليسار مؤورا على التامسح الصبرة وتارة على

الخالق المشوهة ، ثم بضن ، ألا بلحمة جبل أو بلحظة شزرا ، على أعجوبة  
المعانيب وخارقة الخوارق : الانسان المتألق .

عجبا واقه ايهل المتألق هذا الاعمال ، فلا يبنى علماء الحيوان بغير  
منزلة بين فصائل ذوات الثدي ، ولا يحفل علماء التشريح بتشريحه ، ولا  
تهتم الحكومات بوضع نماذج منه في المتاحف ، ولا نمبأ المحافل العلمية بحفظ  
انواع منه في ممتل السوائل ؛ يبالغ المتألق في تزوين شخصه وتظريف  
هندامه ولكن عبثا تذهب أتمابه ، فان الجهر والاعشى مشغول عنه بطلابه  
الحيوانية وحوائجه البهيمية ، قد أعرض عنه صفحا ، وطوى نونه كشعا .

حقا لقد مضى عصر التطلع كما مضى من قبل عصر الفروسية ، ولكننا  
نرجو أن تكون فترة نرم لا انقطاع ، فها هي فلسفة اللباس قد نهضت  
تبعث الاول من مرقد ، وتنتشر الثاني من ملهده . ومتى فقه الناس أسرار  
هذه الفلسفة تكشف لبعائرهم حقيقة المتألق ، فانكروا معانيه الخفية ، وحلوا  
رموزه الباطنية . ونحن رجاء ذلك نسوق لهم فيما على قطعة من عطفة من كتاب  
الفيلسوف عليهم يستمينون بها على تفهم الموضوع واستجلاء غوامضه :

« في هذه الاوقات المضطربة التي طردت فيها الروح الدينية من أكثر  
الكنائس ، فهي اما قد بقيت مخبئة في قلوب الصالحين وتطلع وتنشرف  
وتعمل للتجلى في صورة جديدة ، واما قد خرجت هائمة في انحاء الارض  
كأنها الروح الحائر يلتبس التخص في الجسم المناسب له . في هذه الاوقات  
المضطربة فير عجيب ان تمتد الروح الدينية الى التخص على سبيل التجربة  
في كثير من المظاهر النورية . مظاهر التخص والخزيلات . قمرى البدة

تخرج اثر البدعة ، والشيعية تظهر بعد الشيعة ، ولكنها لا تلبث ان تتلاشى متجولة الي مظهر جديد .

« واطهر ما يشاهد هذا في بلاد الانجليز ، لأنها ، وهي اوسع البلدان نزوة واسوأها تملها ، قد احتوت اصلح العناصر ( واعني عنصرى الحرارة والظلمة ) لتوليد أمثال هذه الخزعبلات . ومن احدث ما نجم هنالك من هذا القليل شيعة المتأقين ، واذ كان المذهب هذه الشيعة ارتباط وثيق بموضوع هذا الكتاب فقد رأينا من المناسب ان نثبت هنا ما جعناه منها من قليل المعلومات .

« صحيح ان بعض الصحفيين الانجليز ، وم قوم لافقهون من الروح الدينية شيئا ، يعتبرون هذه الطائفة أصحاب مذهب دينوى لامذهب دينى . ولكن صاحب العين البصيرة لا يلبث أن يتبين ما يتطوي عليه مذهبهم من معانى الزهد والتقوى بل من معانى التضحية والبذل . علي انى لست أدري بعد الى أى فريق تنتمى هذه الشيعة : ألى عباد الاوتان ، أم الى عباد الابطال ، أم الى القائلين بتمدد الارباب . وأكبر غلى ان مذهب المتأقين هذا هو صورة جديدة مطابقة لمقتضيات المصر من ذلك المذهب القطرى المتيق : مذهب « عبادة النفس » . لهذه الاسباب وبحسب ما افصح لى حتى الآن ، ليس لى اعتراض على من شاء أن يسمي هذا المذهب صورة جديدة من عبادة الشيطان .

« وكيفما دار الامر فأصحاب هذا المذهب - شأن أصحاب كل مذهب جديد - هم قوم متحمسون ، يظهرون كثيرا من الشجاعة والجلد ، ويتعاشون التدنس بمخالطة فيرم ، ويميزون أنفسهم بنوع مخصوص من

اللباس وأسلوب مخصوص في الكلام . وجملة القول أنهم غلصون لمنهيبهم يحاولون أن يمشوا عن الدنيا بمزل ، وأن لا يصيبهم من أوجاسها قننى .  
 « ول هؤلاء القوم مما بدعهم ، ونسى في عرفهم : معارض الأزياء ، أو أبهاء الرقص ، وأكثر ما يقيمون مناسكهم في جوف الليل ، ولهم كهانهم وكاهناتهم ، ولكن هؤلاء لا يتقلدون مناصبهم طول العمر . وهم يتكتمون شمائهم كل التكتم . ولهم أيضاً كتبهم المقدسة . وفي في عرفهم الروايات الحديثة .  
 « ولقد وفقت ، بتكبد شئ . من النفقة طبعاً ، الى احراز طائفة من هذه الكتب ، فأكيت على قراءتها محاولاً تفسيرها ودراسة بكل ما أوتيت من فهم وما عندى لموضوع اللباس من تحس . ولكن تبى ذهب ادراج الرياح ، ولأول مرة في حياتي وجدت أن ملكة القراءة ، تلك التي ما زلت اعتد بها ولا أحسب أحداً ينكرها على ، قد عجزت ولم تفن عنى شيئاً .  
 فعبتاً ما كنت أستجمع كل قواى ، وعبتاً ما كنت أبذل أقصى مجهودى ، اذ كنت لا أكاد أتناول الواحدة من هذه الروايات وأقصى في مطالعتها لحظة حتى أحس كأن دويهاً تلايماً صاخ أذننى ، وكأن دمدمة مرعبة تمزق غشاها عنى ، ثم يدقب ذلك سبات مغناطيسي كأشد ما يكون السبات اجهاداً للاعصاب وازعاجاً . فاذا حاولت أن أدافع هذا الكابوس عن نفسى ، وأن لا أستسلم له الاستسلام كله تولانى شعور لم يخالجنى أبداً من قبل مثله ، فأحس كأننى هابط في منحدر المهنطين ، وكأننى أوشك أن ينسى على انحاء يفقدنى كل احساس . وأخيراً بناء على أمر الطبيب ، وخشية أن تصاب كل نواى العقلية والبدنية بالتلف وأن يحل بينى انحلال عام ، أقنعت كارها .  
 ولكن مصماً ، من هذه المحاولات للهلكة العقيمة . عجباً والله اهل فيه

الامر سر ؟ هل ههنا أمثال تلك الارصاد التي يزعمون انها تحرس هياكل  
للؤمنين من تهجم الكفار ؟ بيد انه كيفما دار الامر فانحسب القارىء ، بعد  
هذا الاخفاق بالرغم من هذه الجهود ، الا مفسحا لنا ساحة المنز اذا  
جاءت الصورة التي نحن موردوها عن عشيرة المتأقين مبتورة غير وافية  
« واذ كنت غير مستغن لاعن حياتي ولا عن حواسي فليس في الارض  
قوة تستطيع حملي على ان افتتح مرة أخرى رواية من هذه الروايات . ولكن  
من حسن الحظ ان تمتد الي ، واتي لفي هذه الحيرة ، يد من السحاب جاءتهنى ،  
ان لم يكن بالفتح المبين ، فلى الاقل بالخلاص . ذلك انى كنت ذات يوم  
أفص لقاقة بها بعض المطبوعات الواردة من بلاد الانجليز ، فوجدت بين  
الطيات الداخلية من غلافها بعض الاوراق المطبوعة كجاهى العادة ، فلم استنكف  
ان انظر فيها بنوع من الاحترام كالتنى يستشره المسلمون حتى للاوراق  
المنبوذة ، حيث يصادف أحيانا ان يقف الاستاذ على معلومت طرفة . فليتصور  
القارىء دهشتى اذ وجدت على بعض هذه الاوراق السائبة لى يخيّل الى انها  
جزء من مجلة انجليزية ما يشبه ان يكون مقالا عن نفس هذا الموضوع :  
موضوع الروايات الحديثة . فسرعان ما أخذت فى قراءته وبحمته ، فاذا به على  
فروضه يتضمن هنا وههنا لمحات نيرات فى صميم مذهب المتأقين ، وأم  
ما عثرت عليه من هذا القليل بيان بما يصح ان يسمى اركان ملة الاناقة أو  
وصاياها للقسمة . واذ لم يكن عندى احدى شك فى صحة المصدر المستقى منه هذا  
البيان لاني أبنته هنا بنصه ، ومبالة فى الحيلة من الوقوع فى انلطأ ها أناذا  
أترجمه للقراء بمرغى : -

## « أركان الملة »

- (١) غير مباح ان يكون في تفعيل الثياب شيء على هيئة للثلاث ، وغير مباح كذلك ان يكون فيها شيء من التجمد من الخلف .
- (٢) الياقة أمر مهم جداً ويجب ان تكون منخفضة من الورا .
- (٣) لا شيء ، أدل على سلامة ذوق المرء من خواتمه
- (٤) مباح للناس ، مع مراعاة بعض القيود ، ان يلبسوا صدارات بيضاء .
- (٥) يجب ان يكون البنطلون ضيقاً جداً حول الفخذين .

« يناقض شيعة المتأقين هذه على خط مستقيم شيعة بریطانية أخرى ، أصل منشأها في ايرلندة ولكنها آخذة في الانتشار في كل مكان من الجزر البریطانية . واذ لم يكن لهذه الشيعة كتب دينية تفسر ملتها وتوضح مذهبها فإنه يحيط بها من القموض مثل ما يحيط بشيعة المتأقين التي وان تكن لها كتب مقلدة الا انها كتب كدملها لا يستطيع العقل البشري ان يفهم من اسرارها شيئاً . وعضء هذه الشيعة يتسمون باسماء مختلفة باختلاف أماكهم ، ولكن هنالك اسماً عاماً يطلق على المشيرة كلها وهو الفقراء الارقاء ، فنكتفي به ونضرب عن سائر الاسماء صفحاً .

« وانه ليكاد يكون من التمنر ان نهتدى الى ما نمتقه هذه المشيرة من معتقدات فطرية ، وان تقف على آرائها في الكون وفي الانسان وفي حياة الانسان ، وأن ندرك ما يحتاج الفرد من اعضائها من العواطف وهو ينظر خلفه الى الماضي أو يتلفت حوله في الحاضر أو يتطلع أمامه الى المستقبل . وانه ليلوح للتأمل في نظام هذه المشيرة انه مصطبغ بصبغة الرهبنة ، فانك تراهم مقيدون بنفوس من نذور الرهبان : نذر الفقر ونذر الطاعة . وهم



يتسكون بهذين النذرين ، ولا سيما نذر الفقر ، أشد التمسك . بل لقد علمت  
أنهم منذورون للفقر حتى قبل مولدهم . أما النذر الثالث من نذور الرهبنة وهو  
نذر العفاف فليس ثمة ما يحملني على الظن بأنهم يتقيدون به . .

« والظاهر أنهم يقلدون عشيرة المتأقين في مبدأهم الاظم وهو اتخاذ  
لباس مخصوص . بيد أنه لا أمل للقاريء في أن يجد هنا وصفا لهذا اللباس  
الذي لا سبيل الى وصفه بهذه الأداة المأجزة : أداة اللغة . والواقع أنه ليس  
الا مجموعة لا تحصى من الخرق والزرق والرقع متخذة من جميع أصناف  
الأقمشة وجميع ضروب الألوان ، وهم يدرجون أجسامهم في طيات ثماريحهم  
وتلايفهم بطريقة غريبة غير معروفة . واجزاء هذا اللباس مترابط بعضها  
ببعض بمجموعة من الازرة والاربطة يضاف اليها في كثير من الاحيان  
حزام من الجلد أو من الكتان أو من القش يلف حول الخصر . والظاهر  
أنهم يفضلون القش ، حتى لقد يتخذون منه نعالهم في أكثر الاحيان .

« ولقد يخيل الى المتأمل أن هؤلاء القوم هم من عباد الارض ، فأنهم  
لا يخرجون عن أحد فريقين : فريق دائم على الحفر فيها منرم بالعمل في  
جوفها <sup>(١)</sup> ، وفريق محبوس في خلوات خاصة لا عمل له الا التأمل في المواد  
المستخرجة منها ومعالجتها <sup>(٢)</sup> ، ولذلك تراهم قلما يرفعون أبصارهم نحو  
السموات كعب السملوية ، وان فعلوا ففي جهود لا تحتلجها عاطفة . وهم يمشون في  
مسالك مظلمة ، بل لقد تراهم يمشون الى تكسير زجاج نوافذهم حينما  
يحدون شبا منه ، ثم يسدون بها بعض الخرق أو ماعداها من المواد الكثيفة  
حتى تئود الى المكان ظلمته المناسبة . وهم ، شأن كل عباد الطبيعة ، معرضون

لا تعجارات من التعمس تبلغ حد التوحش ، فتراهم يحرقون الآدميين ،  
 ان لم يكن في كسبان الاوثان الخشبية ، فيبن جدران الأكوخ الطينية .  
 « ولهوؤلاء القوم من حيث المأكل قواعد راعونها ، فهم جميعاً على ما يظهر  
 من أكلة الجفور ، وقليل منهم يأكلون السمك المملح ، أما ما عدا ذلك من  
 أصناف اللحوم فحرم عندهم . على أنهم يحلون أكل الحيوان الذي يموت  
 موتاً طبيعياً ، فهم في ذلك يتأقضون المسلمين والبراهمة . وأكثر ما يأكلون  
 الجفور المعروف بالبطاطس ، يأكلونه قهقاراً بلا ادلم . وأما شراهم فلونان  
 متناقضان أشد التناقض : الابدن وهو أرق السوائل مزججاً ، و« البوتين » وهو  
 أعنف الأشربة سورة . ولقد اتيج لي أن أخوق هذا الشراب فلذا به يحرق  
 نوعاً من الكحول في أعلى درجة من التركيز ، ولذا به على الجلبة احرق مادة  
 تفوقها لسانى ، ولك أن تسميه اذا شئت نارا سائلة . على أنهم يستهلكون  
 منه كميات غزيرة ، ووجوده بوفرة أمر لا بد منه في جميع خلاهم الدينية .  
 ولقد أعطانا أحد السياح الارلنديين صورة لهاخلية بيت أهله على  
 ما يظهر من اتباع هذه الملة . وهكذا سيتاح للقراء من الامان أن يشاهدوا فقيراً  
 ارلندياً ، كأهم يرونه بأعينهم ، بل أن يشاهدوه وهو يتناول طعامه . وكنا  
 قد عثرنا في تلك الصحيفة القيمة التي وجدناها في غلاف القفافة على صورة  
 لهاخلية بيت لأحاملاتأتين . فرأينا من باب المقابلة أن تبتهاى الاخرى هنا .

## وصف لمسكن فقير

« يشتمل الاثاث على قدر كبيرة من الحديد ومنضدين من الخشب  
 ومقعدتين وكرسيين وزق البوتين . والجزء الاعلى من المسكن عبارة عن

صندلية يصعد اليها بسلام وينام فيها أهل البيت . أما القسم الاقل فشطوط  
شطرين : واحد للبقرة والخنزير والاخر للجلوس أهل البيت والضيوف .  
ولما دخلنا البيت وجدنا أهله يتناولون الطعام ، وكانوا احد عشر شخصا ،  
وكان الاب جالسا في صدر المائدة والام في الناحية المقابلة له والاولاد  
مصطفون على الجانبين ، وكانت للمائدة عبارة من كتلة من الخشب في وسطها  
تقره تلقى فيها محتويات قدر البطاطس ، وعلى أبعاد متساوية بطول دائرتها  
ثقب صغيرة يوضع فيها الملح . وكان فوق المائدة ومطب ملوئ لبنا . أما عند  
خلفك من الاهوات كالملاعق والشوك والصحاف ، ومن اطايب الاطعمة  
كاللحم ولباب البر والجمة فكل هذا قد استغنى القوم عنه . وكان رب  
البيت رجلا مريض الاطوار ، أغبر السحنة ، شديد الاسر ، يمتد شعقه من  
الاذن الى الاذن . أما زوجته فامرأة ملوحة البشرة ولسكنها مليحة التقاسيم ،  
وكان الصنار مرأيا يشتهون الطعام بشية العتيان .

### وصف لمسكن متأنق

«غرفة «تواليت» فخررة الرياش ذات ستائر بنفسجية وكراسي واراائك  
من اللون عينه ، وبها منضدة على جانبيها مرآتان بطول الانسان ، وفي ناحية  
أخرى منضدة أصغر حجما مرصعة بالصدف وعليها زجاجات عدة مملوطة  
بانواع الطيوب والمطور ومرتبة على نظام بديع . وفي الجهة للقبالة ادوات  
الافئصال وكلها من خالص الفضة . وعلى اليسار خزانة الملابس من خشب  
الصندل الماطر نقي بما أودعت من فاخر الثياب وتحتل رفوفها السفلى ازواج  
عدة من الاحذية هي الناية في صغر الحجم ودقة الصنع . وعلى اليسار باب  
منخفض يلمح منه الناظر غرفة الحمام تتألق بمحتوياتها تألقا ،

« هاتان هما الشيطانان اللتان تقفان فيما بينهما الشطر غير المستقر من الشعب البريطاني - والظاهر أن شيعة الفقراء ، أولا الاجراء كما يدعون أحيانا ، آخذة كل آن في الازدياد عددا وقوة. أملاشيعة اللأتقين فليس من طبعها ان تسعى لاكتساب الانصار ، ولكنها تعتمد على مواردها الوراثية العظيمة ، وهي قوية باتحادها خلافا لشيعة الاجراء التي لا تزال متفرقة احزابا لا تجمع بينها رابطة . ولذلك ترى اللأتقين يقتسمون الاجراء ببيوتهم ، ولكن لمل ساعة الامتحان اذ يتبين بمجلاء أى الشيعتين أحق بأن تقسم الاخرى بنظرها ليست بميدة كل البعد .

« والذي يلوح لى أن هاتين الشيعتين ستقسمان بلاد الانجليز فيما بينهما يوما من الايام ، بعد أن تضما اليهما كل ما هناك من الطبقات التي هي الاند فاعلة بينهما ، وغير متمية الى أيهما . عندئذ نجد الشعب البريطاني قد انشطر الى معسكرين : معسكر اللأتقين ومن يلوذ بكنفهم ، ومعسكر الاجراء الارقاء . ومن ينضوى الى لوائهم . وانى لاشبه هاتين الشيعتين بلوامين فوارتين قد اتججرتا على الجانبين المتقابلين من الارض اليابسة تبعدان الآن كأنهما عينان هذارتان مزبدتان لا يسجز الانسان ردمهما ، ولكن تأمل فيها مليا ، تجد قطريهما يزدادان اتساعا في كل آن ، انهما في الواقع فوهتا بركان متصل باحماق الهاوية التي ماعده الارض اليابسة الاقشرة رقيقة على منها الموار . وهكذا تجد الارض الفاصلة بين اللوامين آخذة كل يوم في الاتساع ، كما تجد كلا من الفوهتين آخذة كل يوم في الاستمرار ، حتى لا يبقى فاصل بينهما الا بوزخ أفق من الصراط ، ثم لا يلبث هذا حتى يكتسح أيضا ، وعندئذ -

عندئذ لا يروحك الا أبواب الجحيم قد افتحت ، فاذا طوفان النور يفرق  
طوفان نوح في ضحضاه !

« أو قل اذا شئت إن هاتين الشيمتين هما أشبه شيء بآيتين كهربائيتين  
هاتيتين لا نظير لهما ، مشتملتين على بطاريات متضادة : احدهما وهي شيمة  
الاجراء ذات بطاريات سلبية ، والاخرى وهي شيمة المتأقين ذات بطاريات  
ايجابية ، فهذه تجذب اليها كل مافى الامة من كهربائية ايجابية (أعني المال)  
وتلك تجذب اليها كل مافى الامة من كهربائية سلبية (أعني الجوع) . ولئن  
كنت لم تلمع فيما ينهجا حتى الآن الاشارات متقطعة جزئية ، فانتظر قليلا  
حتى تصبح الأمة كلها في حالة متكهربة ، حتى تمود الكهرباء الحيوية  
باسرها ، لا كما كانت في حالة تماسك صمى ، بل منشطرة شطرين منزولين  
من ايجابي وسلبي (من مال ومن جوع) كل منهما مشحون بفرده في بطارياته  
الخاصة . إذ ذاك يكفى أن يحرك طفلا أصبعه حتى يلتقى الضدان ، وعندئذ  
- عندئذ تقع الواقعة التي تذر الارض في صادمها رمادا هائيا ، فاذا الشمس قد  
فقدت أحد كواكبها السيارة ، واذا القمر أصبح لا يهرب خسوفاً !  
« أو قل اذا شئت ... »

كلا ! بل حسبنا تشبيهات واستعارات لا تدرى في الواقع ايها ، نحن ام  
الاستاذ ، قد بد صلحبه في ميدانها .

لطالما عتينا على الاستاذ ليله الى الاسهاب والاعراق ، ولطالما آتسمنه  
نزعته الى الباطنية والى تأمل كل شيء من الناحية الدينية ، ولكن الحق أن  
هذه النزعة وذلك الميل لم يفسدا عليه نظره ، الذى عهدنا به انصب من الشباب ،  
كما أمداه عليه في هذا الفصل للمنون « بشيرة المتأقين » . ام هل ترى الاستاذ

لا يقصد بأقواله هذه إلى الجدل ولكن إلى التهمك، وأنه ليس من النبوة والمشاورة بحيث يتكلف أن يكون ؟ أما لو كنا أزاما نسان عاصي لما ترددنا في الرد بل لا يجاب، ولكن بالنسبة لرجل غريب الأطوار كالأستاذ لا يستطيع المرء أن يخلص من الارتباب .

والآن نورد ملاحظات الأستاذ عن طائفة الخياطين ، ومن حسن الحظ ان رأينا هنا يتفق علم الاتفاق ورأي الفيلسوف كما دونه في الصفحة الأخيرة من كتابه ، اذن فلتتركه يدلي إلى القارئ بكلماته الختامية : -

« لا بد أن ينقضي نصف وقرن ونزاع الحرية الذي مشوب لعاهة وشيطان الظلم يذهب بضحاياه ، وملوك العدل يأخذ شهداءه ، قبل أن يسترف للخياطين بحقوقهم في الأدمية ، وقبل أن ينتمل بهذا الاعتراف آخر جرح في جسم الانسانية .

« والواقع أنه اذا كان في تاريخ النبوة شيء يدعو إلى العجب ، فهذا يحق لنا أن نقف ونعجب . لقد نبئت فكرة انتشرت إيماناً انتشاراً ، واستقرت في الأذهان إيماناً استقراراً ، مؤداها أن الخياط ليس بأنسان ، وانما هو جزء من الانسان . فأصبح الخياط وكل ما يلبسه موضع الازدراء ، حتى لو أنك نبزت امرأة بقلب خياط لاحتلبت بذلك عداوته اللداء .

« ولكن اذا لم يكن سهري الليالي الطوال ، ومواصلي البحث بلا تعب ولا ملال ؛ سينهبان أدراج الرياح فلست أشك في أن الدنيا ستبذل الآن هذه الفكرة الخاطئة ، وفي أنه سوف يتضح للناس بكل جلاء أن الخياط ليس انساناً غريب ، بل هو بمعنى ما خالق أو الله .

لقد قيل عن فرانكلن انه انتزع الصاعقة من السماء والصولجان من  
الملوك ، ولكى أقول متساؤلا : ايها أعظم شأنا ، الذى يعطى ويمنح ، لم الذى  
يسلب وينزع ؟ الا ترى الى الخياط كيف يتناول الانسان عاريا فيخرج ممن  
يديه كاسيا ، عليه رداء ، لامين مجرد الصوف أو القطن ، بل من المجد  
والملاء ، والسؤدد والثناء ؟ البس هذا النسيج البديع ، نسيج الهيئة الاجتماعية  
بما حوى من حلل ملوكية وطيالس كهنوتية انتشلت الانسانية من حالة العرى  
والتفرق فظمتها هيئات متعاونة وجامعات متضامنة البس هذا النسيج من  
صنع الخياط وحده ، كما أقنا على ذلك غير مرة الدليل الساطع ، والبرهان القاطع ؟  
بل حدثنى البس كل شعرائك و، حاكميك الروحانيين ضربا من الخياطين  
المجازيين ؟

« وهذا اذن هو الذى يجلس فى حانوته منكس الرأس ، قد ضربت عليه  
المسكنة ، وتناولته من كل ناحية نظرات الاحتقار اياه ايها المضطهد  
المستضام ! ارفع رأسك وانظر بعين الامل المشرقة ، وابشر بقدم عهد  
سعيد . لعلنا جلست فى حانوتك مكبا على عمك ، كانك ناسك فى صومعته ،  
مستغرق فى العبادة ، يستنزل من السماء أطيب بركاتها على عالم يسخر منه  
ويهزأ به . ولكن صبرا ! صبرا ! هاهى تبشير الفجر قد دلاحت من خلال  
السحب السوداء ، مبشرة بان ظلمات الجهل توشك أن تتمزق ، وبأن وجه  
الصباح يوشك أن يشرق ، وعندئذ تودى اليك الانسانية دينها المظلول  
مضاهقا ، ويصبح الناسك المزدرى معبودا مبجلا ، نعم ويصير الكمر وقا  
محييا ، بل مريما ومكبيا . »

## فهرست الكتاب

رقم الصفحة

### (الكتاب الاول)

الفصل الاول . مقدمة	٩
» الثاني . مصاصب في سبيل النشر	١٤
» الثالث . ذكريات	١٧
» الرابع . مميزات وعصائص	٢٨
» الخامس . الدنيا في الملابس	٣٥
» السادس . في المبالى والملابس التاريخية	٤٠
» السابع . الدنيا مجردة من الملابس	٤٢
» الثامن . في التجرد	٤٩
» التاسع . المادية والروحانية	٥٣
» العاشر . نظرة الى الامام	٥٨

### (الكتاب الثانى)

الفصل الاول . المنشأ	٦٨
» الثاني : عهد الطفولة	٧٤
» الثالث . عهد الفراسة	٨٣
» الرابع . في سبيل البحث عن عمل	٩٧
» الخامس . عهد الفترام	١٠٨

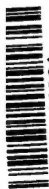


رقم الصفحة	
١٢٣	الفصل السادس . احزان تيوفلسدروخ
١٣٢	» السابع . استحكام اليأس
١٣٨	» الثامن . في سبيل الشفاء
١٥٠	» التاسع . انبلاج الأمل
١٦٢	» العاشر . التلثم
	( الكتاب الثالث )
١٦٩	الفصل الأول . أعظم حادثة في التاريخ الحديث
١٧٥	» الثاني . الملابس الدينية
١٧٩	» الثالث . في الرموز
١٨٦	» الرابع . مجد العمل
١٨٩	» الخامس . العنقاء
١٩٤	» السادس . الملابس القديمة
١٩٩	» السابع . الفسائج المضوية
٢٠٦	» الثامن . الحقيقة الباطنية
٢١٩	» التاسع . نظرة استعراض
٢٢٢	» العاشر . عشيرة المتأقين

## اصلاح خطأ

ص	سطر	الخطأ	الصواب
١٨	١٩	ذهنى	ذهن
٢٤	١٤	الفيلسوف	للفيلسوف
٢٦	١٢	عملنا	علمنا
٣٧	٩	الصفات	الصفة
٤٦	١٣	بموتة	بموتة
٤٧	٨	وتصاوير	تصاوير
٥٥	٣	للمشوهات	الشوهات
٧١	٨	ليجديان	ليجديا
٧٢	١٦	أبأى	أبى
٨٤	١٧	كان	كانه
٨٧	١٠	التقيل	التقيل
٨٨	٦	السرو	السرو
١١٠	٩	مائلة	مائلة
١٢١	١	تسمى	ونظرات تسمى
١٢٣	١٤	الخيرية	الطارية
١٤٠	٢	يلحفك	يلحفك
١٥٣	٣	ستائره	ستائر
١٥٨	١٥	وعلل	وتحمل





0493961